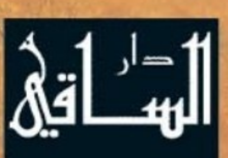
السياسة والحيلة عند العرب

رقائق الحلل في دقائق الحيل



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(السياسة والحيلة عند العرب: رقائق الحلل في دقائق الحيل)

ل «**رنيه خوام**»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

مروة جمال - مصر



TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

الطبعة الورقية الأولى، ١٩٨٨ الطبعة الورقية الثانية، ٢٠١٨
الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٩ ISBN-978-614-425-176-8 دار الساقي بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢.
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣ هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com تابعونا على DarAlSaqi@ دار الساقي Dar Al Saqi

مقدّمة

في مطلع القرن الماضي كان باشا مصر (محمد علي الكبير) يفتح بلاده على الحضارة الأوروبية، فيغرف منها ترجمةً واقتباساً وتعلّماً في كل المجالات والفنون. ومن جملة ما بوشر بترجمته كتاب الأمير لمكيافيللي [بالإيطالية De principatibus / Il Principe]. وكان يوجّه مباشرةً حاكم مصر للاطّلاع عليه والاستفادة. ولكنّ محمد علي، وبعد قراءة فصلين فقط، أمر بإيقاف الترجمة لأنه، على حد تعبيره، يعرف "من الحيل أكثر مما يعرف هذا الأمير الأوروبي". هذه الواقعة ليست الوحيدة التي تشير إلى تقدّم التجربة العربية الإسلامية في فنون الحكم والسلطة، بل إنّ التاريخ العربي الإسلامي يفيض بالشواهد والدلالات على إتقان لعبة السلطة والحكم في هذه المجتمعات. حتى إنّ بعض حكّام أوروبا لم يجد غضاضة في أن يتوجّه إلى السياسيين العرب كي يتتلمذ على أيديهم في هذا المجال، كما حصل لفريدريك الثاني، إمبراطور إلمانيا في القرون الوسطى. وعلى صعيد آخر، مكيافيللي نفسه – مؤلّف كتاب الأمير وهو أشهر الكتب عن الإمارة أو فن الحكم والسياسة – قد تأثّر بالفكر الشرقيّ وذلك عبر تجّار البندقية، الإمارة الأكثر احتكاكاً بالبلاد العربية والإسلامية آنذاك.

والغرب الذي تجاهل لمدة طويلة الفكر العربي، وهذا ما لم يكن في مصلحة الغرب نفسه، نراه يعاود السعي لاكتشاف الثقافة العربية والتعرّف إلى نواحيها المختلفة. هذا التبدّل في الموقف الغربي عائد بالدرجة الأولى إلى التطوّر السريع الذي حصل منذ الحرب العالمية الثانية وأعطى للدول العربية، الحديثة الاستقلال، مكانة متزايدة الأهمية لم يتسنَّ تحقيقها لدول وشعوب أخرى أكثر سكاناً وأوسع غنىً، بل لها حظ أعلى من التكنولوجيا، الأمر الذي جعل مفسّري هذه الظاهرة يركّزون على الخصوصية النفسية والتكوينية التاريخية للبلاد العربية، وبكلمة، على العودة إلى التراث الثقافي العربي، خصوصاً التراث السياسي.

ومعاودة الاكتشاف هذه جاءت لتردّ على حالتين: الأولى تتمثّل في معرفة ناقصة ومشوّهة للفكر السياسي العربي، والاحتكاك الجديد كان مناسبة لتصحيح هذه المعرفة واستكمالها. أمّا الحالة الثانية، فهي حالة الذي لا يعرف بوجود هذه الثقافة أصلاً. هذا الأخير يُفاجأ عادةً بأن هذه الثقافة ما زالت حيّة ولكن الوصول إليها من الآخرين (الغرب خصوصاً) متعذّرٌ في بعض الأحيان بسبب حواجز وموانع قائمة على أحكام مسبقة، أكانت هذه الأحكام سياسية أم اجتماعية، بل لا مانع من القول إنّها في بعض الأحيان تكون حواجز عرقية. ولا نبالغ عندما نقول إنّ كثيرين في الغرب ما كانوا ليروا في العرب سوى جماعات متنافرة متحجرة، لا يصلحون لغير الأعمال الثانوية والخدمة المنزلية. أيّاً يكن الأمر، فلا شك أن هذا الاهتمام الغربي هو الذي يفسّر أن كتابنا هذا قد تُرجم ونُشر باللغات الأوروبية بعد أن ظلّ مئات السنين مخطوطاً بالعربية دون نشر. ونحن نعتقد أن حاجة القارئ العربي، اليوم، إلى الاطلاع على فنون الحيل السياسية المبثوثة في هذا الكتاب، لا تقلّ عن حاجة المتتبّع الغربي كرجال الأعمال والسياسة الذين تشدّهم علاقاتهم ومصالحهم للتعرّف إلى العرب وتبادل الخبرات والتجارب معهم وحولهم.

ولعلّه من الأهمية بمكان أن نستجليَ الآن التباساً مهماً ينبع من غياب الاتفاق على تحديد المقصود من تعبير "الحيلة"، لأنّ استعمال هذا التعبير أثار ويثير سوء فهم كبيراً في الغرب، كما في البلاد العربية. وهذا يَحدث دائماً عند استخدام ترجمة غير دقيقة لكلمة عربية، أو عند تبدّل استعمال الكلمة بين منطقة ومنطقة، بل بين عصر وعصر. ومن أمثال ذلك كلمة "الصبر" التي ذهب بعضهم إلى تفسيرها وترجمتها على أنها تدلّ على قبول "تحمّل المحن والمظالم باستسلام كامل"، في حين أنّها تشير إلى غير ذلك تماماً، فهي ليست سوى "المثابرة على الهدف والعمل المستمر للوصول إلى المقصد المحدّد". وكلمة "حيلة" لا تعني كما يتبادر إلى الذهن أنها "تنكّب طرق الكذب والنفاق لخداع خصم ما"، بل على العكس من ذلك لأن "حيلة" في معناها الأصلي تدل على "آلة" توفّر الجهد والمشاقّ على الإنسان. وهذا يرتكز على قواعد علمية تكون بمتناول مخترع حاذق وعالم عامل.

وكاتب المخطوطة ، التي بين أيدينا، يُدرك هذا الالتباس، لذلك يحرص على تذكيرنا بأن "الحيلة" بما هي مكرٌ واردة في القرآن الكريم ومنسوبة إلى الله – جلّ وعلا – حيث نجد أن الله يمكر، بل "هو خير الماكرين". وفي القرآن تعابير أشدّ وقعاً من مكر في وصف عمل الله تجاه الإنسان، فهو يبرم (الزخرف 79)، وهو يكيد (القلم 45 ، الأعراف 183)، وكذلك كلمات من مثل خادع (النساء 142)، ومكر وماكر (آل عمران 54 ، الأعراف 99 ، الأنفال 30 ، الرعد 42 ، والنمل 50).

ونسبة هذه الأعمال إلى الله لا تثير استغراب الكاتب، فهو يرى أنّ الحيلة هي أكثر الوسائل حذقاً ومهارة للوصول إلى الأهداف والغايات. ومن ثم هل يمكن أن يستخدم الله الوسائل الخشنة وغير المتقنة، وهو الذي أراد أن يكون الإنسان حراً، فهل من المعقول أن يضيّق عليه؟ فالله يبيّن للإنسان الطريق القويم، ولكن على نحو يبقى فيه متمتّعاً بحريته كاملة. والله يفضّل الإقناع والتعليم، والحيلة هي الوسيلة الفضلى، فهي تحتوي على قدر أقلّ من الإكراه، وعلى درجة ليست قليلة من الفعالية. وإذا كان الله لا يتردد في اعتماد "الخدعة" لإقناع بعض رسله كي يموتوا كباقي الناس، فإنّ الأنبياء بدورهم، وهم أحبّاء الله وأخلّاؤه، لا يرون ضرراً في استعمال "المكر" ولا "الخدعة"، وهذا ماثلٌ في حوار ملك الموت مثلاً مع النبي موسى عندما أراد الملاك قبض نفسه.

تقول الحكاية إنّ الله لما أراد قبض موسى – عليه السلام – نزل ملك الموت فسلّم عليه، ردّ عليه موسى وقال له:

– مَن أنت أيّها الشخص الذي لم أرَك قبل يومي هذا؟

– أنا ملك الموت. جئت لأقبض روحك.

– من أين تقبض روحي؟

– من فمك.

– فقد خاطبت فيه ربي.

– من عينيك.

– نظرت بهما نور ربي.

– من أذنيك.

– سمعت بهما كلام ربي.

– من يديك.

– تناولت بهما ألواح التوراة .

– من رجليك.

– وقفت بهما في مناجاة ربي.

وهكذا نجد أنّ "الحيلة" حاضرة بوضوح في حياة الأنبياء، من إبراهيم – عليه السلام – إلى محمد – صلى الله عليه وسلم –، وهي تطبع حياة البشر الذين امتلكوا حرية التصرّف رغم الكلام عن جبرية مزعومة وقدرية مطلقة. من هنا، نعتبر حكايات هذا النص ونوادره إحياءً لفلسفة هي مزيج من التضمين والإقناع والاحتيال.

إنّ كلّ شيء خدعة، هذا ما يمكن أن نخرج به عبر قراءة ما بين سطور هذه الحكايات والقصص. وإنّ الخدعة خدعتان: خدعة خير وخدعة شر. طالما يوجد مقابل الله خصم خطير هو الشيطان، ومقابل الملائكة أبالسة وجنّ، ودومًا كان البشر يجهلون الشر والتقنيات الخاصة به، حتى جاء الشيطان وأبالسته فعلّموهم استخدام المنجنيق والمنشار، وفي الوقت نفسه علّموهم فنون القتل (هابيل وقابيل) وكذلك اللواط (سادوم) والسحاق والزنا.

في تتبّعه لخط "الحيلة" في الحياة السياسية العربية منذ القدم، كرَّس الكاتب القسم الأول من كتابه للحكايات والنوادر ذات الأصول الدينية، هذا أمرٌ يُفهم لكون الإنسان العربي، ماضياً وحاضراً، لا يباشر أمراً، مهما يكن هذا الأمر، سياسياً أم غير سياسي، دون أن يردّه إلى تراث يَرقى إلى الأنبياء، بل يصل عبر الرسل إلى الذات الإلهية نفسها.

من هنا نقع في هذا القسم على عدد من الحكايات الشعبية الدينية الشهيرة، مثل قصة يوسف وإخوته التي تستعيد الحادثة التوراتية المعروفة، وتُقدّمها في إطار تأويلي يُمتِع القارئ ويثير حبوره وألمه في آن واحد. وهي تشدّنا إلى مقارنتها مع القصص المسيحية التي كانت شائعة في أوروبا خلال القرون الوسطى، وهي لا تقلّ عنها في حسن الأداء والمناخات الروحية التي تخلقها. ومنها أيضاً القصة المثيرة لصراع يعقوب مع الملاك، التي لا نشكّ أنّ الرقابة المسيحية في أوروبا خفّفت من حدّتها. ثم هناك قصة آلام السيد المسيح حيث نجد يهوذا يقع في الفخ الذي نصبه، فيُصلب مكان عيسى الذي يُرفع إلى السماء طبقاً للرواية القرآنية.

استخدام الحيلة في السياسة كما في تدبير الشؤون الخاصة والعامة، تقوم عند مؤلف هذا الكتاب ــ المخطوطة على فلسفة تتضمن جملة من الاعتبارات، منها:

ــ إنّ استخدام الخداع والحيلة أمر شامل بدءاً من "حكمة" الله (هكذا يستخدم المؤلّف تعبير حكمة بدلاً من حيلة عندما ينسب العمل إلى الله)، مروراً بحِيَل الجنّ والملائكة والأنبياء، وصولاً إلى حِيَل الناس العاديين غير المعصومين، من خلفاء وملوك وسلاطين ووزراء، إلى ولاة وعمّال ومتصرفين، ثم القضاة والمتزهّدين.

ــ إنّ أصحاب الحيلة، باعتبارهم يقدّمون الرأي على شجاعة الشجعان، كما يقول الشاعر العربي، فمن الطبيعي أن ينظروا بازدراء إلى الخشونة التي تظهر عند بعض حملة السلاح ممّن يستلّون سيوفهم بمناسبة ودون مناسبة. وعلى صعيد آخر، نجد أنّ الخليفة المعتضد يثور على عماله عندما يستخدمون العنف لاستجواب بعض المتّهمين، صارخاً فيهم: "أين حِيَل الرجال؟". والموقف الداعي إلى تجنب إهراق الدماء بسلوك سبل الحيلة والمكر والخداع يقوم على رؤية تجد أنّ إهراق الدماء من أسهل الأمور، ولكنه لا ينتزع إعجاباً ولا يدلّل على علو مكانة، وعدا ذلك، فهو قليلاً ما يكون مجدياً ونافعاً. بينما الحيلة تثير الإعجاب لأنّها تحتاج إلى مهارة خاصة، كما في بعض الفنون، وهي، لطرافتها، تُدخل البهجة والسرور إلى قلوب الناس، وبذلك تشترك في صفة أخرى مع الفنون. وفوق ذلك كلّه، فالحيلة مضمونة الربح عادة.

والحيلة في أساس عملية الحكم والسياسة التي لا يجب النظر إليها على أنها لعبة ذهنية مجرّدة، بل هي عمل حاذق دقيق ومرهف وفاعل. فالأمير النموذجي هو أمير ماكر مخادع، وهذا ما وصل إليه مكيافيللي. وفي هذا المجال يُعتبر الإسكندر المثل الأبرز لهذا الأمير الذي لا تخلو جعبته من أفانين المكر والخديعة والحيلة المبتكرة. وهو ليس وحده في هذا المجال، فهذه قصة الوزير الفارسي المتسلّل إلى بلاط بطريرك الروم نموذج آخر على براعة الحيلة في الوصول إلى الهدف حيث أخذ:

الوزير يتأمّل أخلاق البطريرك ويمتحنها ليصحبه بما يتفق عليه، فوجده مائلاً إلى الفكاهات معجباً بالأخبار. فجعل يُتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة. ولم تطل المدة حتى حلي بعينه وقلبه وصار

ألصق به من أنفه. وجعل الوزير يُعالج الجرحى ولا يأخذ أجره فخيف أمره وعظم قدره وحبته القلوب.

إذا كانت قصص ونوادر هذا الكتاب تقوم بدور دروس سريعة في علم النفس التطبيقي، وتقدّم نماذج من التجليات النفسية المسلّية، فلا شك أنّ قيمتها الأصلية يمكن أن نجدها في ميدان آخر، بعيداً عن التسلية والإضحاك، أي في ميدان التاريخ. وذلك يُتاح لنا بقدر ما يدخلنا الكاتب من خلال تلك الحكايات والأقاصيص في مكنونات الدهاء السياسي العربي، ويكشف لنا الأسرار التي تكتنفه، مُظهِراً لنا بعض الأسباب الخفية لجملة من الأحداث المهمة في التاريخ التي ما تزال حتى الآن غير مفهومة بشكل كافٍ لنا. فالكتاب من هذه الزاوية يقوم بإلقاء أضواء جديدة على ثورة "الزنج" في البصرة وعلى حروب "القرامطة". والكاتب يعود في قصصه إلى عدد من الكتب المفقودة، ويورد شهادات لمؤلفين امّحت أسماؤهم تماماً، وضاعت آثارهم بسبب تبدل السلطات المختلفة واختلافها. ومن الأخبار ذات الدلالة في هذا المجال الخبرية التي تتحدّث عن صانع "الوثائق المزوّرة" الذي كان يُدخل في سياق مخطوطة قديمة وصفاً دقيقاً لطالب وظيفة أو مركز، ويجعل منه نجماً في مجتمعه حيث يقتنع الخليفة بصفات هذا المرشّح، فيوليه المنصب المهم، وذلك كله يكون ضمن خدعة هدفها التحضير لاستبدال عائلة حاكمة بأخرى دون اللجوء إلى الثورة الدموية والصراع المسلّح ودون نفقات باهظة. وهنا تبرز العملية السياسية الخطيرة كلعبة فنية مسلية من الدرجة الأولى.

وهناك تفاصيل أخرى لها أهمية تاريخية كاستعمال كلمة "شيعة" إشارة إلى الخلافة العباسية، بينما المعروف أنها تعني جماعة أخرى تميل إلى أحفاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – من ابنته فاطمة زوجة ابن عمه علي –رضوان الله عليه –، وهذا يحملنا على التأمل في جذور الانقسام في الإسلام.

ولعل أهمّ ما تكشفه لنا حكايات الكتاب ونوادره تلك العادات السياسية التي كان يمارِس من خلالها الأمراء والحكام خدعهم ومقالبهم ضد بعضهم بعضاً.

فيجعل معاوية والي الشام خصمه والي مصر، يدفع رواتب وأعطيات أصحابه (أصحاب معاوية)، أو أن يصل الأمر بطامع للسلطة يدعوه السلطان نفسه لتولّي مكانه، وهو الذي عمل سراً لتدمير البلاد وإفراغ خزينة الدولة.

الكتاب حافلٌ بحوادث من هذا الطراز الذي يعلّم ويسلّي في الآن نفسه. وهي روايات يجب أن تُقرأ على مستويين، لأنها قصص رمزية حيث تختبئ وراء الحكاية الظاهرة حكمة سياسية تظلّ موضوعاً للكشف والبحث ومجالاً للحدس والتخمين. وهي كما يقول الكاتب أشبه بالتمرة التي يؤكل نصفها ويُلقى نصفها الآخر.

وصاحب هذا المؤلف واثقٌ من أن الاستفادة التعليمية من حكاياته وقصصه حاصلة حتماً، وذلك لأنّ الذي يفهم مغازي هذه القصص والنوادر ويدرك الحكمة منها، لا بدَّ أن يجد نفسه في يوم من الأيام مدعوّاً لاستعمالها.

فائدة أخرى للكتاب تتجلّى في قيمته المرجعية من خلال كشّاف المصادر التي قرأها المؤلف واستفاد منها وحرص على إدراج أسمائها وأسماء مؤلفيها في مقدمته، كما عمد إلى الإشارة مع كل حكاية يوردها إلى المصدر الذي استخلصها منه.

ولا بدّ من القول إنّ هذه الكتبَ – وعدد كبير منها قد اندثر – تُغني معرفتنا بالأدب العربي، وإنّ بعض الكتّاب الواردة أسماؤهم مجهول تماماً بالنسبة إلينا. وإنّ البعض الآخر من أصحاب الأسماء المعروفة وصل إلينا عدد قليل من كتبه الكثيرة، وهم بالإجمال يمثلون قيمة أدبية من الدرجة الأولى، لنأخذ مثلاً المدائني (ولد عام 135 هـ/ 752 م ومات في عام 225 هـ/ 840 م)، فقد كتب ما لا يقلّ عن 239 مؤلفاً لم يُحفظ منها سوى عدد صغير، ثم أبي مخنف لوط (مات في عام 156 هـ/ 774 م) ترك 33 مؤلفاً لم يصلنا منها سوى أجزاء ومقاطع متناثرة. ثم هناك الكلبي (مات 204 هـ/ 819 م) فقد مهر بإمضائه أكثر من 140 مؤلفاً سلّم منها خمسة فقط، إلخ. هذا يبين لنا أهمية الفقرات والأجزاء التي يُعيد الكاتب نشرها من تلك المؤلفات الضائعة، فهي تصحّح ما نعرفه عن محتوى تلك الكتب، وهي تزودنا بشهادات ذات دلالة حول عدد من الكتّاب المذكورين والعصر الذي عاشوا فيه. لنأخذ على ذلك مثلاً القصص التي تدور حول بلاد فارس قبل الإسلام، أو التي تتحدّث عن شخصيات ورد ذكرها في التوراة . بالنسبة إلى الأولى يمكن القول إن أوضاع إيران، في المرحلة التي سبقت الإسلام، غير معروفة بشكل جيد، وهذا نقصٌ قد يسده بصورة أو بأخرى ما يرد عن ابن المقفع، الكاتب الفارسي المولد (فُقد 139 هـ/ 757 م). أما القصص التوراتية فهي تُقدَّم في إطار يرتبط بما جاء حولها في القرآن الكريم ، وذلك وفق معطيات تاريخية قديمة جداً، وهي رغم ذلك تُقدَّم في إطار حي ممتع كما عند القصاصين الشعبيين. وهذا لا يقلل من قيمتها التاريخية لأنّها تنقل إلينا ظروف حياة المجتمع السامي في أطواره الأولى والذهنية السائدة فيه آنذاك، وذلك بروحية فيها من الحقيقة أكثر من تلك التي نجدها في النصوص الكلاسيكية. والآن نجد أنفسنا مطالَبين بكلام سريع عن النص وكاتبه، فنذكر أنّ النص يحمل عنواناً لا يخلو من شاعرية وسجع على نحو ما كانت عليه عناوين الكتب قديماً، إذ يقول العنوان "رقائق الحلل في دقائق الحيل"، وهو عبارة عن مخطوطة مكوّنة من 152 ورقة يعود استنساخها إلى العام 1061 هـ/ 1651 م، وهي من الموجودات القديمة للمكتبة الوطنية في باريس وتحمل رقم Mss . N 3548 . ولا نغالي إذا قلنا إنّها في حالة سيئة بسبب صعوبة كتابتها وللتداخل الحاصل بين أوراقها ومقاطعها. وإن كانت هذه صعوبات تغلّبنا عليها بصبر وأناة بال، فإنّ ما ظلّ يحزّ في نفسنا أنّ النص المتوافر لا يحتوي سوى على الجزء الأول الذي يشتمل على عشرة فصول من أصل عشرين فصلاً يُفترض أن المخطوطة تضمها.

أما بالنسبة إلى المرحلة الزمنية التي كُتِبت فيها المخطوطة، فيمكن القول ترجيحاً إنّها تجيء في أواخر الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادي. ونستند في ذلك إلى أنّ آخر خليفة ورد

ذكره مات في عام 1225 م، وآخر كاتب تضمنت المخطوطة مؤلفاته قد مات في عام 1283 م.

ويبدو الكاتب من محتويات هذا النص أنّه محب للاطّلاع، حيث قرأ كل ما أُلِّف قبله من كتب، وهو أيضاً منفتح على تيارات الفكر والاتجاهات السياسية المختلفة مع حرص شديد لديه على إعطاء الكاتب والكتاب حصتهما من التقدير والاعتبار. ونرجّح أنه لإنجاز عمل في مثل هذه المواصفات، لا بدّ أنه توافرت للمؤلف مكتبة مهمة، سواء أكانت مكتبة الفاطميين في القاهرة أم مكتبتي أصفهان وغزنة في البلاد الشرقية. وهو إلى ذلك كله، واحد من الرحّالة البحّاثة الذين ينزلون في مراكز العلم والبحث، ويقيمون فيها مقابل نفقات قليلة. ولكن ذلك ما كان بذي فائدة كبيرة لو لم يكن صاحبنا ذا موهبة راسخة وقادرة على حلّ أكثر المشكلات تعقيداً، خصوصاً أنه لم يضيّع فرصة ليبديَ اغتباطه بقدرة شعوب البلاد الإسلامية على التكيُّف مع التحولات المتصلة بتفتت السلطة المركزية.

بكل الأحوال، بالنسبة إلى مؤلف هذا الكتاب، ما من شيء مُيئس ولا شيء ميؤوس منه في هذا العالم المضطرب على أشدّ ما يكون الاضطراب، القريب من أوروبا البعيد عنها. فالسياسات الحقيقية، في النهاية، تكشف أفضل ما عندها في جو من التنافس والخصومة. وفي نهاية الحساب ليس هذا هو الدرس الوحيد المستفاد من حكايات الكتاب ونوادره، حيث يمتزج الضحك والدعابة بالشؤون الأكثر جدية، مضفية عليها دهشة تزيد من قدرتها على الإقناع والتأثير.

رنيه خوام سورين في 31 / 1 / 1976 ملاحظة: العناوين الفرعية وضعها الناقل تسهيلاً للقارئ.

مُقدّمة المؤلّف بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله العليّ العظيم البارّ الرحيم، القاهر الكريم، الذي أبدع خلق الإنسان من غير تعليم، وهداه إلى صراطه المستقيم. قال في كتابه القديم : {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (التين 4). سبحانه من ملكٍ عَزّ فقهر، وعلم فستر، وعُصي فغفر. لا إله إلّا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، ليس كمثله شيء وهو على كل شيء قدير. خلق اللوح والقلم، وعلّم الإنسان ما لم يعلم. حمداً يفُز عدد الزمان وكل شيء عداه سوى الرحمن فانٍ.

وصلّى الله على سيدنا محمّد النبي الأمّي، ما طلع نجم ونجم طلع، وسفر صباح وصباح سفر، وعلى أهل بيته وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد، فإني لمّا كنت ممّن نظم نفسه في سلك عبودية المولى الأمير الكبير الزاهد العابد العالم العادل المؤيَّد المجاهد ثقة الملوك اختيار السلاطين شرف الأمراء تاج الدولة عضد الأمة حامي الأسلاف كهف الأنام سيد الأماثل أوحد الزمان مالك أزمة البيان إنسان عين الدهر واسطة عقد العلم سعد الدين سنبل بن عبد الله الملكي البدري.

أحببت أن أتقرّب إلى خدمته بكتابي هذا المسمّى رقائق الحلَل في دقائق الحيل، مع علمي بأنّ الله قد أعطاه من العقل أوفره، ومن الذهن ألطفه، ومن الرأي أصوبه:

ومن الخُلق أتقاه ومن الخَلق أرضاه:

ومن الدّين أحسنه، ومن الحلم أرزنه، ومن الحياء أحمده، ومن التدبير أجوده، ومن الفضل أكمله، ومن الثناء أجمله:

ومن الأنفس أكبرها، ومن الهمم أبعدها:

ومن الشجاعة أبرزها، ومن الفصاحة أبلغها، ومن البلاغة أتمّها، ومن السماحة أعمّها، ومن المنطق أحلاه، ومن الملك أعلاه، ومن العزّ أسماه، ومن الرتب أعلاها، ومن الكرامة أهناها، ومن المنازل أرفعها، ومن النعم أسبغها، ومن القسم أحسمها، ومن السيادة أعظمها، ومن القدرة أحسنها، ومن السياسة أهمها:

ومهولة تشيب منها الذوائب وتبعد عنها الذوائب. وأحله الله دوحة مجيدة تطاول إليها الأفلاك، ومنزلة سعد يسمو إليها السِّماك، ولا يزال جيد الزمان بعقد ثنائيه محلا، وفهم المدح والشكر بأوصافه مُحلا، والجوزاء على تطاول الأيام له محلا:

وجعلته مبوّباً إذ لم أسبق إلى ترتيبه لأني نظرت في كتب كثيرة تحتوي على ما تضمّنه كتابي هذا، إلّا أنها قليلة المنفعة صغيرة الحجم لم يُذكر فيها إلّا الشيء اليسير مثل:

– كتاب المدائني المسمّى المكائد والحيل .

– كتاب الهفوات والنادرة عن الأصمعي.

– كتاب ابن الخطيب المشهور ب لطف التدبير .

فلم أجد من استوعب ما استوعبت علماً معمّاً أنني قصرت خوفاً من الإطالة والملل، واستغنيت بحيلة عن أمثالها من الحيل، إلّا أنني ذكرت الأحسن منها. ولم أذكر حيلة إلّا ذكرت من أي كتاب نقلت، ليعلم الناظر في كتابي أنني خلصته من كتب كثيرة، من كتب التواريخ والمجاميع والتفاسير. فمن ذلك:

المبتدأ لوهب بن منبه، مقتل الحسين – عليه السلام – لأبي مخنف لوط، و المغازي للواقدي، و التاريخ للكلبي، وأيام العرب لأبي عبيدة، وتاريخ ابن عبّاس ، وتاريخ الهيثم ابن عبدي ، والمشرفي بن النظامي، وحماد الراوية والأصمعي، وسهل بن هارون، وابن المقفّع، والعتبي الأموي، وابن زيد سعيد بن أوس الأنصاري، والنصر بن سهيل، وعبد الله بن عائشة، وأبو عبيد القسمي بن سلام الجمعي، وأبو عثمان بن بحر الجاحظ، وأبو زيد بن شيبة، وابن السائب المخزومي، وعلي بن محمد النوفلي، والزبير بن بكار، والإنجيلي، والرقاشي، وعمارة المصري، وعيسى بن لهيف، وعبد الرحمن بن عبد الحكم، والخوارزمي، وأبو جعفر بن السدي، ومحمّد بن الهيثم بن شبانة،

وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، والخليل بن الهيثم، وصاحب كتاب الحيل والمكائد في الحروب ، ومحمّد بن زكريا، وابن أبي الدنيا، وأحمد بن محمّد الجماني، والمبرد، ومحمّد بن سليمان المقري، ومحمد بن محلوط السكّوني، وأحمد بن طاهر صاحب كتاب بغداد ، وابن الوشا، وعلي بن مجاهد صاحب كتاب الأمويين ، ومحمّد بن صالح صاحب كتاب المسالك والممالك ، وعلي بن عيسى المنجم صاحب كتاب وقعة الأدهم ، وابن بشير المدولاي، وابن وكيع القاضي، ومحمّد بن خالد الهاشمي، وإسحاق بن سليمان الهاشمي، وأبي بكر الرازي صاحب كتاب المنصوري ، وابن قتيبة، ويقطونة، و تاريخ الخلق للجهشياري، و تذهيب التاريخ للجرجاني، و تاريخ ابن شباب ، وكتاب المقتبس من أنباء الأندلس ، و فضل العرب على العجم لابن قتيبة، و أخبار ولاة خراسان ، و أخبار أبي حنيفة ، وفتوح الشام لابن بشر القرشي، و خبر المختار للمدائني، و تاريخ واسط العراق ، و تاريخ الحلاج ، و المسيبين للقاضي القزويني، وأخبار الوزير لابن عبدوس، وأخبار الملوك من الأنبياء ، وكتاب الموفق لابن حبيب، و فضائل الفرس لابن المقفع، و جوامع العبر ولوامع البصر لابن حاجب النعمان، و الأخبار الطوال لأبي حنيفة، و أخبار المتيمين للمرزبان، و كتاب السياسة لعبد المحسن سبط الصابي، و مذاكرة النديم لأبي الحسن المعرّي، و تدبير المملكة لشاماق الهندي، و الدقائق وأخبار العجايب للكاغدي، و العاشق والمعشوق للضميري، و كتاب صفات الأمم للبخاري، و كتاب الظراف لكاتب أم جعفر، و كتاب فَرَح المُهَج ، و فتوح خراسان لابن سعدان، و تاريخ الدعوة له أيضاً، و زهرة الأفكار للخالدي، و فتوح مصر والإسكندرية، وفتوح السند والهند للمدائني، و فتح أذربيجان وأرمينية، وتفسير القرآن للثعلبي وغيره، و أخبار القضاة للماوردي، و تاريخ الطبري، وتاريخ ابن سنان الصابي، وتاريخ الباذري، و تجارب الأمم، و تاريخ الخطيب ، و كتاب الأنيس والجليس ، و تاريخ دمشق لابن عساكر، و الأعلاق النفيسة ، و سلوان المطاع ، و تاريخ الهمذاني ، و لقاح الخواطر وجلاء البصائر لأبي القسم عبد الله بن يحيى بن جعفر، و كتاب الأوراق للصولي ، و التذكرة لابن حمدون، و كتاب العقد لابن عبد ربّه، و مروج الذهب للمسعودي ، و الأغاني للأصفهاني، ونشوار المحاضرة للقاضي التنّوخي، و المحاضرات للراغب، و كتاب الفرج بعد الشدّة ، و كتاب نثر الدرر ، و جراب الدولة ، و كتاب رزق الكتاب ، و كتاب الأوائل للعسكري، و كتاب مقاتل الفرسان ، ومن شرح الحماسة للخطيب أبي زكريا، و مصارع العشاق ، و اعتلال القلوب ، و أخبار مكّة ، و ملك المعاني لابن الهبارية، و عيون الأخبار لابن قتيبة، و كتاب الأذكياء لابن الجوزي، و كتاب النساء لابن حاجب النعمان، و كتاب جوامع اللذة ، و كتاب البصائر لأبي حيّان التوحيدي – رحمه الله –، و كتاب المنعمين للصولي، و تاريخ ابن الجوزي ، و كتاب البرق الشامي والفيح القسي من الفتح القدسي للعماد الكاتب، و تاريخ ابن أعثم ، و تلبيس إبليس لابن الجوزي، و تاريخ العجم لابن القرية، و سقط الجوهر لابن الكتبي، ومن كتب كثيرة يطول ذكرها.

وهذه جملة الأبواب:

– الباب الأول: في ذكر العقل وفضله – الباب الثاني: في الحثّ على الحيل واستعمالها – الباب الثالث: في حكمة الله ولطفه، وحسن تدبيره بعباده – الباب الرابع: في حيل الملائكة والجن – الباب الخامس: في حيل الأنبياء – الباب السادس: في حيل الخلفة والملوك والسلاطين – الباب السابع:

في حيل الوزراء والعمال والمتصرفين – الباب الثامن: في حيل القضاة والعدول والوكلاء – الباب التاسع: في حيل الفقهاء – الباب العاشر: في حيل العباد والمتعبدين والمتزهدين – الباب الحادي عشر: في حيل القواد والأمراء وأصحاب الشرط – الباب الثاني عشر: في حيل الأطباء – الباب الثالث عشر: في حيل الشعراء – الباب الرابع عشر: في حيل التجار والسوقة – الباب الخامس عشر: في حيل بني ساسان وهم الطرقية – الباب السادس عشر: في حيل اللصوص والعيارين – الباب السابع عشر: في حيل النساء والصبيان – الباب الثامن عشر: في حيل الحيوان – الباب التاسع عشر: فيمن احتال وانعكست عليه حيلته – الباب العشرون: في نوادر الأبواب

الباب الأول في فضل العقل

وما قِيل فيه اعلم أنّ من مواهب الله تعالى التي فضّل بها الإنسان على باقي الحيوان نور الحظ من العقل الذي به يُعرف الرب ويُحمد ويُشكر، وبه يفرّق بين الحق والباطل والحسن والقبيح والعدل والجور، وبه توضع الأشياء في مواضعها من صواب الرأي والتدبير، تكسب الأشياء المحمودة وتجتنب الرذائل المذمومة. فيفيد به الإنسان حسن الأحدوثة في الدنيا، ويبلغ به مبلغ الأبرار في الآخرة.

قال فيتاغورس: "العقل الوقوف عند مقادير الأشياء قولاً وفعلاً"، وقال بعضهم: "من لم ينفعه عقله ضَرَّه جهله"، وقال مسلم بن عقيل: "رأس العقل مداراة الناس". وقال بعضهم: "من سعادة الرجل سلامة عقله"، وقال أفلاطون: "العقل النظر في العواقب".

وقال بعض الحكماء: "العقل والحياء أخوان لا يفترقان، ومتى عدم أحدهما لا يوجد الآخر"، وقال سُقراط: "لو صُوِّر العقل لأضاء معه الليل، ولو صوّر الجهل لأظلم معه النهار". وقال سوماخش: "كل شيء إذا أكثر رخص إلّا العقل إذا أكثر غلا". وقال أردشير: "من أُعطيَ العقل فأيُّ شيء حُرِم، من حُرِم العقل فأيّ شيء أُعطي". وقال هرمس: "الرجل بعقله لا بحاله وببلاغته لا بصورته"، وقال بعضهم: "صديق كل أمير عقله وعدوّه جهله"، وقال بعض الحكماء: "إن للعقل مفاصل كمفاصل الجسد، فرأسه وعينه البراءة من الحسد، وأذنه التفهم، ولسانه الصدق، وقلبه صحة النية، ويده الرحمة، وقدمه السلامة، وسلطانه العدل، ومركبه وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرضى، وفرسه المصالحة، وسهمه التحية، ورمحه التوقّي، وجعبته المداراة، ودرعه مشاهدة الحكماء، وماله الأدب، وحربه المكائد، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف ودليله الإسلام".

وقيل: "من أخلاق العاقل عشرة: الحلم، والعلم، والعَفاف، والصيانة، والحياء، والرزانة، ولزوم الخير، والمداولة عليه، وبغض الشر وأهله، وطاعة الناصح وقبول قوله.

الحلم يتشعّب منه حسن العاقبة، والمحمدة في الناس، وشرف المنزلة، والسلامة من السفيه، وركوب جميل الفعل، وصحبة الأبرار، والارتفاع عن الرذالة والخياسة، والسمو إلى البرّ وما يقرب من الدرجات.

والعلم يتشعب منه الشرف وإن كان دنياً، والعز وإن كان مهيناً، والغنى وإن كان فقيراً، والقوة وإن كان ضعيفاً، والنبل وإن كان حقيراً، والانتصار، والتواضع، والكرم والصدق.

والعفاف يتشعب منه الكفاية، والاستكافة، والصبر، والمصادقة، والتصبر، واليقين، والسداد، والرضى، والرحمة والهدى.

والصيانة يتشعب منها الصدق، والورع، وحسن الثناء، والتزكية، والمودة، والتكرم، والفضيلة، والرشد، والمشالة والتفكّر.

والحياء يتشعب منه اللين، والرقة، والرجاة، والمخافة، والسماحة، والصحة، والسياسة، والطاعة وذلّ النفس.

والرزانة يتشعب منها الراحة، والسكون، والتأنّي، والحظوة، والنجاة، والفتح، والتكرّم، والهيبة، وجودة الرأي، وكراهية الشر وحسن الأمانة". ورُوي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنّه قال: "لمّا خلق الله – تبارك وتعالى – العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل. ثم قال له: أدبر فأدبر. قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولأكملتك إلّا فيمن أحب. أما إني إيّاك آمرُ وإيّاك أنهي، وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب. ولما خلق الجهل قال له: أقبل فأدبر، وقال له: أدبر فأقبل.

فقال الله – عزّ وجلّ –: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أبغض إليّ منك ولأسكنتك في أبغض الخلق إليّ".

وقال أردشير: "إذا أراد الله – عز وجل – إزالة نعمة عن عبد فأول ما يزيل عنه عقله". ورُوي عن علي بن أبي طالب – عليه الصلاة والسلام – أنّه قال: "هبط جبرائيل – عليه السلام – على آدم – عليه السلام – وقال له: يا آدم إني أمرت أن أخيّرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين. فقال له آدم: يا جبرائيل وما الثلاث؟

قال: العقل والحياء والدين. قال آدم: إنني قد اخترت العقل. فقال جبرائيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه. فقالا: يا جبرائيل إنا أُمِرنا أن نكون مع العقل حيث كان. قال: شأنكما، وعرج".

وقال الرضى[1] – عليه السلام –: "مَن كان عاقلاً كان له دين، ومَن كان له دين دخل الجنة". وعن أبي جعفر – رضي الله عنه –: "إنما يذاق الله – عز وجل – عباده يوم القيامة في الحساب على قدر ما أتاهم من العقل في الدنيا". وعن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "إذا بلغكم عن أحد حُسن حاله فانظروا إلى حسن عقله فإنما يجازى بعقله".

وقيل: "العقل أحسن حلْية والعلم أفضل تنيه"، "دولة الجاهل عَبرة العاقل"، "آية العقل سرعة الفهم"، "ثمرة العقل حسن الاختيار"، "خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل"، "مَن كان ذا عقل حصل خاتم الملك بيده"، "العقل أقوى أساس والتقوى أفضل لباس". "لا سائس مثل العقل ولا حارس مثل العدل"، "العاقل يعتمد على عمله والجاهل يعتمد على أمله"، "نظر العاقل بقلبه وخاطره، ونظر الجاهل بعينه وناظره"، "العقل ثوب جديد لا يبلى"، "العاقل مَن أحسن صنائعه ووضع سعيه مواضعه"، "عداوة العاقل خير من صداقة الجاهل".

قال أفلاطون: "لا تهب نفسك لغير عقلك فتسيء ملكتها وتضيع زمامها ويختلف فيها من سوء العادة ما يرذلها". وقال بعض الحكماء: "وجدت الأمور التي خُص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة وهي تجمع كلّ شيء في العالم. وهي العقل والحكمة والعفة والعدل. فالحلم والصبر والرفق والوفاء داخلة في باب العقل، والعقل والأدب والرؤية والعلم داخلة في باب الحكمة، والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفّة، والصدق والمراقبة والإحسان وحسن الخلق داخلة في باب العدل".

وقال أفلاطون: "الفضائل المكتسبة بالعقل أربعة وعشرون فضيلة وهي: العلم، والعدل، والمحبة، والرحمة، والصدق، والصبر، والحياء، والحلم، والأدب، والتواضع، والأمانة، والقناعة، والعفو، والبر، والصفح، والأنفة، والوفاء، والشجاعة، وطهارة الخلق، وكتمان السر، والكرم، وحسن المروءة".

فالحمد لله الذي أهّلنا حتى رأينا هذه الخصائل مجتمعة في المولى الأمير الكبير سعد الدين جمال الإسلام، وليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالم في واحد.

الباب الثاني في الحثّ على الحيَل واستعمالها

اعلم أيّها السيد السعيد أنّ الحيلة لمّا كانت ثمرة العقل ومستخرَجة بقوانينه، وطُرُقه في استخراجها غوامض العلوم ومحاسن الفنون المختلفة الأصول والمنافع، وجب أن تكون للإنسان خاصة دون غيره من الحيوان. فإن قال قائل إنّا نرى كثيراً من الحيوان يعمل من الحِيَل ما يفتح له منها فوائد جمّة مثل الحيّات، فإنّها تخرج في الربيع من أحجرتها، وقد غشى على بصرها، فتأتي الرازيانج وتمرّغ وجهها عليه فتنفتح أعينها. وكالدب فإنّه في الربيع يأتي إلى أطرمة النمل فيلقطها، ثم يشرب عليها من الماء فيقذف كل ما معه من الأخلاط كما يشرب الإنسان الشربة، ومثل الطير الذي يأخذ في منقاره ماءً ويزرقه في دبره، فينطلق إذا أصابه تخمة.

وكالخطّاف الذي يرى بأفراحه يرقاناً أصفر، فيمضي ويأتي بحشيشة وقيل بحجر فيطرحه في عشه ويزول عنهم مرضهم، وكالكلب إذا برد له في الشتاء فإنه يعدو أشواطاً كثيرة فيدفأ. وكالكركي إذا خاف على نفسه من النوم يقف على فرد رجل خوفاً لا ينام، وكالعنكبوت فإنه يأتي إلى زوايا البيت وينسج بها شبكة، فتأتي الذبابة وتسقط عليها فتعلق، ثم يأخذها ويأكلها. ومثل هذا كثير.

قلنا: هذه ليست معدودة في الحيل لغزارة عقلها، وإنما ذلك إلهام من الله تعالى لصلاح أحوالها، ولطف من الله بها. إذا كانت الحيلة طريقاً أو آلة استعملها العقل، فبغير شك ينبغي للعاقل أن يعرف طرق الحِيَل وكيف يستعملها، ويعلم من أين دخلت عليه حيلة من الحيل وكيف الخروج.

وقد علّم الله – سبحانه وتعالى – أيوب إبراراً ليمينه: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ} (ص 44)، فيدل على أنّ الحيلة مباحة. وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "الحرب خدعة"، وقيل: "بمن لم تغلب فاخلب".

ومن وصية المهلب لولده: "عليكم من الحرب بالمكيدة فإنّها أبلغ من النجدة". وقال عبد الملك بن صالح لرجل أنفذه في سرية: "وكن من احتيالك على عدوك أشدّ حذراً من احتيال عدوك عليك"، وقال بعضهم: "كن بحيلتك أوثق منك بشدتك، وبحذرك أفرج منك بنجدتك، فإنّ الحرب خدعة والحرب حرب للمتهوّر وغيمة للمتعذر". وقيل: "المكر أبلغ من النجدة".

وفيما كتب بعض الملوك إلى يزيد بن أبي سفيان يحذّره ويأمره بالتحذّر لغاية يقول:

إذا علمت من عدوك عورة فلا تناظره وأسمر في جيشك تعلم الأخبار، وتولَّ حرس عسكرك بنفسك، وأكثر مفاجأة الحرس في محارسهم بغير علم منهم بك، فإن رأيت خللاً فعاقب، ولا تظلم واعقب بينهم بالليل، ولتكن العقبة الأولى أطول من الثانية، ولا تطل في العقوبة فيكفر صاحبها، ولا تكشف الناس عن أسرارهم وأصدق في اللقاء ولا تجبن.

وكتب أيضاً إلى خالد بن الوليد يقول:

يا خالد اجعل قوتك ونشاطك على أهل الخُبْر فإنما سمّي الجهاد لشدة جهده. أذْلُ العيون وقدّم النَذر، فإذا اقتربت من عدوك فلا تنزل به نهاراً فيراك عدوّك ويعرف مكانك، وانزلوا بهم مسحراً عند نومهم، وارغوا إبْلكم، وحركوا أسلاحكم، ولا تبيحوا أحداً منازلتهم ليلاً أو نهاراً حتى تعلموا ما هم عليه، وتعذروا فإن قاتلوكم فاتخذوا للأمور أقرانها، وقدّم راياتك حيث تأمن، وأخّرها من حيث تخاف، وليكن موقفك متأخراً عن الحملة فإني لا آمن الجولة.

وكتب معاوية إلى مروان لمّا ورد عليه قتل عثمان يقول:

إذا قرأت كتابي هذا فكن كالفهد لا يصطاد إلّا غيلة، ولا يباعد إلّا عن حيلة، وكالثعلب لا يغلب إلّا روغاناً، واخفِ نفسك عنهم كما أخفى الغراب سناده والقنفذ رأسه عند لمس الأكف، وأمّنهم نفسك أمانَ مَن يئس القوم من نصره، وابحث عن أخبارهم بحث الدجاجة.

قيل لعنترة بن شداد: "أنت أشجع الناس وأشدّهم؟"، قال: "لا". قيل: "فلماذا شاع لك هذا؟"، قال: "أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً، ولا أدخل موضعاً إلّا أرى فيه مخرجاً، وأعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فآتي عليه فأقتله". وقيل: "حازم في الحرب خير من ألف فارس، لأنّ الفارس يقتل نفساً وعشرين وثلاثين والحازم يقتل الجيش كله". وكان عظماء الترك يقولون: "ينبغي للقائد أن يكون فيه من أخلاق البهائم عشرة شجاعة الديك، وجرأة الأسد، وحملة الخنزير، وحراسة الكُركي، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وروغان الثعلب وصبر الجمل". وقال قبيصة بن مسعود يوم ذي قار يحرّض بكر بن وائل: "الجزع لا يغني من القدر، والصبر من أبواب الظفر، والمنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم منه في الدبر، وهالك معذور خير من ناج فرور". وفي وصية أرسطوطاليس للإسكندر يقول: "أيّها الملك لا تلق حرباً بنفسك مهما قدرت وإن ضعف عدوك، واستعمل المكائد فإنّ فتوحها أسلم الفتوح وأهناها". وكان الإسكندر يقول: "إذا كنت في الحرب احتل للشمس والريح أن يكونا لك لا عليك". وقال ملك الترك:

الملوك لا بدّ أن تدبر الملك وتصير لهم مزيّة في حيل الرامي في الحوادث التي تطرقهم ليست لغيرهم لأن أفكارهم صافية من الاهتمام بما يهتم به غيرهم من المعاش بوقوفهم إمّا على مصالح المملكة ومداراة الخوارج، أو على الشهوات، حسب ما قد يشغلون به نفوسهم، وليس يتحصل الواحد منهم الملك إلا لسر فيه ومعنى قد فضل به وتقدم من أجله إمّا بسعادة تخدمه أو بفضل في نفسه.

ويقال في أمثال العامة: "رأس لا حيلة فيه قرعة خير منه".

الباب الثالث في حكم الله ولطفه وحسن تدبيره بعباده

موت إبراهيم الحكمة التي فعلها الله – تبارك وتعالى – مع إبراهيم، عليه وعلى نبينا محمد النبي الأمّي السلام، حين قبض روحه.

سبب ذلك ما حكاه الثعلبي[2] في كتابه المسمّى ب الكشف والبيان في تفسير القرآن في تفسير سورة إبراهيم – عليه السلام –.

كان الله تعالى قد وعد إبراهيم أن لا يقبض روحه إلّا إذا طلب ذلك منه واشتهى الموت. فلمّا قَرُب أجل إبراهيم وأراد الله – عز وجل – قبضه أرسل إليه ملكاً في صورة شيخ هرم قد بطلت أكثر أعضائه. وقف بباب إبراهيم وقال له: "يا إبراهيم أريد شيئاً آكل". فتعجب إبراهيم منه وقال: "موت هذا خير له من هذه الحياة".

وكان إبراهيم لا يزال عنده طعامٌ معدٌّ للأضياف. فأحضر للشيخ قصعة من الثريد واللحم. جلس الشيخ يأكل وهو يُخرج من تحته، ويبلع اللقمة بالجهد والعذاب، ويأخذ اللقمة فتقع من يده فيقول: "يا إبراهيم أطعمني"، فيرفع إبراهيم اللقمة بيده إلى فم الشيخ، فتجري على لحيته وصدره. قال له إبراهيم: "يا شيخ كم لك من العمر؟"، فذكر الشيخ سنين فوق سنيّ إبراهيم بشيء يسير. قال إبراهيم – عليه السلام –: "اللهم اقبضني قبل أن أصل إلى هذا العمر وهذه الحالة"، فما استتمّ كلامه حتى قبضه الله – عز وجل –.

نذر إسحاق حكمته مع يعقوب – عليه السلام –.

يُروى بالأسانيد الصحيحة عن مقاتل[3] أنّ يعقوب بن إسحاق – عليهما السلام – كان أنذر إن وهبه الله اثني عشر ولداً ذكوراً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح أحدهم، فوهبه الله ما طلب. ولما كبروا قصد بهم بيت المقدس، تلقاه ملكٌ من الملائكة في زيّ راعٍ وقال له: "سمعت أنك قوي فهل لك من الصراع؟"، قال:

"نعم". فتصارعا، ولم يصرع أحدهما صاحبه.

ثم غمزه الملك فعرّض له عرق الأنسُل ثم قال له: "أما إنّي لو شئت لصرعتك ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت أحد ولدك، وقد جعل الله لك هذه الغمزة مخرجاً".

فلما قدم يعقوب – عليه السلام – إلى بيت المقدس أراد أن يذبح أحد أولاده ونسي قول الملك. فأتاه الملك وقال له: "إنما غمزتك لتخرج من نذرك، ولا سبيل لك إلى ذبح أحد منهم، فإنّ الله قد أخرجك من نذرك".

نجاة موسى حكمته مع موسى – عليه السلام – حتى ردّه إلى أمه وسلمه من فرعون، وقد قتل من أجله ستمئة ألف مولود.

ذلك لما أراد الله إظهار موسى – عليه السلام – رأى فرعون في منامه كأنّ ناراً قد أقبلت من بيت المقدس، وقد دخلت إلى مصر، ثم دخلت إلى قصر فرعون فأحرقت القصر وكلّ من فيه. انتبه فرعون فزعاً مرعوباً، واستدعى الكهنة وأصحاب النجوم ومفسري الأحلام وقصّ عليهم الرؤيا، فقالوا: "يولد ولد من آل يعقوب يكون هلاكك وزوال ملكك على يده". خاف فرعون من ذلك، وأمر القوابل بأنّ كل من وضعت ذكراً من نساء بني إسرائيل يُقتل، فقُتل ستمئة ألف مولود. ولما أرادت أم موسى – عليه السلام – أن تلد خافت على الولد إن كان ذكراً أن تقتله القابلة، وطلبت البر فأتت إلى غار هناك، دخلت فيه وواقعها الطلق، فوضعت موسى – عليه السلام – وهو قطعة نور، أضاءت المغارة منه وفرحت أمه به فرحاً شديداً إلّا أنّها في حيرة من أمرها. ثم صنعت بنفسها ما يُصنع بالنفساء عند ولادتها، قمّطته وكحّلت عينيه وأرضعته، ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت: "يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أستودعك هذا الطفل"، تركته في المغارة ومضت.

ثم صارت كل يوم تتردد إليه وتُرضعه بكرة وعشية حتى صار له أربعون يوماً. ولما كان اليوم الحادي والأربعون أوحى الله – عز وجلّ – إلى أم موسى – عليه السلام – أن "اصنعي له تابوتاً واطرحيه فيه وألقيه في اليمّ ولا تخافي فإنّا رادّوه إليك". فأتت إلى نجار كان قرابتها وقالت له: "أريد أن تعمل لي تابوتاً محكماً بحيث لا يدخل فيه ماء". فقال لها: "ما تصنعين به؟"، قالت: "أطرح فيه ولدي وألقيه في البحر"، فعمل لها تابوتاً أحكم ما يكون، ثم حمله ليلاً إلى أم موسى. لما رأته فرحت به – وكان عمران قد توفي في يوم كمل لموسى أربعون يوماً – فأخذت التابوت منه وأعطته أجرته، قال لها: "ما أريد منك أجرة إلّا النظر إلى هذا المولود".

سبب ذلك أنها لما قالت أريد أن أطرح فيه ابني وأرميه في البحر كان لها هارون وقد ولد قبل موسى بسنتين. فقال لها: "ترمين هارون؟"، قالت: "لا، لكني ولدت غلاماً سميته موسى"، فلم تكتمه أمرها لكونه قرابتها.

لما انصرفت عنه أغلق دكانه وهمّ أن يمضي إلى هامان ليُعلِمه بولادة موسى، لأنه كان المتولي على قتل الأطفال. قبضت الأرض على رجليه إلى ساقيه وقالت: "والله الذي لا إله إلّا هو ما تُحدّث أحداً أو تُعلم أحداً ابتلعتك". فبقي النجار متعجباً حائراً لا يدري ما يصنع، وقال: "والله لا أطلعت أحداً من خلق الله"، فحلّت الأرض عنه.

فتح دكانه وعمل التابوت أحكم ما يكون، وجاء به إلى أم موسى، وطلب النظر إليه. أحضرته بين يديه، فرآه والنور يخرج منه، قبّل يده وهو أول من أسلم على يد موسى.

ثم إنّ أم موسى فرشت له في التابوت أثواباً كانت قد أعدّتها لهذا الأمر، وكحّلت عينيه وقمطته وأرضعته وطرحته في التابوت. ثم أخذته ليلاً وأتت به إلى جانب البحر وهي تبكي، ناداها

جبرائيل – عليه السلام –: "لا تحزني فإن الله يرده عليك"، قالت: "توكلت على الله"، وشمّرته في البحر. فأمر الله الملائكة أن تحفظ التابوت وأمر البحر أن يحفظه.

كثرت الأحلام على فرعون في تلك الليلة، وداخله الرعب والفزع، وأمر بالزيادة في الحرس. فلما أصبح وجلس في منظرة تشرف على البحر، وإذا هو بالتابوت تلعب به الريح حتى تركته مقابل منظرة فرعون.

قال كعب الأحبار:

كان لفرعون سبع بنات ليس فيهن واحدة إلّا وبها نوع من المرض. وكان قد أجمع رأي الأطباء على أنّ ما لهن دواء إلّا السباحة في ماء النيل. وكان فرعون قد عمل في داره بركة عظيمة وساق إليها نهراً من النيل لتسبح فيها بناته. فلما أراد الله – عز وجل – وقوع التابوت إلى فرعون أمر الريح أن تلقي التابوت في النهر، فألقته فيه ولم يزل يسير حتى حصل وسط البركة، فلما رأينه عدت الكبيرة منهن أخذت التابوت وفتحته وإذا فيه موسى وله نور وشعاع، فأخرجت منه موسى وحين لمسته بيدها ذهب ما بها من المرض. تناولته منها أخواتها بينهن فشفين كلهن ببركة موسى – عليه السلام –.

أقبلنَ بموسى والتابوت إلى آسيا، وذكرنَ لها القصة، فنظرت آسيا إلى الغلام وعجبت منه وهي لا تعلم من هو ولا أنّه ابن عمها عمران. دفعته إلى جارية وأمرتها أن تحمله لترِيَه فرعون، ثم أقبلت به إليه. فلما رآه فرعون قالت له: "أيها الملك لا تفزع ولا تخف"، وذكرت له حديث التابوت والبنات، وكيف ذهب بلاؤهن ببركة التابوت.

ثم فتحته وأخرجت موسى منه ووضعته في حجر فرعون. نظر فرعون إلى حسنه وجماله ونظافته ونوره، وقال: "يا آسيا إني أخاف أن يكون هذا عدوي فلا بد من قتله". قالت آسيا: "هذا قرة عين لي ولك، لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً". ثم قالت: "أيها الملك أنت من قتله متمكّن في أي وقت شئت، إن كان عدوك فقد ظفرت به، وإن لم يكن عدوك فلا تعجل عليه فإنه ليس لنا ولد"، ولم تزل به حتى فعل ذلك.

ثم أراد الله – عز وجل – أن يردّه إلى أمه كما وعدها، ووعده الحق وقوله الصدق. فحرّم عليه المراضع كلها، وصار يبكي، فكلّ من أتوه بها لا يأخذ ثديها ولا يرضع منه. وشاع ذلك بمصر، وبلغ أم موسى حزن فرعون عليه وطلبه له الدايات.

أفلا تنظر إلى هذه الحكمة التي أنجزت البشر أنّ فرعون قتل ستمئة ألف مولود حذراً على نفسه وملكه من موسى، وموسى في حجره وقد حزن عليه؟ وكيف لم يرضع وحرّم الله عليه المراضع حتى يجمع بينه وبين أمه؟ لما وصل الخبر إلى أم موسى بأنه في حجر فرعون ولا يرضع من أحد قالت لأخته: "اخرجي تقصّي خبر أخيك واعرفيه". فخرجت وطلبت قصر فرعون.

كان فرعون قد وصّى أن لا تُمنع امرأة من الدخول كله لأجل موسى، فدخلت ونظرت إليه وهو في حجر فرعون، تقدمت إلى آسيا وقالت كما قال الله تعالى: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} (القصص 12)، لم تعرف آسيا أنّ أخته ابنة عمها لرثاثة حالها. فالتفت فرعون إليها وقال: "من هؤلاء الذين يكفلون هذا الغلام؟"، قالت: "قوم من آل إبراهيم"، قال: "فاذهبي فأتيني بهم"، رجعت أخته إلى أمها وأخبرتها بذلك، فقامت من ساعتها ودخلت إلى فرعون وموسى بين يديه يبكي. عرفتها آسيا حين قالت أنا زوجة عمران. فقالت لها: "خذي هذا الطفل واعرضي ثديك عليه". فلما أخذته أمه وجد موسى ريحها فضحك ولثم ثديها ورضع. قال لها فرعون: "إني أرى لك لبناً غزيراً فهل لك ولد؟"، قالت: "وهل ترك الملك لأحد ولدًا لم يقتله؟"، فقال لها: "ومن قتل ولدك؟"، قالت:

"الملك أعلم". ثم قالت لها آسيا: "يا هذه أنا أحب أن تكوني عندي إلى حين ما تفطمين هذا الغلام". قالت: "حباً وكرامة". وأقامت عندها حولين كاملين. فلما أرادت الانصراف إلى منزلها أعطتها آسيا من الذهب والفضة والثياب ما جاوز الحد، وانصرفت إلى بيتها فرحانة مستبشرة.

موسى ولحية فرعون حكمته مع موسى وهو صغير.

ذلك أنّ موسى كان جالساً في حجر فرعون وهو صغير فلزم بلحية فرعون وهزّها حتى كاد أن يقلع رأسه. قال فرعون لآسيا: "هذا عدوي لا شكّ فيه"، فقالت له آسيا: "على رسلك حتى أريك أنّه طفل لا عقل له يفرق به بين الأشياء ولا يبين". ثم أتته بطشت فجعلت فيه جمرة وجوهرة ووضعته بين يدي موسى. فهمّ موسى بأخذ الجوهرة، فأخذ جبريل بيده ووضعها على الجمرة، فوضعها في فمه واحترق لسانه وصار ألثغاً، وكفّ فرعون عن قتله.

بعثة موسى حكمته مع موسى – عليه السلام – حين أرسله إلى فرعون.

ذلك لما استأذن موسى لشعيب في عودةٍ إلى أمه وأخيه ليجدد بهما عهداً، أذن له شعيب في ذلك فأخذ أهله معه. وكان الزمان شاتياً، فحاد موسى عن الطريق وضرب زوجته الطلق، وكانت ليلة مثلجة فقدح موسى الزناد فلم يورِ.

وبينما هو مفكر في أمره إذ أبصر ناراً من بعيد، فقال لأهله: "أقيموا مكانكم إني أبصرت ناراً لعليّ آتيكم منها بقبس أو أجد على النار من يهديني على الطريق".

فلما أتى النار رأى شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها، ورأى ناراً بيضاء تتّقد وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً فخاف وتعجب.

أُلقيت عليه السكينة ثم نودي: {يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} (طه 11 ، 12).

ثمّ قال له بعد ذلك: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى} (طه 17)، {قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} (طه 18) فقال له الله – عزّ وجلّ –: {أَلْقِهَا يَا مُوسَى} (طه 19).

ألقاها موسى عن يده فإذا هي حية تسعى، وجعلت تكبر حتى صارت ثعباناً. لما رآها موسى ولّى مدبراً، فناداه الله: أقبل، {وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} (طه 21)، يعني يردّها عصا كما كانت.

فعاد موسى وقبض عليها فعادت عصا، وأمره بالمسير إلى فرعون وأن ينذره.

فانظر إلى الحكمة التي لا يقدر عليها أحد سواه – سبحانه وتعالى – عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً؟ هذا لتأنيس لين موسى لو لم يعلم هذا من شأن العصا لولّى مدبراً عن فرعون وبطل معنى المعجزة، فأراه الله ذلك ليطمئنّ بها عند إلقائها بين يدي فرعون.

البقرة الغالية الثمن حكمته مع صاحب البقرة حتى أغناه.

مما رواه الثعلبي في كتابه الكشف والبيان أنّه كان في زمن بني إسرائيل رجل براً بوالديه، وبلغ من برّه أن جاءه رجل بحجر ياقوت فابتاعه منه بخمسين ألف درهم، وكان يساوي مئة ألف درهم.

فقال للبائع: "إنّ أبي نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه، أمهلني حتى يستيقظ وأعطيك الثمن". قال: "أيقظه واعطني"، فقال: "ما كنت لأفعل ولكن أزيدك مئة إذا انتبه". فقال البائع: "أنا أحطك مئتين فأنبهه وعجّل لي بالثمن". فقال له: "أنا أزيدك ثلاثمئة إن انتظرت انتباه أبي"، قال له: "أنا محتاج إلى الثمن، الساعة أنبه أباك". قال له: "أزيدك خمسمئة درهم"، فقال: "لا أفعل"، وأخذ الحجر وانصرف.

وقيل إنّه كان صبياً، وكان برّاً بوالده، كما كانت له بقرة وجرى له مثل هذا. فأراد الله – عز وجل – أن يعوضه ببره لأبيه بكل درهم ألف دينار، فأحوج بني إسرائيل إلى بقرة كانت عنده باعها على جلدها ذهباً وفضة وخشاراً.

وسبب ذلك أنّه وُجِد قتيلٌ في بني إسرائيل اسمه عاميل ولم يُعرف قاتله، وقيل المقتول كان له مال عظيم وله ابن عم مسكين، لا وارث له غيره. فلما طال عليه بقاؤه قتله ليرثه، وقيل كان للمقتول زوجة في غاية الحسن والجمال، قتله ابن عمها ليتزوج بها. فلما حُمِلَ من قريته إلى قرية أخرى، وأُلقي هناك، وطولب أهلها بديّته وقع قتال بين القريتين وقتل منهما ألف نفس.

قال عكرمة: "كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً، كل سبط يدخل من باب. فوجدوا هذا المقتول على باب سبط من الأسباط، فجرّ إلى باب سبط آخر واختصم السبطان بينهما".

وقال ابن سيرين: "قتله القاتل وحمله إلى باب رجل منهم، ثمّ أصبح فطلب ثأره ودمه وادّعى به".

جاء أهل المقتول إلى موسى، وأتوا بناس وادّعوا عليهم وسألوه القصاص. سألهم موسى عن ذلك فجحدوا، واشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم خلاف، سأل موسى ربّه فأمره بذبح البقرة.

كان الغرض في ذبحهم البقرة بيّنًا، فالبقرة التي أمرهم بذبحها كانت عند الرجل البارّ بوالديه. فقال لهم موسى: "إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة"، قالوا: "يا موسى أتتخذنا هزواً؟"، قال موسى: "أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين". فلمّا علم القوم أنّ ذبح البقرة عزم من الله سألوه الوصفة وقالوا: "ادعُ لنا ربّك يبيّن لنا ما هي". فوصف لهم البقرة التي عند الرجل البارّ، فطلبوها. قال: "لا أبيعها إلّا على جلدها ذهباً وفضّة"، فاشتروها منه بما طلب، وذبحوها وما كادوا يفعلون بغلاة ثمنها.

ثمّ أخذوا منها قطعة، واختلفوا في القطعة، فقيل العضروط، وقيل اللسان، وقيل الذنب، وقيل أذنها، وقيل العُقَيص وقيل الفخذ. فلمّا ضربوا القتيل بالقطعة قام والدم يشخب من أوداجه، وقال قتلني فلان بن فلان، داره في الموضع الفلاني وصنعته كذا. ثم ألقى نفسه على الأرض ومات.

عندما سرق الحجر ثياب موسى حكمته مع موسى – عليه السلام – حين برَّأ ساحته من اتهام بني إسرائيل له. وقد ذكر الثعلبي في تفسيره أنّ بني إسرائيل كانوا يغتسلون من مغتسل لهم، وينظر بعضهم إلى سوءة بعض. وكان موسى – عليه السلام – يغتسل وحده. فقال بنو إسرائيل: "ما يمنع موسى الاغتسال معنا إلّا وبه عاهة في جسده؟". فاجتنبه بنو إسرائيل مدّة.

أراد الله – عزّ وجلّ – أن يريهم أنّه ليس بموسى عاهة. فمضى موسى – عليه السلام – بعض المرات ليغتسل، خلع أثوابه ووضعها على حجر هناك، ونزل موسى إلى الماء. أمر الله – عزّ وجلّ – الحجر أن يأخذ ثياب موسى ويذهب. طلع موسى من الماء وهو يقول: "ثوبي يا حجر". فنظر بنو إسرائيل إلى موسى عرياناً وليس به سوء.

ولمّا تحقّقوا من ذلك وقف الحجر وأخذ ثوبه وزال ما كان عند بني إسرائيل من أمره.

غرق فرعون حكمته من غرق فرعون.

ذلك لما أراد الله – عزّ وجلّ – أن يهلك فرعون وجنده، أمر الله – عزّ وجلّ – موسى أن يسري ببني إسرائيل الاثني عشر سبطاً من مصر، وأمر موسى قومه أن يسيروا إلى الصباح. خرج موسى – عليه السلام – في ستمئة ألف يحميهم عشرون ألف مقاتل لا يعدون ابن عشرين سنة لصغره، ولا ابن ستين سنة لكبره، ولا من حُرم سوى الذرية، فساروا وهارون على مقدمتهم وموسى على ساقتهم.

ونذر بهم فرعون، فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا في طلب بني إسرائيل إلّا حتى تصيح الديوك. فوالله ما صاح ديك حتى طلعت الشمس. خرج فرعون في طلب بني إسرائيل وعلى

مقدمته هامان، في ألف ألف عنان وسبعمئة ألف، كان فيهم سبعون ألف أدهم سوى سائر الألوان.

سار بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى ساحل البحر والماء في غاية الزيادة، ونظروا فإذا هم بفرعون وقومه وذلك حين أشرقت الشمس. بقوا متحيرين وقالوا: "يا موسى كيف نصنع وما الحيلة؟ فرعون خلفنا والبحر أمامنا". فقال: "لا تخافوا إن معي ربّي سيهديني".

فأوحى الله – عزّ وجلّ – إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر. فضربه موسى فلم يطعه، فأوحى الله إليه أن كنّه. فضرب موسى – عليه السلام – بعصاه البحر وقال: "انفلق أبا خلد بإذن الله تعالى". انفلق البحر اثني عشر فلقاً، كل فلق كالطور العظيم، وكان لكل سبط طريق. أرسل الله – عزّ وجلّ – الشمس والريح إلى قعر البحر فصار يابساً وهو الذي لم تطلع عليه الشمس إلّا مرة واحدة. وسلك كل سبط طريقاً، وعن جانبهم الماء كالجبل الضخم الذي لا يرى بعضهم بعضاً، خافوا، وقال كل سبط: "قد هلك الآخر".

فأوحى الله – عزّ وجلّ – إلى الماء أن يتشبّك، فصار على هيئة الشباك، يرى بعضهم بعضاً. فاطمأنوا حتى عبروا البحر سالمين. ولمّا وصل فرعون إلى البحر رآه على تلك الحالة، قال لقومه: "انظروا كيف انفلق من هيبتي حتى أدرك عدوي وعبيدي الذين أنفوا مني، ادخلوا البحر"، فهاب قومه ذلك. ولم يكن في عسكره حجرة بل الكل حصن، فجاء جبرائيل على فرس حتى أتى مقدمتهم، ولمّا شمت خيل فرعون الأنثى اقتحمت البحر في أثرها حتى تكملوا جميعهم في البحر، وهمَّ أول عسكر أن يخرجوا، أمر الله – عزّ وجلّ – البحر أن يأخذهم. فالتطم عليهم وغرّقهم جميعاً، وغرق فرعون في الجملة، وذلك بمرأى من بني إسرائيل. فذلك قوله – عزّ وجلّ –: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} (البقرة 50).

السبب في غرق فرعون، ولمَ لم يهلك بغير الغرق؟

ذلك أنّ فرعون لمّا ادّعى الألوهية جاء جبرائيل في صورة رجل من أهله، وقال: "ما تقول أيُّها الملك في مولى له عبد قد أحسن إليه وأعطاه وخوّله، فقام العبد يطلب الرئاسة على سيده وأخذ موضعه؟". قال له فرعون: "جزاء هذا العبد أن يغرق في البحر"، فقال له: "أعطني خطك بذلك"، فأعطاه خطه. ولو ذكر شيئاً سوى الغرق كان هلاكه به، لكن جعل الله هلاكه بما حكم به.

ولما غرق فرعون جاءه جبرائيل – عليه السلام – بخطه، فأراه إيّاه في البحر عند غرقه.

غضب موسى حكمته – عزّ وجلّ – كيف أسقى بني إسرائيل بغير زيادة النيل ولا وقوع مطر.

ذلك أنّ موسى – عليه السلام – دعا على قومه أن لا يزيد لهم النيل ولا يأتيهم مطرٌ، فبقوا على ذلك مدة، وكادوا يهلكون.

قام الزهاد منهم والأتقياء فتضرّعوا إلى الله – عزّ وجلّ – وسألوه كشف ما نزل بهم. فأمر الله – عزّ وجلّ – أرض النيل أن ترتفع مقدار خمسة أذرع، فارتفعت وطفح النيل وسقى أرضهم وزراعهم وبلادهم أكثر من العادة. ولمّا رأى موسى ذلك صعد إلى الجبل وقال: "إلهي وسيدي قولك صدق ووعدك حق، وأنت ضمنت لي أن لا تسقي بني إسرائيل بزيادة النيل ولا بمطر وأنّ النيل قد زاد بخلاف العادة". فقال الله – عزّ وجلّ –: "وعزّتي وجلالي لا زدت النيل ولا أتيتهم مطرًا ولكن لمّا قصدني أوليائي أجبت دعاءهم وأمرت أرض النيل أن ترتفع فطفح الماء وأجبت دعوة أوليائي وقضيت حاجتهم ولم أنكث لك عهداً"، فقال موسى – عليه السلام –:

"سبحانك من قادر حكيم لا إله إلّا أنت الواحد القهّار".

موت هارون حكمته في وفاة هارون – عليه السلام –.

فيما ذكره الثعلبي أيضاً أنّ موسى وهارون – عليهما السلام – كانا في التيه. فلمّا دنا أجل هارون، رأى في بعض الليالي نوراً عظيماً يطلع من أسفل تلك الجبال.

فقال هارون لموسى: "قم بنا ننظر ما هذا النور". فقال موسى: "انهض بنا".

قاما يمشيان حتى أتيا الجبل، فرأيا النور يطلع من مغارة فدخلاها، رأيا في صدرها سريراً عليه أنواع الفرش ومكتوب عليه بالعبرانية: "هذا السرير لمن هو في طوله".

نام موسى – عليه السلام – فعبرت رجلاه السرير. قال هارون: "أنا أنام عليه". ونام عليه فجاء بطوله، وهمَّ أن يقعد فلزم ملك الموت برأسه وقال: "السلام عليكم يا آل عمران، أتعرفوني؟"، قال موسى: "لم تنزل قبل هذا اليوم فنعرفك، من أنت؟". قال: "أنا ملك الموت أرسلني الله لقبض روح هارون".

فدمعت عينا موسى وبكى هارون، وقال: "يا موسى أوصيك بولدي خيراً وتقرأ مني السلام على بني إسرائيل". فبكى موسى، ثم إنّ ملك الموت أخرج موسى وقبض روح هارون، وغسلته الملائكة وكفنته ودفنته.

وفاة موسى حكمته في وفاة موسى – عليه السلام –.

ممّا حكاه أيضاً الثعلبي قال: لما أراد عزّ وجلّ وفاة موسى – عليه السلام – أرسل إليه ملك الموت. لمّا رآه موسى لطمه ففقأ عينه، ورجع ملك الموت إلى بين يدي الله – عزّ وجلّ – وقال: "إلهي وسيدي أنت أعلم بما كان وما يكون"، فردّ الله عليه عينه.

ثمّ أوحى الله – عزَّ وجلَّ – إلى يوشع بن نون: "قد نبيتك على بني إسرائيل". فكان يغدو ويروح على موسى – عليه السلام –، فيقول له موسى: "يا نبيّ الله ما أحدث الله إليك؟"، فيقول له يوشع:

"يا نبي الله ألم أصبحك كذا وكذا سنة؟"، فقال: "نعم". قال يوشع: "هل سألتك يوماً قط عمّا أحدث الله إليك حتى تسألني أنت؟". فلمّا تكرّر هذا القول من يوشع كره موسى الحياة وطلب الموت.

وبينما هو في بعض حاجاته إذ مرّ بقوم من الملائكة يحفرون قبراً لم يُرَ أحسن منه ولا أخضر ولا أنضر ولا أبهج. قال لهم: "يا ملائكة ربّي لمن هذا القبر؟"، قالوا:

"نحضّره لعبد كريم على ربِّه". قال موسى: "إنّ العبد من الله بمنزلة ما رأيت كاليوم مضجعاً"، فقالت له الملائكة: "أتحبّ أن يكون لك هذا القبر؟". قال: "وددت ذلك". قالوا: "انزل فانضجع فيه ليراه يسول". فنزل موسى – عليه السلام – وانضجع فيه، فوافاه ملك الموت وقبضه فيه وصلَّى الله عليه. ثمَّ سوَّت عليه الملائكة القبر. هذا في بعض الروايات، وسنذكر موته برواية أخرى من حيل الملائكة.

الغيم المشؤوم حكمته مع بني إسرائيل.

هو عذاب يوم الظلة، وذلك أنّ شعيباً دعا على قومه فاستجاب الله دعوته، وحبس عنهم الريح والظلّ سبعة أيام، فأصابهم حرّ شديد وكرب عظيم، ونزلوا إلى السراديب، فكانت أشدّ حرّاً من وجه الأرض، وبقوا في العذاب سبعة أيام.

لمّا كان اليوم الثامن رفع الله لهم سحابة، فأتى شخص منهم إلى ظلّها ووجد روحاً وهواءً طيّباً. فعاد يجيء بأهله وأعلم قومه. أتوا جميعهم إلى ظل السحابة يستظلّون بها، ويطلبون البرد والروح. ولمّا استظلوا جميعهم بها ولم يبقَ منهم أحد أرسل الله عليهم السحابة ناراً فأهلكهم عن آخرهم.

حكمة العقاب حكمته مع العُزَير – عليه السلام –.

رواه وهب بن منبه عن ابن عبّاس قال: "كان عُزَيْراً أجرأ خلق الله عزَّ وجلَّ عن مساءلته عن الأمر إذا أشكل عليه".

قال في بعض مناجاته: "يا ربِّ إني قد نظرت في جميع أمورك وأحكامك فعرفت عدلك بعقلي، وبقي باب لم أعرفه فأوضحه لي"، قال: "وما هو يا عُزير؟"، قال:

"يا ربِّ تسخط على أهل بلد فيعمّهم عذابك وفيهم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فلو أنزلت عذابك بمن استحقّه وعفوت عن أولئك؟".

فأجابه الله – عزَّ وجلَّ –: "يا عُزَير لولا ما أعرف من إخلاصك لخسّفت بك الأرض السابعة السفلى. وإن عدت تسألني عن مثل هذا لأمحيتك من ديوان النبوّة، ولكن صم واحداً وعشرين يوماً حتى يأتيك أمري".

لمّا صام الأيام أمره الله – عزَّ وجلَّ – أن يخرج إلى البرية. ولما فعل سلّط الله – عزّ اسمه – عليه الحر من فوقه والدرقاء من تحته.

حتى إذا بلغ مجهوده أنشأ الله له شجرة كثيرة الورق ذات ظل أفيح، فقيل له: "ابتغِ هذه الشجرة واستظل بظلها"، فلمّا أتاها استراح وذهب عنه ما كان يجده.

فقيل له: "هل تقدر أن تصرّ صرّة من الشمس؟"، قال: "لا أقدر". قيل له: "هل تقدر أن تكيل مكوكاً من الريح؟"، فقال: "لا أقدر".

فألقى الله – عزّ وجلّ – عليه النوم فنام، وطاب له نومه. فأنشأ الله له قرية من النمل، لصقت نملة بباطن فخذه، وقرصته، فآلمته وأيقظته من نومه. غضب لذلك، ولكد الأرض برجله فقتل من النمل أكثر من ثلاثة آلاف نملة. فأوحى الله إليه: "يا عزير إنما قرصتك نملة واحدة فَلِمَ قتلت ثلاثة آلاف نملة؟". فعلم ما أراد الله – عزّ وجلّ – فقال: "سبحانك لا إله إلّا أنت إني كنت من الظالمين".

ثمن الشهرة حكمته مع داوود – عليه السلام –، من كتاب تواريخ العجم .

ذُكر أنّ داوود – عليه السلام – سأل الله – سبحانه وتعالى – أن يجعل اسمه بعد موته على ألسنة بني إسرائيل كما جعل اسم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

فأوحى الله – عزّ وجلّ – إليه أنّ كل نبي من هؤلاء ابتليته ببلاء فصبر، ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وإسماعيل بالغربة فصبر، وإسحاق بالريح فصبر، ويعقوب بالعماء فصبر.

فقال داوود: "اللهم فابتلِني واجعل اسمي مع أسمائهم في أفواه بني إسرائيل عند صلاتهم". فأوحى الله – عزّ وجلّ –: "إذا لم تقبل العافية فستأتيك البلية"، وأمهله الله – عزّ وجلّ – حتى نسي المسألة التي سأل ربه تعالى.

وبينما هو ذات يوم في مسجده يقرأ الزبور، كان ذلك المسجد يُشرف على بستان لبعض بني إسرائيل، وفي ذلك البستان ماء تنتهي إلى حوض معمول لنساء بني إسرائيل يتطهرنَ فيه، إذ سقطت بين يديّ داوود حمامة من ذهب، جناحاها من الياقوت الأحمر، وذنبها من الزمرد الأخضر، ومنقارها من لؤلؤة بيضاء، ومخالبها من الفيروز الأزرق، فلما رآها أعجبته وظنّ أنّها من طيور الجنة.

نهض ليأخذها فمشت بين يديه حتى سقطت على سطح المسجد. ولمَّا مدّ يده ليأخذها، وقد أصاب بيده طرف جناحها، وقعت إلى البستان، فظن أنّه قد صرعها.

وأشرف على البستان لينظر خبرها، فرأى امرأة تغتسل أحسن أهل زمانها. فبقي باهتاً إليها ينظر إلى حسنها وجمالها، ونظرت المرأة خيال داوود – عليه السلام – في الماء، رفعت رأسها وإذ

بداوود مشرف عليها. أرخت شعرها، فجلّلها من رأسها إلى كعبها، فوقعت من داوود – عليه السلام – موقعاً عظيماً. نزل من السطح وسأل عنها، فقيل له إنها زوجة أورياء.

كان زوجها قد أرسله داوود إلى ناحية الشام، إلى قوم كنعان يُقاتلهم. وكان مع عسكر داوود ابن أخيه معه التابوت الذي فيه السكينة، وكان ممَّن تقدّم من بني إسرائيل نحو التابوت لا ينهزم، بل يقتل عدوه أو يُقتل. فكتب داوود إلى ابن أخيه: "أن قدّم أورياء أمام التابوت حتى يفتح الله على يديه". فلمّا قرأ الكتاب قال:

"إنّ نبيّ الله لم يقدمني أمام التابوت إلّا وقد علم أني مقتول". تقدّم في كتيبة فقاتل حتى قُتل، وأمهل داوود زوجته حتى قضت عدتها، ثم تزوجها.

بينما داوود – عليه السلام – ذات يوم يصلّي ويعبد الله وذلك اليوم الذي ذكره الله، إذ تسوّر على المحراب ملكان في صورة بني آدم. فلمّا رآهما أقبلا نحوه خافهما، وغضب على حُراسه وقال: "بلغ من تهاونكم أن تتركوا رجلين يتسوّران عليّ في مسجدي يوم عبادتي لله".

قالا: "لا تخف فإننا خصمان"، قال لهما: "ارجعا، ليس هذا يوم قضاء"، فقالا: "إنّ حاجتنا يسيرة"، قال: "هاتا". فقال أحدهما: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ} (ص 23). وقد ضمّ نعجتي إلى نعاجه، إلى قوله: {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ}[4] (ص 24)، ثم ارتفعا إلى السماء وهو ينظر إليهما. وقالا: "يا داوود حكمت على نفسك". فعلم داوود عند ذلك ما أراد، ويقن أنه قد أتى أمراً عظيماً، فخرّ، مغشياً عليه.

وقال:

إلهي وسيدي كيف غفلتُ وأنت لا تغفل؟ إلهي كيف أعمل وأنت لا تقبل مني؟ إلهي كيف أتوب ولا تقبل توبتي؟ إلهي كيف أعتذر وأنت لا تقبل عذري ولا عذرَ لي؟

إلهي كيف ألقاك وأنا صاحب الخطية؟ إلهي كيف ألقاك وأنا صاحب الذنب العظيم؟

فأوحى الله – عزّ وجلّ – إليه: "يا داوود أجائع أنت فأطعمك أم عطشان فأسقيك أم عريان فأكسوك؟"، قال: "إلهي أنت أعلم بحاجتي غير مُعلم". فأوحى الله – عزّ وجلّ – إليه أن انطلق إلى قبر أورياء فقد أذنت له في كلامك، فاستوهب الذنب منه فإن وهبه لك فقد غفرته لك.

انطلق داوود إلى قبر أورياء ليلاً، دعاه فأجابه وقال له: "مَن الذي أيقظني وقطعني عن لذتي؟"، قال: "أنا أخوك داوود"، قال: "مرحبا يا نبي الله، ما حاجتك؟"، قال: "ذنب مني إليك"، قال: "أنت في حِلٍّ من كل ذنبٍ كان منك إليّ"، فانصرف داوود وقد ذهب بعض همّه.

بينما هو يمشي إلى بيته إذ أوحى الله – عزّ وجلّ –: "إني حكم عدل ولا أقضي إلّا بالحق". فانصرف إليه وبيّن له الذنب. رجع داوود – عليه السلام – إلى قبر أورياء ثم دعاه، فأجابه وقال: "من هذا الذي أيقظني وقطع عليّ لذتي؟"، قال: "أنا أخوك داوود"، قال: "وفيمَ رجعت يا نبي الله؟"، قال: "الذنب الذي كان مني إليك"، قال: "أوَلم أجعلك منه في حِلّ؟"، قال: "ربّي أمرني أن أخبرك ما الذنب"، قال: "وما هو يا نبي الله؟"، قال: "عرّضتك للمهالك من أجل زوجتك لأتزوج بها بعدك"، قال: "فتزوجت بها؟"، قال: "نعم"، قال: "فلست أجعلك في حل حتى أخاصمك يوم القيامة بين يدي ربّي عزّ وجلّ".

فلمّا سمع داوود ذلك وضع يديه على رأسه وصاح، وظلّ من وقته هائماً على وجهه، يحثو التراب على رأسه ويقول: "كيف أعمل ولا يقبل مني، كيف أتوب ولا تقبل توبتي؟ ويلي إن سلطت الزَبَانيَة عليّ، ويحي إن كانت النار مثواي، ويحي إن كان الجحيم مصيري، ويلي إن ازرقَّت عيناي".

ومكث على هذا زماناً طويلاً يبكي الليل والنهار بدمع غزير وقلب حزين، حتى نبت العشب من دموعه. ثمّ رحم الله طول بكائه وتضرّعه فأوحى الله – عزّ وجلّ – إليه: "يا داوود ارفع رأسك فقد غفرت لك"، قال: "إلهي وسيدي كيف تغفر لي وأنت عدل لا تجور؟"، فأوحى الله – عزّ وجلّ – أني "أُري أورياء في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت"، فيسألني: "لمن هذا؟"، فأقول: "هذا لِمَن غفر لأخيه المؤمن ذنبه"، فيقول: "اجعله لي حتى أغفر ذنب أخي داوود – عليه السلام –". فقال داوود: "إلهي وسيّدي الآن قد علمت أنك قد غفرت لي".

ولم يزل باكياً على خطيئته أيام حياته، وكان يلبس الصوف ويأكل خبز الشعير ويصوم يوماً ويفطر يوماً. وكان إذا ذكر خطيئته خرّ مغشياً عليه حتى ربط الله على قلبه بالصبر والإيمان.

قضاء نزيه حكمته مع أرميا – عليه السلام –، وهو مما رواه محمد بن إسحاق الواقدي ووهب بن منبه.

إنّ الله تعالى قال لأرميا – عليه السلام – حين بعثه نبياً إلى بني إسرائيل: "يا أرميا من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصوّرك في الرحم سددتك، ومن قبل أن تبلغ السعي نبّيتك، ولأمر عظيم أحببتك. اذهب إلى ابن رصوص ملك بني إسرائيل فانههِ عن ركوب المعاصي واستحلال المحارم، وذكّر بني إسرائيل نعمتي، وعرّفهم أحداثهم وادْعُهُم إليّ".

فقال أرميا – عليه السلام –: "يا رب إني ضعيف فقوّني، وعاجز فانصرني". قال الله تعالى: "أنا ألهمك". فقام أرميا – عليه السلام – فيهم ولم يدرِ ما يقول، فألهمه الله في الوقت خطبة بليغة طويلة، بيّن لهم فيها ثواب الله في الطاعة وعقابه في المعصية. وقال في آخرها: "إني أحلف بعزّتي لأقبضنّ لهم فتنة يتحيّر فيها الحكيم، ولأسلطنّ عليهم جباراً قاسياً ألبسة الهيبة، وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم".

ثم أوحى الله إلى أرميا: "إني مهلك بني إسرائيل بيافث ومنافت وهم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح".

فلمّا سمع أرميا ذلك صاح وبكى وشقّ أثوابه وحثا التراب على رأسه. ولما رأى الله تفزّع أرميا وناداه بكاؤه: "يا أرميا أشق عليك ما أوجبته"، فقال: "نعم يا رب أهلكني قبل أن تهلك بني إسرائيل".

قال الله: "لا أعمل حتى تكون أنت الآمر بذلك". ففرح أرميا وطابت نفسه بذلك وقال: "لا والذي بعث موسى بالحق نبياً لا أرضى بهلاك بني إسرائيل".

ثم أتى الملك فأخبره بذلك، وكان ملكاً صالحاً فاستبشر وفرح وقال: "إن يعذبنا الله فبذنوب كثيرة وإن أعفى عنا فبرحمته وكرمه".

ثم إنهم لبثوا بعد الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلّا معصية وتمادياً في الشر. وذلك حين قرب عذابهم، ودعاهم إلى التوراة فلم يقبلوا، فسلّط الله بختنصّر في ستمئة ألف راية يريد بيت المقدس. لمّا وصل ساوا، جاء الخبر إلى الملك. فقال لأرميا: "أين ما زعمت أن الله تعالى أوحى إليك؟". فقال أرميا: "إن الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق".

فلما قرب الأجل وعزم الله على هلاكهم، بعث إلى أرميا ملكاً فتمثل على صورة رجل من بني إسرائيل فقال له: "يا نبي الله أنا أستغيث بك في أمور جمع وهم قراباتي وبني عمي وصلت رحمهم ولم آتِ إليهم إلّا حسناً ولا يزيدني إكرامي لهم إلّا سخطاً فافتني فيهم".

فقال له: "أصلح ما بينك وبين الله وصِلهم واصبر تصب خيراً". فانصرف الملك ومكث أياماً ثم أتى إليه فجلس بين يديه وقال له مثل الأول. فقال له أرميا: "وما طهرت أخلاقهم لك بعد؟". قال: "لا يا نبي الله. والذي بعثك بالحق نبياً ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلّا وآتيهم وأفضل".

فقال أرميا: "ارجع إلى أهلك وأحسن إليهم واسأل الله تعالى أن يصلح عباده الصالحين". فمكث أياماً وقد نزل بختنصّر على بيت المقدس في أكثر من الجراد ففزعت بنو إسرائيل وشق عليهم. فقال ملكهم لأرميا: "يا نبي الله أين وعدك من الله عزّ وجلّ؟". فقال: "إني بربي واثق".

ثم أقبل الملك على أرميا وهو جالس على جدار بيت المقدس، فضحك واستبشر بنصر ربّه الذي وعده وجلس الملك بين يديه وقال: "أنا أتيتك في شأن أهلي مرتين".

فقال له أرميا: "أما آن لهم أن يتوبوا من الذي هم فيه". فقال له الملك: "يا نبي الله كل شيء كان يصيبني قبل اليوم كنت أصبر عليه واليوم رأيتهم في عمل لا يرضي الله عزّ وجلّ". فقال أرميا: "على أي عمل رأيتهم؟"، قال: "على عمل عظيم يسخط الله ويغضبه".

فقال أرميا: "يا رب السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على ما يسخطك ولا يرضيك فأهلكهم". ولم يستتمّ كلامه حتى أرسل الله عليهم صاعقة من السماء في بيت المقدس، والتهب مكان القربان وخسف بتسعة أبواب من أبوابه. فلما رأى أرميا ذلك صاح وشقّ ثيابه وحثا التراب على رأسه وقال: "يا ملك السموات والأرض أين وعدك الذي وعدتني؟"، فنودي: "إنهم لم يصبهم ما أصابهم إلّا بدعائك عليهم". فعلم أرميا أن السائل كان ملكاً من السماء، فعاد عمّا كان عليه.

نجاة المسيح حكمته حتى نجا عيسى – عليه السلام – من القتل، وكيف مكر اليهود ومكر الله بهم.

قال الله تعالي: ومكر وبغى كفار بني إسرائيل الذين "أحسّ عيسى منهم الكفر" ودبروا في قتل عيسى – عليه السلام –.

والمكر ألطف التدبير: {ومكر اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (آل عمران 54). قال الفراء: "المكر من المخلوقين الخب والخديعة والحيلة وهو من الله تعالى استدراجهم".

قال الله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} (الأعراف 182). وقال ابن عباس: "معناه كلما أحدثوا أمراً عكس عليهم"، وقال الزجاج: "مكر الله مجازاتهم على مكرهم، وإن يعجز لهم مع مكرهم بمكر منه".

ومكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية؛ أن ألقى الشبه على صاحبه الذي أراد قتل عيسى – عليه السلام – حتى قتل وصلب ورفع عيسى إلى السماء.

وذلك أنّ عيسى – عليه السلام – جمع الحواريين ليلة أرادوا به المكر، وأوصاهم أن يمضي كل شخص منهم إلى قطر من الأرض يدعو إلى الإيمان. ثم قال: "ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصبح ويبيعني بدراهم يسيرة". فخرجوا وتفرّقوا.

كان اليهود قد أقاموا الأعين على عيسى – عليه السلام –، فأتى إليهم أحد الحواريين وقال لهم: "ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟"، فجعلوا له ثلاثين درهماً.

أخذها وقال: "اتبعوني". فتبعوه إلى منزل عيسى – عليه السلام – الذي كان فيه. ولما وصلوا إليه قالوا له: "ادخل جئنا به". فدخل، رآه عيسى وقال له: "ما تريد؟"، قال: "أنت". فرفعه الله إليه وأوقع شبهه على الرجل الذي طلبه. فخرج إليهم ليعلمهم أن عيسى – عليه السلام – قد رفع إلى السماء. فرأوا عيسى ولم يمهلوه دون أن قبضوا عليه، فقال لهم: "لست بعيسى وإنّ عيسى رفع إلى السماء". قالوا: "بل أنت عيسى وتريد أن تهرب"، قال: "أنا الذي دللتكم عليه"، فلم يلتفتوا إلى قوله، وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى، فكان مكر الله أقوى من مكرهم.

غضب يونس حكمته مع يونس – عليه السلام –.

ذلك لما أرسله الله إلى أهل نينوى كذّبوه ورجموه وشتموه وجرّوه برجليه، فبقي يدعوهم زماناً طويلاً، ولم يزدادوا إلا طغياناً وكفراً، فدعا عليهم. وأوحى الله إليه أن "لا تعجل على قومك وادعهم أربعين يوماً، فإن آمنوا نجوا وإلّا أخذهم العذاب". فدعاهم يونس أربعين يوماً فلم يستجيبوا له. فقال: "إلهي وسيدي أنت أعلم بهم مني".

أوحى الله إليه أن اخرج من بين أظهرهم فإني معذّبهم. فخرج يونس – عليه السلام – إلى ريف دجلة ينظر كيف ينزل عليهم العذاب.

ثم أوحى الله – عزّ وجلّ – إلى مالك خازن النار أن يخرج شرارة من أرض الحطمة ليرسلها على قوم يونس. فأخرج مالك شرارة من قعر الحطمة، كأنها سحابة سوداء، وجاءت بها الزبانية في الهوى إلى نينوى. وانبسطت على بلاد القوم، وظن الناس أنها مطر. ونظر الملك إلى السحابة والنار تتطاير منها، فاستدعى وزيره وكان قد آمن بيونس وكتم إيمانه. فقال: "هذا العذاب الذي وعدنا به يونس، فالحذر الحذر. ليس هذا سحابة مطر، وإن كان قد رحل فهو العذاب لا مطر فيه".

فطلبوا يونس فلم يجدوه وقالوا: "إنّه رحل من بلدنا". فلما سمع الملك بذلك لبس مسحاً أسود وكذلك كل من في البلد، من شريف ووضيع، وغني وفقير، وذكر وأنثى وحر وعبد. وخرجوا إلى تل قريب من المدينة يُعرف الآن بتل توبة، صعدوا عليه ونادوا: "يا إله السماء، يا إله يونس اعفُ عنا، فقد جئنا إليك بعد أن ظلمنا أنفسنا، وتبنا إليك، وصدقنا بما جابه نبيك ورسولك يونس، فاغفر لنا فنحن نشهد أن لا إله إلا أنت". وخروا كلهم سجّداً.

علم الله منهم صدق النية، فأمر الملائكة أن ارفعوا العذاب عن عبيدي فإنهم قد آمنوا بي ووحّدوني. رفعوا عنهم العذاب، وهتف بهم هاتف يقول: "أبشروا يا أهل نينوى بالرحمة من ربكم". رجعوا إلى مدينتهم وهم مؤمنون موحدون.

كل هذا ويونس على شاطئ دجلة ينتظر ما يحل بقومه. وبينما هو في بعض الطريق، إذ تعرّض له إبليس في صورة شيخ قد أقبل من المدينة. قال له يونس: "يا شيخ من أين أقبلت؟"، قال: "من نينوى". قال: "ما فعل الله بها؟"، قال: "نشر علينا رحمته وغفر ذنوبنا وكشف عنا العذاب، ونحن في أطيب ما يكون من العيش والخير والدعة". فلما سمع يونس كلام الشيخ ولّى مغضباً، أي غضباناً على الله، كيف لم يوقع على قومه العذاب.

وسار حتى أتى إلى جانب البحر، فرأى سفينة سائرة، أشار إلى ملّاحيها، فأتوا إليه وحملوه معهم. ولما توسطوا البحر جاءهم الموج من كل مكان وهبّت عليهم أرياح كادت أن تقلب السفينة. فقال يونس: "يا قوم إن أردتم النجاة فألقوني في البحر". قالوا: "كيف نلقيك في البحر بغير ذنب جئته ولا فاحشة ارتكبتها". قال: "أنا المطلوب من السفينة"، قالوا: "لا نفعل ذلك أبداً"، قال لهم: "فنقرع على من وقعت عليه القرعة"، فألقوه في البحر. أقرعوا ثلاثاً وهي تقع على يونس، قالوا:

"هذا ما نقبله"، قال: "فاكتبوا أسماءكم، فكل من غاص اسمه فهو المطلوب". فعلوا ذلك وألقوها في البحر، فغاص اسم يونس، فقالوا: "ما نقبل بهذا". قال:

"كل من طفا اسمه فهو المطلوب". ففعلوا ذلك فظهر اسم يونس، فقالوا: "ما بقي شيء". قام يونس وغطى وجهه ببردته، وهمّ أن يلقي نفسه في البحر. ففتح الحوت فاه ليلتقمه، فأوحى الله تعالى إلى الحوت: "أني لم أجعل يونس قوتاً لك وإنما جعلت بطنك سجناً له". فدار يونس إلى الجانب، فإذا الحوت فاتحاً فاه فأرمى يونس نفسه فالتقمه الحوت وغاص في البحر.

ولما رأى يونس ظلمة بطن الحوت والبحر والأرض قال: "سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين". فاستجاب الله له ونجّاه من بطن الحوت.

واختلفوا في كم لبث في بطن الحوت. قال عكرمة: "ثلاثة أيام"، وقال ابن مسعود: "ثلاث ساعات"، وقال قتادة: "أربعين يوماً"، وقال مقاتل: "يوماً واحداً".

قال: "فلما قال يونس سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين أمر الله الحوت أن يبلطه". فبلطه بالفراة (وهو موضع فوق الموصل بسبعة فراسخ، يسمى بلط وتداوله الناس فسموه بلد، فنبد)، وهو كأنه الفرخ الذي لا ريش له.

فأنبت الله عليه شجرة اليقطين، وجاءت غزالة فسقته من لبنها حتى كمل أربعين يوماً. ولما عاد إلى حال الصحة كما كان أولاً، أذهب عنه الشجرة ويبست العين وذهبت الغزالة. فضاق صدره، وبكى. أوحى الله – عزّ وجلّ – إلى يونس: "يضيق صدرك على مئة ألف رجل يوحدونني ويعبدونني". فنادى: "سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين"، فأمره الله – عزّ وجلّ – أن يطلب نينوى، لأن أهلها اشتهوا أن يروا يونس.

سار يونس ذلك اليوم إلى المساء، وجاء إلى قومه فاستضاف برجل "فاخراني"[5] فأضافه، وبات عنده. ولما كان نصف الليل ويونس قائم يصلّي أوحى الله – عزّ وجلّ – إليه: "يا يونس قل لهذا الفاخراني أن يكسر كل ما عنده من الفخار"، قال: "لا والله ما أفعل ذلك أبداً". فلحّ عليه يونس بالقول، وكان ذلك بأمر الله تعالى، فقال له الفاخراني وقد غضب: "يا هذا ما أنت إلّا مجنون، قم اخرج من عندي، كيف تأمرني أن أكسّر شيئاً قد عملته في أيام كثيرة". وما زال بيونس حتى أخرجه نصف الليل.

فخرج يونس وهو لا يدري أين يذهب، فأوحى الله إليه: "يا يونس لججت على الفاخراني في هلاك فخار يساوي ديناراً. فغضب وأخرجك من منزله، فكيف أهلك مئة ألف يوحدونني ويعبدونني". فعلم يونس ما أراد الله سبحانه وتعالى فقال يونس: "سبحانك لا إله إلّا أنت إني كنت من الظالمين".

الغار والعنكبوت حكمته مع محمد – صلّى الله عليه وسلّم –.

ذلك أن محمداً – صلى الله عليه وسلّم – لمّا لجأ هو وأبو بكر، وطلبا الغار، خرج الكفار في طلبهما. فما زالوا يقصون أثرهما حتى أتوا باب الغار. فأمر الله – عزّ وجلّ – العنكبوت فسدّت على باب الغار لساعته، وأمر الحمامة فعشّشت وأفرخت على فمه. والنبي – صلى الله عليه وسلّم – وأبو بكر داخل الغار. فلمّا أتى الكفار إلى باب الغار، وجدوا سدى العنكبوت، وعش الحمامة وهي راقدة على أفراخها. فبقي القوم باهتين حائرين، وقالوا: "قد قصّينا أثرهما إلى ها هنا وقد انقطع أثرهما". فقال أحدهم: "لا يكونان إلّا قد دخلا هذا الغار"، فقالوا له: "أعمى الله قلبك كما أعمى نظرك، أما تنظر سدى العنكبوت لم يتخرق والحمامة لم تجفل"، وأعمى الله عليهم فرجعوا خائبين.

الباب الرابع في حِيَل الملائكة والجنّ

فصل في حِيَل الملائكة

لحد هابيل حيلة جبرائيل وميكائيل – عليهما السلام – على قابيل.

ذلك لمّا قتل قابيل هابيل، تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم.

قصدته الطير والسباع والوحش، فحمله في جراب على ظهره حتى أروح ونتن. وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر رميه، فأمر الله – عزّ وجلّ – جبرائيل وميكائيل أن انزِلا إلى الأرض فعلّما قابيل كيف يدفن أخاه.

نزل جبرائيل وميكائيل في صورة غرابين، اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، كان هذا بمرأى من قابيل. فلمّا مات أخوه، حفر الآخر في الأرض بمنقاره ومخالبه حفرة وطرحه فيها وطمّ عليه التراب.

فقال قابيل: "ويلتاه، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي"، ثمّ حفر له قبراً وواراه فيه.

ضيافة إبراهيم حيلة الملائكة مع إبراهيم – عليه السلام –.

ذلك أنّ إبراهيم – عليه السلام – كانت سيرته ألّا يأكل طعاماً إلّا مع ضيف. فبقي ثلاثة أيام لم يأته ضيف. وفي اليوم الرابع وهو في بيته يقرأ في الصحف إذ دخل عليه أربعة نفر. قالوا: "السلام عليك"، قال: "وعليكم السلام ورحمته وبركاته"، ورحّب بهم وأمرهم بالجلوس، قالوا: "نحن ضيوف".

فقام إلى سارة وقال: "قد أتاني ضيوف صباح الوجوه نظاف الثياب فقومي اخدميهم"، فقالت له: "كان عهدي بك أغير الناس". قال: "هو كما تقولين إلّا أنّ هؤلاء النفر أبرار قد سلّموا عليّ سلام الأبرار الأخيار".

ثم قام إبراهيم إلى عجل سمين فذبحه وشواه لهم. ولمّا نضج وضعه بين أيديهم على خوان مع خبز كثير، وسارة على رأسهم تنظر إليهم، وإبراهيم يأكل ولا ينظر إليهم. فقالت سارة: "يا إبراهيم إن أضيافك هؤلاء ما يأكلون". فقال لهم: "لِمَ لا تأكلون؟"، وداخله الخوف من ذلك. وذلك قول الله – عزّ وجلّ –: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} (هود 70).

ثم قال لهم: "لو علمت أنكم لا تأكلون لَمَا كنت قطعت هذا العجل عن أمّه". فمدّ جبرائيل يده إلى العجل وقال له: "قم بإذن الله تعالى". فقام وطلب أمّه وجعل يرضعها. فاقشعرّ إبراهيم منهم وقال:

{إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} (الحجر 52 ، 53)، فطاب قلبه وبشّروه بإسحاق – عليه السلام –.

الخليل الوفي حيلة أخرى للملائكة مع إبراهيم – عليه السلام –.

ذلك لمّا اتخذ الله إبراهيم – عليه السلام – خليلاً، دخلت الغيرة في جبرائيل وميكائيل وقالا: "إلهنا وسيدنا أتأذن لنا أن نزور خليلك ونختبره هل فيه من علامة الأحباب شيء؟". فأذن لهما، نزلا فإذا هو واقف على الأغنام وكان له أربعة آلاف راعٍ، ومع كل راعٍ كلب، وفي حلق الكلب طوق من ذهب وزنه ألف مثقال.

فوقفا حذاءه وقالا بصوت شجيّ: "سبحانه من قديم ما أعظمه، وسبحانه من عظيم ما أكرمه، وسبحانه من كريم ما أحلمه، وسبحانه من حليم ما أرحمه، سبوح قدّوس رب الملائكة والروح".

فاهتزت أركان إبراهيم – عليه السلام – وناداهما: "مِمَن أنتما؟"، قالا: "عباد الله"، قال: "فأنشدتكما بالله ألا قلتما مرة أخرى"، قالا: "ما نقول إلّا بشيء"، قال:

"قد وهبت لكما جميع ما أملك من الأغنام والمواشي"، فقالا مرة أخرى أحسن من الأولى، فقال لهما: "أعيدا ذلك الصوت"، فقالا: "ما نقول إلّا بشيء"، قال: "قد وهبتكما ما في داري من متاع وغيره"، فأعادا ثم سكتا. فقال لهما: "قولا مرة أخرى"، قالا: "ما نقول إلّا بشيء"، قال: "قد وهبت لكما أولادي"، فقالا ثم سكتا.

فقال: "قولا مرةً أخرى حتى أهب لكما نفسي وأكون لكما راعياً".

فالتفت جبرائيل إلى ميكائيل وقال: "يحق له أن يكون خليل الله"، ثم قالا له: "بارك الله لك في مالك وأولادك، فأنا جبرائيل وهذا ميكائيل"، وتركاه وانصرفا.

لعنات لوط الثلاث حيلة الملائكة مع لوط – عليه السلام –.

قيل إنّ لوطاً كان ذات يوم يحرث، فلما فرغ من حرثه قصد بيته، التقاه جبرائيل وميكائيل، ومعهما ملكان، وهم في أحسن صورة تكون.

قالوا له: "يا لوط نحن أضيافك لأننا قد أتينا من موضع بعيد، وقد جزنا بساحتك، فهل لك أن تضيفنا هذه الليلة؟"، قال: "نعم ولكن أخاف عليكم من هؤلاء الفاسقين عليهم لعنة الله". فقال جبرائيل لميكائيل: "هذه واحدة". وكان الله – عزّ وجلّ – قد أمرهم ألّا تهلكون قوم لوط إلّا بعد أن يلعنهم لوط ويشهد بفسقهم ثلاث مرات. ثم أقبلوا عليه وقالوا: "يا لوط قد أقبل الليل علينا وما لنا موضع نلبث فيه، ونحن الليلة أضيافك، فاعمل على حسب ذلك". فقال لهم لوط: "قد أخبرتكم بأن قومي يفسقون ويأتون الذكران عليهم لعنة الله". فقال جبرائيل لميكائيل: "هذه ثانية"، ثم قال لهم

لوط: "انزلوا عن دوابكم ها هنا حتى يشتد الظلام ثم تدخلون ولا يشعر بكم أحد فإنّهم فاسقون عليهم لعنة الله". فقال جبرائيل لميكائيل: "هذه ثالثة".

ومضى لوط بين أيديهم حتى دخلوا إلى منزله فأغلق الباب، ثم دعا زوجته وقال لها: "يا هذه قد عصيت الله أربعين سنة وهؤلاء أضيافي قد ملأوا قلبي خوفاً فاكتمي على أمرهم في هذه الليلة حتى أغفر لك ما مضى". قالت: "نعم".

وقبلُ كانت خيانة امرأة نوح أنه كان إذا ضربوه تقول: "لا تضربوه فإنه مجنون". وامرأة لوط كانت إذا جاءه ضيف نهاراً دخّنت وإذا جاءه ليلاً سرجت ليعلموا أنّ عنده ضيفًا. فهذه كانت غبانتهما، لأن الله – سبحانه وتعالى – كثيراً ما كان يبتلي أنبياءه بالنساء الفواجر.

فلمّا كانت هذه الليلة خرجت وبيدها سراج لتعلقه. فطافت على عدة من القوم وأخبرتهم بحال مضيفيهم وحسنهم. فعلم لوط بذلك وأغلق الباب وأوثقه. وأقبل الفسّاق حتى وقفوا على باب داره فقرعوه. وذلك قوله تعالى: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} (هود 78).

فناداهم لوط: "هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، (يعني لا تفضحوني في ضيفي) أليس فيكم رجل رشيد يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر؟"، قالوا: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} (هود 79)، (يعنون عملهم الخبيث). ثمّ كسروا الباب ودخلوا وقالوا له: "ألم ننهك عن العالمين؟ (يعني عن الناس أجمعين)". فوقف لوط على الباب الذي فيه الضيوف وقال: "لا أسلّم ضيفي إليكم دون أن تذهب روحي أو لا أقدر عليكم". فتقدّم بعضهم، ولطم وجهه، وأخذ بلحيته ودفعه عن الباب. فعند ذلك قال: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} (هود 80). وقال: "إلهي وسيدي خذ لي بحقي من قومي والعنهم لعناً كثيراً".

فقال جبرائيل لميكائيل عند ذلك: "هذه الرابعة". ووثب جبرائيل وقال للوط: "افتح الباب إنّا رسل ربك فلن يصلوا إليك". فهجم القوم عليه وهم يقولون: "ألم ننهك عن العالمين؟ أي أن تأوي ضيفاً". رأوا جمال الملائكة وحسنهم فبادروا نحوهم، فطمس الله على أعينهم فإذا هم عمي لا يبصرون، وصارت وجوههم كأنها الغار، وجعلوا يدورون ووجوههم تضرب الحيطان. وعلى الباب قوم آخرون يقولون: "إن كان قد قضيتم شهوتكم اخرجوا حتى ندخل"، فقالوا: "يا قوم إنّ لوطاً قد سحر أعيننا فادخلوا خذوا بأيدينا"، فدخلوا وأخذوا بأيديهم وقالوا: "يا لوط إذا أصبحنا أريناك".

فسكت لوط عنهم حتى خرجوا، ثم قال للملائكة: "بمَ أرسلتم؟". فأخبَروه أنّ العذاب واقعٌ بقومه. فقال: "متى؟"، قالوا: "الصبح"، كما قال الله – عزّ وجلّ –:

{إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} (هود 81). ثم قال له جبرائيل: "انتقل عنهم". فأخذ لوط أهله وأولاده وما يعزّ عليه وانتقل عنهم، فما كان إلّا الصبح حتى نزل عليهم العذاب فهلكوا جميعاً.

عودة يعقوب حيلة الملائكة مع يعقوب – عليه السلام –.

ذلك أنّ يعقوب – عليه السلام – لمّا اجتمع مع يوسف – عليه السلام – في مصر بعد أربعين سنة من فراقه أقام عنده مدة. فلمّا أراد الله – عزّ وجلّ – قبضه في بيت المقدّس ألهمه الزيارة لقبور آبائه إسحاق وإبراهيم. فقال ليوسف: "أريد أن أمضي لزيارة قبور آبائي إسحاق وإبراهيم". قال له يوسف: "الأمر لله ولك". فتجهز يعقوب وأتى إلى المقدس.

فلمّا وصل المقدس رأى جماعة من الملائكة يحفرون قبراً. وقف يعقوب – عليه السلام – عليهم ورأى ذلك القبر وقد فُرِش بأنواع الفرش. فقال لهم يعقوب: "لمن هذا القبر؟"، قالوا: "لعبد كريم على ربه"، قال: "ومَن أنتم؟"، قالوا: "نحن ملائكة ربنا". نظر يعقوب إلى القبر، فرأى فيه أقواماً حساناً على أمثال المنابر جلوسًا هناك. فقال يعقوب: "من هؤلاء الذين على المنابر؟"، قالوا: "أولاد الخليل إبراهيم". فهمّ يعقوب أن يدخل إليهم ويسلّم عليهم. فقالت له الملائكة: "إنّ هؤلاء لا يدخل إليهم إلّا مَن يشرب هذا الكأس"، فقال يعقوب: "هلمّوا به لأشربه"، فناولوه الكأس، أخذه منهم وشربه. فما هو إلّا أن أتى على آخره حتى خرّ ميتاً – عليه السلام –.

فغسّلته الملائكة، وكفنته بأثواب من الجنة، وصلَّى عليه الملائكة مع من حضره من أولاده، ودُفِن إلى جانب قبر أبيه إسحاق – عليهما السلام –.

قبض موسى حيلة ملك الموت على موسى – عليه السلام –.

لمّا أراد الله قبض موسى – عليه السلام – نزل إليه ملك الموت، فسلّم عليه، ردّ عليه موسى السلام وقال له: "مَن أنت أيّها الشخص الذي لم أرَك قبل يومي هذا؟"، قال: "أنا ملك الموت، جئت لأقبض روحك". قال له موسى: "من أين تقبض روحي؟"، قال: "من فيك"، قال موسى: "فقد خاطبت به ربي"، قال: "من عينيك"، قال: "نظرت بهما نور ربي"، قال: "من أذنيك"، قال: "سمعت بهما كلام ربي"، قال: "من يديك"، قال: "قد تناولت بهما ألواح التوراة"، قال: "فمن رجليك"، قال: "قد وقفت بهما في مناجاة ربي". قال ملك الموت: "أظنك يا موسى شربت الخمر لأنك تكلمني كلام سكران". فغضب موسى وقال: "إذن استنكهني فانظر هل شربت خمراً". ثم دنا منه ملك الموت فتنفس موسى وقبض روحه، وغسلته الملائكة وكفنوه وصلّوا عليه ودفنوه.

فصل في حِيَل الجنّ حسد إبليس حيلة إبليس لعنه الله مع آدم – عليه السلام –.

ذلك أنّ الله عزّ وجلّ لمّا زوّج آدم بحواء – عليهما السلام– قال له: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} (البقرة 35).

وكان إبليس قد مُنع من الدخول إلى الجنة لمّا امتنع من السجود لآدم، وبقي آدم في الجنة وحواء عنده.

حسده إبليس، وقد كان لا يُمنع من الصعود إلى السماوات إلّا الجنة وحدها لا يدخلها. فأتى إلى السماء السابعة وأراد أن يدخل الجنة، فلم تمكّنه الخزنة. فأتى الحية، وكانت من أحسن الدواب، لها أربع قوائم كقوائم البعير، وكانت من ظئران الجنة وصديقة إبليس، فسألها أن تُدخله الجنة في فمها فأدخلته ومرت به على خزنة الجنة وهم لا يعلمون.

لمّا دخل آدم الجنة ورأى ما فيها من الكرامة والنعمة قال: "لو أنّ هذا خالد". فاغتنم إبليس ذلك منه وأراه من قبل الخلد. لمّا دخل الجنة وقف بين يدي آدم وحواء وهما لا يعلمان أنّه إبليس، فناح عليهما بناحية أحزنتهما وبكى. فقالا: "ما يبكيك؟"، قال: "أبكي عليكما كيف تموتان وتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة"، فوقع ذلك في أنفسهما واغتمّا.

ومضى إبليس، ثم أتاهما بعد ذلك وقال: {يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} (طه 120). فأبيا أن يقبلا منه، وقاسمهما أنه لهما من الناصحين، فاغترّا به، وقالا: "لا يحلف أحد بالله كاذباً". فبادرت حوّاء إلى الشجرة، أكلت منها ثم ناولت آدم فأكل.

وقيل إنّ إبليس سقاهما الخمر حتى أخذت منهما، فأخذت حوّاء بيده وأتت به إلى الشجرة، أكل منها فبدت لهما سوءاتهما، وأُخرجا من الجنة. هبط آدم بسرنديب وحواء بجده وإبليس بالإبله والحية بأصفهان.

أول جريمة قتل حيلة إبليس على قابيل حتى قتل هابيل وكيف علّمه القتل.

ذلك لمّا نفذ القضاء بقتله لم يدرِ كيف يقتله وبقي متحيّراً. فجاءه إبليس ومعه طير كبير، فتركه حتى نام وقام إبليس، فأخذ حجراً وشدخ به رأس الطائر فمات.

فتعلّم قابيل قتل هابيل، ولقي هابيل وهو نائم في خيمته، أخذ حجراً وشدخ به رأسه فمات، وكان عمره يوم قتله عشرين.

لما قتله ذهب طريداً شريداً، وهام لا يدري أين يقيم، ولا يأمن من سواه بَيد أخته إقليما. وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن. فأتاه إبليس وقال له: "أتدري لِمَ أكلت النار قربان قابيل؟"، قال له: "لِمَ؟"، قال: "لأنه كان يعبدها بغير علم أبيك، فلذلك أكلت قربانه وتركت قربانك، فاعبدها أنت وقد أعطيتك ما تريد". وما زال يتحدث معه حتى عبد النار واتخذ لها بيتاً، وهذا أوّل مَن عبد النار.

إبليس في سفينة نوح حيلة إبليس مع نوح – عليه السلام – ذكرها عامر الشعبي وأيوب ابن القرية في كتابهما المعروف ب سير العجم .

إنّ نوحاً لمّا طاف الماء وفار التنّور وأمره الله تعالى أن يأخذ معه في السفينة من كل زوج اثنين، أخذ من كل الحيوان حتى بقي الحمار والحمارة، فصعدت الحمارة.

وأتى إبليس فلزم بذنب الحمار، وامتنع من الدخول إلى السفينة. أعيا نوح وقال: "اصعد يا شيطان". فصعد هو وإبليس لأنّ إبليس ما كان يقدر أن يصعد السفينة إلّا بأمر نوح. مسك بذنب الحمار حتى يقول له نوح: "اصعد يا شيطان". فلما صار في السفينة رآه نوح وقال: "ويلك يا ملعون من أدخلك سفينتي"، قال: "أنت أمرتني بالدخول وليس لك عليّ سبيل لأني من المنظرين". وانقضت الجن والشياطين ما بين السماء والأرض أربعين يوماً حتى فرغ الطوفان.

أصل الأكراد حيلة إبليس على بيوراسب وهو الضحّاك.

قال عامر الشعبي في كتابه المقدّم ذكره أنّ الضحّاك بن علوان بن عصليق بن عوج بن عاد هو الذي سمّته العجم بيوراسب، وهو الذي بنى بابل. كان قد ولّاه سام على طائفة من أولاده، وأعطاه أرض بابل فبقي مدة. ولمّا مات سام عقبه الضحّاك على أولاد سام ونصّب نفسه لذلك. عتا وتمرّد، وهو أول من أظهر الصلب والقتل. كان قد بنى بابل وسمّاها جرفًا، وكان الذي علّمه الصلب والقتل إبليس بحيلة عملها عليه.

وذلك أنه دخل عليه يوماً في صورة طبّاخ وقال له: "أيّها الملك، أنا رجل طبّاخ أجيد عمل الأطعمة الطيّبة ما لا يعرف أحد من قومك مثلها"، فولّاه على مطبخه.

وكان الناس قبل ذلك لا يأكلون اللحم، وأول ما اتخذ له طعاماً من البيض فأكله واستطابه. وقال: "تقدر تصنع شيئاً أطيب منه؟"، قال: "نعم، ما يخرج هذا منه"، قال: "فدونك". فذبح في اليوم الثاني الدجاج واتخذ له منه طعاماً طيّباً، فلمّا أكله استطابه، ثم ذبح له في اليوم الثالث الغنم، وفي الرابع البقر، وفي الخامس الجزور. وأراد أن يجعل ذلك ذريعة إلى التجرّؤ على قتل الناس وسفك الدماء.

وكان يأخذ الشاة ويصلبها بحلقها إلى أن تموت وينضجها ويطعمه إيّاها. ولمّا رآه قد هان عليه ذلك، نصب له الحيلة لقتل الناس، فطبخ لها طبيخاً استطابه عليه الطيبة. خلع عليه وأعطاه وسناه، وقال له: "أريد أن أقبّل منكبَيْ الملك". فأذن له، وقبّل منكبه، فخرج موضع قبلته سلعتان نابئتان عظيمتان كهيئة الحيتين، لهما أفواه وعيون. فلما رآهما الضحّاك علم أنّه إبليس، وقال له وقد ولى عنه: "ما غذاء هاتين الحيتين يا ملعون؟". فالتفت إليه إبليس وقال: "أدمغة الناس"، وغاب عنه فلم يره.

أمر الضحّاك وزيره أن يذبح له كل يوم أربعة رجال جسام سمان، يستخرج أدمغتهم ويأتيه بها ليغذي بذلك الحيات. ومكث على ذلك زماناً طويلاً، فمات الوزير، وجعل على وزارته رجلاً من ولد أرفخشد، يسمّى أرمابيل، له رقة ورحمة. فكان يؤتى كل يوم بأربعة رجال سمان قد كُتبت أسماؤهم، فيأمر بذبح رجلين منهم، ويستخرج دماغيهما، ويضيف إليهما دماغي كبشين، ويدخل بذلك إلى الضحّاك ليغذّي به الحيّات ويستبقي الرجلين. ثم يأمر أصحابه بكردهما إلى الجبل فبقوا إلى أن هلك الضحّاك، وصار الذين قد سكنوا الجبل من أصل الأكراد إلى يومنا هذا.

اختراع المنجنيق حيلة مع إبراهيم – عليه السلام – وعمله للمنجنيق.

ذلك أنّ النمرود لمّا أراد إحراق إبراهيم الخليل – عليه السلام – جمع له حطباً عظيماً، وحفر له حُفرة عظيمة، وطرح عليها النفط، وضربوا فيه النار، فعقد لهبها إلى السماء. وكان الطير إذا مرّ بها سقط من شدّة لهبها. ثمّ أرادوا أن يطرحوا إبراهيم – عليه السلام – فلم يقدروا على ذلك لشدّة لهب النار، فبقوا حيارى.

وبينما هم كذلك إذ أقبل إبليس في صورة شيخ نجّار على كتفه فأس، قال لهم: "ما لكم حيارى؟". فقصّوا عليه القضية، قال: "إني متخذٌ لكم منجنيقاً ترمون به إلى النار". ولم يكن يُعرف قبل ذلك اليوم، فقالوا: "وما هيئته؟". فخطّ لهم على التراب مثاله، فقالوا: "افعل". صنع لهم المنجنيق وأراهم كيف يرمون به، فحاروا لما رأوه وأوثقوا إبراهيم ووضعوه في الكفة ورموا به إلى النار.

اللواط حيلته على قوم لوط حتى علّمهم اللواط.

ذلك أنه كان قوم لوط بستانيين، وكان لهم بساتين كثيرة، وكان الجهلة يأتون فيجنون ثمراتها بغير إذن أصحابها. شكوا ذلك إلى بعضهم بعضاً، فأتى إليهم إبليس وقال: "كل من دخل إلى بستان ما هو له ولا له فيه حكم فألزموه أعتجره"، وقد انتهوا عن ذلك. ثم أخذ شيطانة في زي صبي، ودخل إلى بعض البساتين، وجعل يستعملها. فرآه الناطور المسؤول عن البستان وأنكر عليه، فقال له: "إنه جنى ثمرة البستان". ثم أخذه ومضى إلى بستان آخر في صورة شيخ وعمل كعمله الأول. فأنكر عليه فأخذه ومضى، واجتمع الناس على حديثه ووافقوه على ذلك، واستمروا عليه حتى لم يفلتوا أحداً.

الزنى حيلة إبليس في تعليم الزنى.

ذلك أنّ بطنين من ولد آدم – عليه السلام – كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء أهل السهل صباحاً وفي الرجال دمامة.

ثم إن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجره نفسه يتخدّمه، واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي تزمر فيه الرعاةُ، وجاء له صوت لم يسمع مثله. فبلغ ذلك من حوله، وجاؤوه يسمعون الصوت، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة مرتين، يتزيّن النساء للرجال والرجال للنساء.

وإنّ رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أهله وأخبرهم بصباحة نساء السهل، فتحوّلوا إليهم ونزلوا معهم. فزيَّن لهم إبليس الفواحش، وحسّن لهم القبيح، ووسوس في صدور النساء حتى كثرت فيهم الفاحشة والفساق.

السحق حيلة إبليس على أهل الرس حتى علّم نساءهم السحق.

قال وهب بن منبه: إن أصحاب الرس بحضرموت، وقد ذكرنا أنهم بنوا مدينة طولها أربعون ميلاً في مثلها، وكانوا قد احتفروا قناةً سمّوها رسّاً، وكانوا من إعجابهم بها وبالقنوات والأشجار والثمار ينتسبون إليها، وأداموا يعبدون الله دهراً طويلاً حق عبادته.

ثمّ إنهم تغيّروا، فكان ممّا أحدثوا في قومهم عبادة الأصنام، وإتيان الرجال والنساء من أدبارهم. فكانوا يتبادلون النساء، فيبعث هذا زوجته إلى هذا، وهذا يبعث زوجته إلى هذا، فشقّ ذلك على النساء واجتمعنَ على باب المدينة يتحدثنَ بذلك ويتعوّذن منه.

إذ أقبل إبليس في صورة امرأة جميلة وجلس بينهن، فقلنَ لها: "من أنتِ أيتها المرأة التي لم نرها قبل هذا اليوم؟". فذكر إبليس أنّه امرأة فلان بن فلان من قرية كذا وكذا، وأنها قد جاءت إلى المدينة لأن زوجها يريد منها من دبرها، وأنها لا تريد ذلك، وذكرت أنها كانت لها امرأة تتعاشقان وتجتمعان على السحق، وأنها ماتت ولا تجد امرأة بدلها. فتعجبت أولئك النسوة من حديث إبليس وقلنَ لها: "كيف السحق؟"، فما زال إبليس يعلّمهن حتى فعلنه فرأين له لذةً عظيمة، واشتغلنَ به عن الرجال، وما زلنَ على ذلك حتى أبادهنّ الله تعالى جميعاً.

الكفيل حيلة إبليس على ذي الكفل – عليه السلام –.

روى الأعمش عن البنهال بن عمر عن عبد الله بن الحارث أنّ إيليا لمّا حضرته الوفاة قال: "من يكفل لي ثلاثاً كان خليفتي: يصوم النهار ويقوم الليل ويقضي بين الناس بالحق". فقام إليه شاب وقال: "أنا"، قال له: "اجلس"، ثمّ أعاد القول فنهض إليه الشاب فقال له: "اقعد"، ثمّ أعاد القول فقام إليه الشاب، فقال له:

"تصوم النهار وتقوم الليل وتقضي بين الناس بالحقّ؟"، قال: "نعم"، قال: "أنت خليفتي".

فلمّا مات إيليا – عليه السلام – جلس ذلك الشاب، فحكم بين الناس بالحقّ. كان لا يغضب ويقوم الليل ويصوم النهار ولا ينام إلّا في القيلولة. فجعل إبليس يسلّط عليه شيطاناً بعد شيطان، ولا يقدر عليه إلى أن أعياهم جميعهم.

فقال إبليس: "أنا له". وجاء وقت القائلة فدقّ عليه الباب، قال: "من هذا؟"، قال: "شيخ كبير مظلوم"، فقام إليه وفتح الباب ليقضي له أو عليه. فقال له: "إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وصنعوا"، وطوّل في القول حتى ذهبت القيلولة وحضر وقت القضاء. فقال له: "إذا رحت فأتني بهم لآخذ لك بحقّك". فانطلق إبليس وراح الشاب إلى مجلسه وانتظر الشيخ، فلم يرَه، ولمّا كان من الغد جلس يقضي بين الناس فلم يرَه. ولمّا انقضى مجلسه ومضى إلى بيته لينام القيلولة وقد أخذ مرقده، دقّ إبليس الباب. فقال له: "من؟"، قال: "الشيخ المظلوم"، ففتح الباب وقال: "انتظرتك البارحة واليوم فلم أرَك". قال: "خصماء أخباث، إذا عرفوا أنك جالس يقولون نعطيك،

فإذا قمت جحدوني". قال: "فإذا جلست فأحضرهم لآخذ لك بحقّك منهم". فلم يزل إبليس يطول حتى فاتته القيلولة. راح إلى المسجد وجعل يترصد الشيخ فلم يرَه، وشقّ ذلك عليه وانتظره الغد فلم يرَه.

فقال لبعض أهله: "لا تدعنَ أحداً يقرب الباب حتى أنام، فإنّ السهر قد شقّ عليّ". ولمّا كان وقت القيلولة جاء إبليس، فلم يؤذن له ومنعه البوّاب. فلمّا أعياه الدخول عبر من روزنة في الحائط، فإذا هو في البيت واستغاث: "شيخ مظلوم". فاستيقظ ذو الكفل وقال للبوّاب: "ما قلت لك لا تفتح الباب لأحد ولا تدع أحداً يدخل"، فقال: "والله الباب مغلق كما غلقته أنت". قال: "فمن أين دخل؟"، قال: "والله ما أعلم".

فقال له: "يا شيخ تنام والخصم ببابك"، فعرفه ذو الكفل وقال: "يا عدو الله أنت هو"، قال: "نعم، أعييتني في كل شيء احتلت عليك فلم أقدر"، وتركه وانصرف.

إغواء الزاهد حُكِي أنه كان في بني إسرائيل رجل زاهد عبد الله مئتي سنة، وهو يطلب من الله – عزّ وجلّ – إبليس لعلمه أنه لا سبيل له عليه. فرآه في المحراب قائماً عنده قال له: "من أنت؟"، قال: "أنا إبليس قد تعبت في بابك ولم أقدر عليك فواعجباً منك وقد بقي من عمرك مئتا سنة وأنت تجهد نفسك، فلو التذذت ببعضها وعبدت ببعضها لكان فيه كفاية". فقال الزاهد في نفسه: "أمضي آكل وأشرب وألتذّ مئة سنة ثم أرجع إلى عبادتي". ثم مضى وفارق مسجده، فأكل وشرب وفسق، ومات في تلك الليلة.

شهوة الثروة حكى الثعلبي في كتابه كشف البيان يقول: تبدّى إبليس لقارون، وكان قارون قد أقام في رأس جبل يعبد الله أربعين سنة حتى غلب بني إسرائيل في العبادة. وبعث إبليس شياطينه فلم يقدروا عليه. تصدّى هو له بنفسه وجعل يتعبّد معه، فكان إبليس يقهر قارون في العبادة فخشع له قارون.

فقال له إبليس: "يا قارون قد رضينا بهذا الذي نحن فيه، لا نشهد لبني إسرائيل جماعة، ولا نعود لهم مريضاً، ولا نزور لهم عابداً، ولا نشيّع لهم جنازة".

فانحدرا من الجبل إلى البيعة، فكانا يؤتيان بالطعام، قال إبليس: "يا قارون قد رضينا أن نكون آكلَي على بني إسرائيل"، فقال له قارون: "أي شيء عندك من الرأي؟"، قال: "نكتسب يوم الجمعة ونتعبد بقية الأسبوع"، فتكسّبا يوم الجمعة وتعبّدا بقية الأسبوع.

ثم قال إبليس لقارون: "قد رضينا أن نكون هكذا"، قال قارون: "أي شيء عندك من الرأي؟"، قال: "نكتسب يوماً ونعبد يوماً ونتصدّق". فلمّا تكسّبا يوماً وتعبّدا يوماً تخبَّس إبليس وتركه.

وفتحت على قارون الدنيا وبلغ ما بلغ، فطغى وتجبّر، فخسف الله به وبماله الأرض.

حيلته مع برصيص العابد ذكر وهب بن منبه أن عابداً كان في بني إسرائيل يُدعى برصيص العابد، وكان أعبد أهل زمانه. كان في زمانه ثلاثة إخوة، ولهم أخت بكر أحسن أهل زمانها، وليس لهم غيرها. بعثهم أميرهم في شغل له، لم يدروا عند من يخلفون أختهم، ولا مَن يأمنون عليها، ولا عند مَن يضعونها.

فاجتمع رأيهم أن يضعوها عند برصيص العابد، وكان ثقة في أنفسهم. أتوه وسألوه أن يخلفوها عنده، فأبى ذلك وتعوّذ بالله منهم ومن أختهم، فلم يزالوا به حتى أجابهم وقال: "أنزلوها في بيت جوار صومعتي"، فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها.

كانت في جوار برصيص أياماً، ينزل إليها الطعام من صومعته، فيضعه عند باب بيتها ثم يغلق بابه، ويصعد إلى موضعه، فتخرج من بيتها تأخذ ما وضع لها من الطعام.

لطّف له إبليس ولم يزل يرغّبه في الخير ويعظّم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوّفه أن يراها أحد فيعلقها حتى مشى بطعامها وناولها من يده إلى يدها.

ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير والأجر وقال له: "لو كنت تدخل إليها بطعامها حتى تضعه بين يديها كان أعظم لأجرك"، فبقي كذلك أياماً.

ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وقال له: "لو كنت تكلّمها وتحدّثها لتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة". ولم يزل به حتى صار يجلس معها ويحدّثها.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك وقال له: "لو بِتّ عندها لكان أحبّ إليها"، فلم يزل به حتى بات عندها. فلمّا بات عندها زيّنها له حتى ضرب الزاهد يده على فخذها وقبّلها. ولم يزل إبليس يحسّنها في عينه ويقول له حتى وقع عليها فأحبلها، فولدت له غلاماً.

جاءه إبليس وقال له: "أرأيت إن جاء إخوتها وقد ولدت منك غلاماً كيف تصنع؟ ولا آمن عليك أن تفتضح. فاعمد إلى ابنها فاذبحه، فإنها تكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطّلعوا على ما صنعت بها". فاحتفر خلف باب بيتها حفيرة، وذبح الطفل ودفعه فيها، ثم تركه أياماً. بعدها جاءه وقال: "هبها كتمت الناس ما فعلت بها وقتلك لولدها، أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها؟ فاذبحها وادفنها مع ابنها، وقل ماتت بعدكم بأيام". فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفيرة مع ابنها، وأجلس عليها صخرة عظيمة، وسوّى عليها التراب، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها.

مكث فيها كذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى أتى إخوتها فجاؤوه وسألوه عنها فنعاها إليهم وترحّم عليها وبكى وقال: "كانت خيرة مباركة وهذا قبرها فانظروا إليه"، فأقاموا على قبرها ثلاثة أيام ثم انصرفوا إلى أهلهم.

فلما جنّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم أتاهم إبليس في النوم، وبدأ بأكبرهم وسأله عن أخته، فأخبره بقول الزاهد وموتها. فكذّبه وقال: "لم يصدق ولكنه أحبلها وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم، ودفنها في حفيرة خلف باب البيت التي كانت فيه عن يمين الباب للداخل، فانبش إنك تجدها هناك"، ثم أتى الثاني والثالث.

ولمّا استيقظ القوم من نومهم تعجّبوا من المنام الذي رأوه، وقصّ كل واحد منهم مثل منام صاحبه. وأقبل بعضهم على بعض يقول: "لقد رأيت الليلة عجباً"، قال كبيرهم: "هذا ليس شيئاً، فامضوا بنا ودعوا هذا". وقال صغيرهم: "لا أمضي حتى آتي ذلك المكان وأنظر ما فيه". فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم. فتحوا الباب، وحفروا الموضع الذي ذكره لهم إبليس، فوجدوا أختهم وولدها مذبوحيْن كما قيل لهم. فسألوا عنها العابد فذكر أمره معها، وأعلموا ملكهم بذلك، وأمر بصلبه.

ولمّا أوقفوه عند الخشبة أتاه إبليس وقال له: "قد علمت أنك تصلب فأطعني حتى أخلصك من الصلب والفضيحة، فإذا لم تصلب لم يصدق فيك قول الناس".

قال له: "ماذا تريد حتى أطيعك فيه؟"، قال: "تكفر بالله الذي لا إله إلّا هو"، فكفر العابد بالله. ولمّا كفر تركه إبليس ومضى، فصلبوه. وهو الذي أنزل فيه الله تبارك وتعالى الآية: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ} (الحشر 16).

خاتم سليمان المسروق من حيل الجن.

إنّ سليمان بن داوود – عليهما السلام – كان إذا أراد الدخول إلى الخلاء ينزع خاتمه من إصبعه، ويسلّمه إلى بعض نسائه. فإذا خرج دعا بالوضوء، وإذا توضّأ دعا بالخاتم. فكان يفعل هذا كراهة بسبب الاسم الذي على الخاتم، لأنه كان اسم الله الأعظم.

وإنّ بعض مردة الشياطين كان ممّن آمن بسليمان وأسلم على يده. فتمثّل على صورة سليمان – عليه السلام –. ولمّا دخل سليمان بيت الخلاء دخل المارد معه ثم خرج قبله ودعا بالوضوء، كما كان يفعل سليمان. ولمّا فرغ، قال للمرأة: "هاتي الخاتم"، فناولته إيّاه ووضعه في إصبعه. ثم انطلق وجلس على كرسي سليمان، والناس لا يشكّون أنّه سليمان. وعكف الطير والوحش بين يديه والناس حوله.

وإنّ سليمان لمّا طلع من الخلاء وتوضّأ وطلب الخاتم قالت المرأة: "ألم أدفعه إليك؟". فعلم سليمان أنه قد أتى، فخرج طالباً كرسيه فرأى عليه الشيطان. فولّى هارباً في البراري والقفار أربعين يوماً، وقيل أربعة أشهر حتى رحمه الله تعالى وردّ عليه خاتمه.

مشروع زواج حيلة الجن على سليمان وبلقيس.

يُحكى في تاريخ العجم أن بلقيس لما قدمت على سليمان، وهمّ أن يتزوجها قالت الجن: "إن تزوج سليمان ببلقيس لا نأمن أن تطلعه على سرائرنا وتخبره بأمورنا فيملكنا ولدهما إلى يوم القيامة، لأنها كانت ابنة ملك من ملوكهم، فاعملوا في تزهيد سليمان فيها".

قال رؤساؤهم: "سنحتال في ذلك". ثم أتوا سليمان وقالوا له: "يا نبي الله، قد سمعنا أنك تريد الزواج ببلقيس. فلا تردّها، فإن أمها كانت إنسية. ولن تلد قط إنسية من جن، إلّا جاء الولد ورجلاه رجلا حمار، وعليه شعر كثير". فنقصت في عين سليمان واشمأزّ قلبه منها وبان ذلك عليه.

قال له صخر العفريت: "ما لي أراك يا نبي الله مهموماً؟"، فقص عليه ما قالت الجن من أجل بلقيس. قال له: "يكذبون وأنا أريك ذلك عياناً". وإنّ صخراً اتخذ أمام مجلسه صرحاً من قوارير وهي الزجاج، وعمل تحته ماءً وسمكاً.

فلمّا أقبلت بلقيس نحو مجلس سليمان رأت الصرح، ولم يكن طريق إلى سليمان إلّا في وسطه. فخلعت خفّها ورفعت ثوبها كي تغوص في الماء، فنظر سليمان إلى قدميها فلم يجد شيئاً أحسن منهما، ونظر إلى ساقيها فإذا عليهما شعر كزرد الدرع يبين على بياض ساقها.

فلمّا نظرها قال: "ضعي ثوبك فإنه صرح مجرد"، فعبرت عليه. وقالت: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (النمل 44).

وأقبلت حتى جلست على كرسي بين يدي سليمان – عليه السلام –، وأسلمت على يده، وحسُن إسلامها.

وأراد سليمان أن يتزوجها، فكره لمّا رأى الشعر على ساقها، ففهمت بلقيس ذلك وقالت: "الرمانة لا يُدرَى ما طعمها حتى تُكسر يا نبي الله". فقال سليمان: "ما لا يحلو في العين ما يحلو في القلب". قال له صخر: "أنا أحتال لك في إزالة الشعر حتى يبقى ساقاها كالفضة بياضاً". قال له سليمان: "أن افعل". ففعل النُوَرة والزرنيخ فاستعملته وخرجت بيضاء نقية.

وهو أول من اخترع هذا. وأمّا الحمامات فكانت قبل هذا بزمان، عملت في زمان حمير بن بونحمان بن أرقخشذ بن سام بن نوح – عليه السلام – الذي سُخِّر له الجن والشياطين، وهو تسخر له الطير والريح.

كتب السحر حيلة الجن على سليمان – عليه السلام –.

قال الثعلبي – رحمه الله تعالى – في تفسير قوله – عزّ وجلّ –: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آَتِيكَ بِهِ} (النمل 40)، يعني عرش بلقيس. وذلك أن آصف لما أتى بعرش بلقيس نظرت الجن إلى أفعاله، فكتبت كتب السحر والعزائم والنارنجيات على لسان آصف بن برخيا لسليمان الملك. ثم دفنوها في موضع كان مصلّى. فلمّا نزع الله عزّ وجلّ ملكه، لم يشعر بذلك سليمان. ولمّا مات

سليمان – عليه السلام – استخرجوا ذلك وقالوا للناس: "إنما ملكهم سليمان بهذا فتعلمه الناس من ذلك الزمان".

وفيه قال الله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} (البقرة 102)، وذلك أنّ الشياطين كانت تصعد إلى السماء وتقعد فيها مقاعد السمع، فيسمعون كلام الملائكة بما يكون في الأرض فيخبرون به الكهنة. اكتسب الناس ذلك في حياة سليمان – عليه السلام –. وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان – عليه السلام – وجمع تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنها تحت كرسيه وقال: "ما أسمع أحداً يقول إن الجن تعلم الغيب، إلّا ضربت عنقه". فلمّا مات سليمان وذهب العلماء الذين يعرفون أمر سليمان ودفنه للكتب كما قال الله تعالى: تمثّل شيطان في صورة إنسان، وأتى بني إسرائيل وقال لهم:

"أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟". فقالوا: "نعم"، قال: "احفروا تحت كرسي سليمان"، وأراهم المكان الذي يحفرونه، وجلس عنهم ناحية فقالوا: "ادنُ". قال:

"لا، ولكن أحضروها هنا وإن لم تجدوا شيئاً (مهماً)"، وذلك أنه لم يكن أحد يدنو من كرسي سليمان من الشياطين والجن إلّا احترق.

ولمّا حفروا وجدوا تلك الكتب، فقال لهم الشيطان: "إنّ سليمان كان يستخدم الجن والإنس والطير والوحش والريح بهذه الكتب". ثم طار وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، وملكها بنو إسرائيل، وتعلّموا منها السحر وهم سحرة فرعون، فلذلك لا يوجد السحر إلّا عندهم.

ضراوة إبليس حيلة إبليس على أيوب – عليه السلام –.

قال وهب بن منبه: لمّا نظر إبليس إلى أيوب وكثرة أمواله ورجله وما أعطاه الله صعد إلى السماء ووقف موقفاً كان يقف فيه. ثم قال: "إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته قد أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولم تجربه بشدة ولا ببلاء، وأنا لك زعيم إن ضربته بالبلاء ليكفرنّ بك وينساك"، فقال له: "انطلق فقد سلّطتك على ماله".

فانقضّ عدو الله حتى وقع إلى الأرض. ثم جمع عفاريت الجن والشياطين وعظماءهم، وقال لهم: "ما عندكم من القوة والمعرفة فإني قد مُلِّكت على مال أيوب، وهي المصيبة القادحة والفتنة التي لا تصبر الرجال عليها".

قال عفريت من الجن: "عندي من القوة ما إذا شئت حولت إعصاراً من نار فأحرق كل شيء أراه عليه". فقال إبليس: "أنت للإبل ورعاتها". وانطلق نحو الإبل وذلك حين وضعت رؤوسها في مراعيها، فلم تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار نار ينفخ منها أرواح السموم، ولا يدنو منها أحد إلّا احترق، فلم تزل تحرق الإبل ورعاتها حتى أتت على آخرها.

فلمّا فرغ منها أتى إبليس وأخبره. وتمثل إبليس على شكل منوّص، ثم انطلق ليؤمّ أيوب فوجده قائماً يصلّي. فناداه: "يا أيوب"، قال: "لبيك"، قال: "تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته بإبلك ورعاتها؟"، قال أيوب: "إنها ماله أعارنيه وهو أولى به"، قال إبليس: "إن ربك أرسل عليها ناراً من السماء فأحرقتها ورعاتها كلها. فتركت الناس مبهوتين ووقفوا عليها متعجبين". فقال أيوب: "الحمد لله عرياناً خلقني وعرياناً أعود إلى التراب".

فرجع إبليس وأصحابه خاسرين أذلّاء، وقال لهم: "ما عندكم من القوة فإني لم أكلِم قلبه"، قال عفريت من عظمائهم: "عندي من القوة ما إذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلّا خرجت روحه". قال إبليس: "فأت الغنم ورعاتها". فانطلق إلى الغنم حتى إذا توسطها صاح صوتاً تجثمت أمواتاً جميعها ومات رعاتها.

ثم خرج إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة، وجاء أيوب وهو قائم يصلّي. فقال له القول الأول، وردّ عليه أيوب مثل الأول.

فرجع إبليس إلى أصحابه وقال لهم: "ما عندكم من القوة فإني لم أُكلِم قلبه". قال عفريت: "عندي من القوة ما إذا شئت تحوّلت عليه عاصفاً أشفِ كل شيء آتي عليه حتى لا أبقي شيئاً". قال له إبليس: "فأت الزرع والأكداس". فانطلق نحوها، وذلك حين قربت التذرية، فلم يشعروا حتى هبّت عليهم ريح عاصف شفت كل شيء، حتى كأنه لم يكن.

خرج إبليس متمثلاً بقهرمان الحرث فقال: "يا أيوب نزل البلاء بك واحترق جميع زرعك وغلالك"، وقد قال الناس: "ما كان أيوب يعبد شيئاً، وما هو إلّا في غرور"، ومنهم مَن قال: "لو كان إله أيوب يقدر على شيء لمنع عن وليّه"، ومنهم من يقول: "بل هو فعل ما فعل ليشمت به عدوه، ويفجع منه صديقه". قال أيوب: "الحمد لله على كل حال عرياناً خلقني وعرياناً أُحشر". فعاد إبليس مكبوحاً وأتى على مال أيوب فأهلكه جميعه. وكلما قال له من أجل شيء حمد الله وأثنى عليه ورضي بالقضاء، ووطّن نفسه للصبر على البلاء.

لما رأى إبليس أنّه قد أفنى جميع مال أيوب ولم يعمل معه شيئاً صعد سريعاً إلى السماء، حتى وقف موقفه الذي يقف فيه، وقال: "إلهي إنّ أيوب يرى أنك متعته بنفسه وولده، فهل أنت تسلّطني على ولده الفتنة المضلة والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم؟".

قال الله – تبارك وتعالى –: "انطلق فقد سلّطتك على ولده". فانقضّ عدو الله حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم. فلم يزل يزلزل بهم القصر حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح جدرانه بعضها بعضاً، ويرميهم بالخشب والجندل حتى مثل بهم كل مثلة، ورفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكبين.

انطلق إلى أيوب في صورة شيخ يعلم أولاده الحكم وهو مشدوخ الوجه، يسيل دمه ودماغه. فأخبره بذلك وقال: "يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا، وكيف هم منكبون على رؤوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أفواههم، ولو رأيت كيف شقّت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم لتقطّع قلبك". ولم يزل يقول هذا ويخبره ويرققه، حتى رقّ أيوب وبكى. وقبض على لحيته، وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه. فاغتنم إبليس ذلك وصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به. ثمّ لم يلبث أيوب أن ناء واستغفر الله، وصعد قرناؤه من الملائكة بصحيفته فوقفوا بين يديّ الله وهو أعلم.

فوقف إبليس حزيناً ذليلاً وقال: "يا إلهي إنما هوّن على أيوب خطر المال والولد. إنه يرى أنك متّعته على نفسه فأنت تعيد له المال والولد. فهل أنت تسلطني على جسده، فإني لك زعيم إن ابتليته في جسده لينسينّك وليكفرنّ بك ويجحدن نعمتك". فقال الله تعالى: "انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على قلبه ولسانه وعقله".

وكان الله أعلم به لم يسلطه عليه إلا رحمة له ليعظّم له الثواب وعبرة الصابرين. فانقضّ إبليس سريعاً، وجد أيوب ساجداً، فأتاه من قبل الأرض قبل أن يرفع رأسه، ونفخ في منخره استعل منها جسده من قرنه إلى قدمه. وصار جسده دماميل مثل ديوس المرأة. ووقعت فيه حكة لا يملكها، فحكّ بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكّ بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حك بالحجارة والفخار والخشب حتى أدماها.

ولم يزل يحكّها حتى نغل جسمه، وتقطع وتغير ونتن، حتى لا كان أحد يقدر أن يشم ريحته. فأخرجه أهل القرية من عندهم، وألقوه على مزبلة لهم، وجعلوا له عريشاً، ورفضه خلق الله كلهم غير رحمة امرأته وهي بنت إبراهيم بن يوسف الصديق – عليه السلام –. وبقي أيوب ثماني عشرة سنة مبتلياً، منها سبع سنين وأشهر على مزبلة يختلف فيه الدود، ومع ذلك لا يفتر من ذكر الله والثناء عليه والحمد له.

فلما رأى إبليس ذلك صرخ صرخة عظيمة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعاً من صبر أيوب. فلما اجتمعوا إليه قالوا له: "ما شأنك؟"، قال: "أعياني صبر هذا العبد الذي سألت ربي أن يسلّطني عليه وعلى ماله وولده، ولم يزدد بذلك إلّا صبراً وثناءً على الله تبارك وتعالى. وقد افتضحت مع ربي، واستعنت بكم فأعينوني عليه"، فقالوا له: "أين مكرك وعملك وحيلك التي احتلت بها على من مضى؟"، قال: "بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليّ"، قالوا: "أنشير عليك؟"، قال: "نعم"، قالوا: "أرأيت لما أخرجت آدم – عليه السلام – من الجنة من أين أتيته؟"، قال: "من قبل حواء"، قالوا: "فأتِ أيوب من قبل امرأته، فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد قربه غيرها"، قال: "أصبتم". فانطلق حتى أتى زوجة أيوب وهي تتصدق، فتمثل لها في صورة رجل وقال لها: "أين بعلك يا أمة الله؟"، قالت: "هو ذلك يحكّ قروحه ويتردد الدود في جسده". فلما سمع ذلك طمع فيها، فوسوس لها بما كانت فيه من النعم والمال، وذكّرها حال جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضرّ، وأن ذلك لا ينقطع عنه أبداً فصرخت وبكت. فلما صرخت علم أنها قد جزعت، فأتاها بسنجبة وقال: "قولي لأيوب يذبح هذه وقد برئ وعاد كما كان". فجاءت إلى أيوب وأخبرته بذلك

فعلم أنه إبليس. فعند ذلك قال: "ربِّ إني {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (الأنبياء 83)، أي قد بلغ المرض مني إلى أن أطمع إبليس فيّ".

وقيل إن زوجته دخلت تطلب له شيئاً فلم يطعمها أحد إلى قرب العصر، وتلف أيوب من الجوع. فتمثل لها إبليس في صورة امرأة، وقالت لها: "تبيعيني شعرك لبنتي يأكل أيوب". قالت لها: "إن أيوب إذا أراد القيام لحاجة يلزم بضفائري فلا أقدر أن أبيعها"، قالت: "فبيعيني واحدة". فباعتها واحدة بقرصين من شعير، فأخذته وطلبت به أيوب. وقد أبطأت عنه خلاف العادة وهو ينتظر قدومها. فسبقها إبليس إليه وقال: "يا أيوب إن امرأتك زنت بشيء تطعمك إياه وقد لزموها وقطعوا شعرها". فلما سمع أيوب ذلك كادت مرارته تنفطر ونادى: "ربِّ إني {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}، أي قد وصلت إلى حالتي هذه حتى تزني زوجتي بما أقتات به".

فلما أقبلت قال لها: "أريد أن أقوم لأمر"، فأبرزت له ضفيرة واحدة. قال لها أيوب: "وأين الضفيرة الأخرى؟"، قالت: "بعتها بهذين القرصين من الشعير لتقتات به"، فعندها نادى: "ربّ إنّي {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}". وقال: "والله لأضربنّك مئة جلدة لما سمع كلام إبليس". وقيل إن دودة وصلت إلى فؤاده فخشي أن يشتغل بوجعها عن ذكر الله – عزّ وجلّ – فقال: "ربّ إنّي {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}".

ضلال النصارى حيلة إبليس حتى أضلّ النصارى.

عن وهب بن منبه قال: جاء إبليس ومعه رجلان ذوا هيبة وجسارة، وعيسى – عليه السلام – يقول لبني إسرائيل: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (آل عمران 49)".

قال إبليس لأصحابه: "أقبلوا إلى عيسى فإذا كلمتكم فأجيبوني، فإني أتكلم كلاماً يكون فيه فتنة للناس". ولم يبين لأصحابه شيئاً مما يريد أن يقول، ولما سمع قول عيسى – عليه السلام – قال: "أعِدْ كلامك يا نبي الله". قال عيسى: "أيها الناس {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ}، إلى قوله:

{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}". فقال له إبليس: "أتخلق وتشفي من المرض وتحيي الموتى وتخبر بالغيب؟"، قال عيسى: "نعم".

فقال إبليس: "أيها الناس هذا الله، فانظروا إليه وإلى قدرته. وهل ينبغي لخلقه أن ينظروا إليه أو يسمعوا كلامه أو يقوموا لرؤيته، لكنه ابن الله وليس هو الله تعالى". ثم قال: "أليس هو كذلك؟". لإنّ أصحاب إبليس وغيرهم أيدوا، وآخرون قالوا: "من قال مثل ذلك فقد قال شططاً وخطأً، وقال قولاً عظيماً".

وردّ آخرون: "وهل ينبغي لله أن يتخذ صاحبة يكون له منها ولد؟".

وغيرهم قال: "وهل ينبغي لولد هو من الله أن تستقلّ به قوة امرأة ويسعه رحمها".

إله معه إله آخر ليس هو الله ولا ولد له.

وتفرّقوا على هذا القول، ونطق به الناس، وانقسموا ثلاثة أقسام؛ كل قسم يعتقد شيئاً.

اختراع المنشار حيلة إبليس مع زكريا – عليه السلام –.

ذلك أنّ زكريا هرب من يد الملك هيرودوس لما هرب ولده عندما بُشّر بولادة المسيح. أمر هيرودوس بقتل الأطفال، فخاف زكريا على يحيى وهرب به. طلبه الملك، فهرب من يده وأقام عليه الرصد. ولما ظفروا به هرب منهم والتجأ إلى شجرة فناداها: "يا شجرة واريني". فانشقت الشجرة ودخل فيها وانطبقت عليه.

أتى اليهود في إثره يطوفون عليه، فلقيهم إبليس في صورة رجل شيخ، قال لهم: "من تريدون وعلى من تطوفون؟"، قالوا: "على زكريا"، قال لهم: "إن زكريا دخل هذه الشجرة"، فقالوا: "كيف دخلها؟"، قال: "دخلها بسحره وهذا طرف ثوبه خارج منها". فإذا هم بطرف ثوبه، فلما حققوا ذلك، قالوا: "نحرق الشجرة ويحترق هو في جوفها"، قال بعضهم: "هذه شجرة خضراء لا تحترق"، وجعلوا يتشاورون في هلاك الشجرة ومن فيها. فقال إبليس: "أنا أصنع لكم شيئاً تقطعون به الشجرة ومن فيها"، قالوا: "اصنع ما أنت صانع". فصنع لهم المنشار، ولم يكن يُعرف، فشقوا الشجرة وزكريا فيها. وقعت قطعتين وزكريا قطعتين، ورموا به في بئر في بيت المقدس. فما زالت البئر تفور وتسيح بالدم حتى سلّط الله عليهم بختنصّر. فأتى إليهم وقال لهم: "ما سبب هذا الدم؟". فأخبروه بقتل زكريا فقال:

"لا أبرح أقتل فيكم أو يسكن هذا الدم". ووضع السيف فيهم وقتل حتى جرت الأنهر من دمائهم. ولما رأت نساء اليهود ذلك أخذت خرق الحيض وطرحتها في البئر فانقطع سيحها، ولما رأى بختنصّر ذلك رفع عنهم السيف، ورأيته في التوراة مكتوباً بالعبرية، وحدثني به جماعة من اليهود. قالوا إنه لما قتل زكريا ودفن جاء بختنصّر حتى حاصر القدس، فداست فرسه قبر زكريا، وغاصت يد الفرس فنزل عنه، وأخرجوا يدها فغار الدم وساح. فقال بختنصّر: "عليّ بأحبار اليهود"، ولما حضروا بين يديه قال لهم: "ما هذا القبر؟"، قالوا: "هذا للذبح دم الغنم والبقر"، والدم سيح أحمر حاراً. فقال: "هذا دم طريّ أخبروني"، ثم أنزل عليهم العذاب.

فقالوا: "هذا دم زكريا – عليه السلام – قتلناه ودفناه هنا". فغلق أبواب المقدس وقال: "لأقتلنّكم حتى يعبر دمكم السور ويسكن دم زكريا". ووضع السيف فيهم وقتل حتى لم يبق إلا النساء والأطفال. فأخذوا خرقة رووها بالدم من داخل السور إلى خارج البلد فسكن دم زكريا ورفع عنهم السيف. هذا

الوجه يرويه اليهود عن أشياخهم في كتبهم، والنصارى تنكر هذا، وتقول إن الذي شق بالمنشار كان أشعيا ولم يكن زكريا، وإن زكريا قتله اليهود بالسيوف.

الفتنة حيلة لإبليس من كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي: ذلك أنّ إبليس رأى جماعة يجتمعون في مجلس الذكر والقرآن. فطاف عليهم ليفتنهم، فلم يستطع أن يفرّق بينهم. أتى أهل مجلس يذكرون الدنيا وأهلها، فأوقع بينهم حتى اقتتلوا، فقام أهل مجلس الذكر ليحجزوا بينهم فتفرقوا وتفرقت غرماهم، وانغلوا ولم يعودوا يجتمعون.

عبادة الشجرة حيلة أخرى نقلتها من تلبيس إبليس أيضاً.

ذلك أن شجرة كانت تُعبد من دون الله، فغضب رجل لذلك وأقبل ليقطعها. فجاءه إبليس في صورة إنسان وقال له: "ما تريد أن تصنع؟"، قال: "أقطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله"، قال: "إذا كنت لا تعبدها فما خبرك من يعبدها؟"، قال: "لأقطعنها"، قال: "فهل لك فيما هو خير لك من هذا؟"، قال:

"نعم"، فقال: "لك كل يوم ديناران وقت تصبح"، قال: "ومن لي بذلك؟"، قال له إبليس: "أنا لك بهما". فلما أصبح وجد على مخدته دينارين، ولما كان اليوم الثاني لم يجد شيئاً.

فغضب وجاء ليقطع الشجرة، فجاءه إبليس وقال له: "ما لك؟"، قال: "أريد أن أقطع الشجرة"، فقال له: "ما لك إليها سبيل؟". فذهب ليقطعها، وضرب به الأرض وكاد يقتله. فقال له: "من أنت؟"، قال: "أنا إبليس، جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك"، فتركه الرجل ومشى.

استذواق الدم حيلة لإبليس منقولة من مروج الذهب : إن الحجاج لما ولدته أمه كان مشوّه الخلقة لا دبر له، فثقبت أمه دبره. وكان لا يقبل الثدي من أمه وغيرها وأعياهم أمره.

وتصور لهم إبليس في صورة طبيب، فقصوا عليه قصته فقال: "اذبحوا له جدياً أسود والعقوه من دمه، في اليوم الثاني اذبحوا له تيساً، وفي اليوم الثالث اذبحوا له عنزة، وفي اليوم الرابع اذبحوا له أسود سالخاً والعقوه دمه، ولطخوا وجهه من دمه، فإنه يقبل الثدي". وكان من أمره ما كان من سفك الدماء.

الباب الخامس

في حِيَل الأنبياء – عليهم السَّلام –

هكذا دخل إدريس الجنة حيلة إدريس – عليه السلام –.

حكى ابن الأزهر عن وهب بن منبه في كتابه الموسوم ب مبتدأ الدنيا أنّ إدريس – عليه السلام – أول من أعتّد السلاح وجاهد في سبيل الله – عزّ وجلّ – ولبس الثياب – كان يُلبس قبل ذلك الجلود – وهو أول من أظهر الأوزان والأكيال، وأثار علم النجوم.

قال وهب بن منبه: وكان إدريس شديد الحرص مع ذلك أن يدخل الجنّة. وكان قد علم من الكتب أن لا يدخل الجنّة قبل الموت والبعث. وكان مجاهداً في قومه في ذات الله، وكان يعبد الله حق عبادته".

وبينما هو يسيح في عبادته إذ عرض له ملك الموت في صورة رجل في نهاية الحسن والجمال. قال له إدريس: "من أنت؟"، قال: "عبد من عبيد الله أعبده مثل عبادتك. وقد أحببت أن أصحبك، فهل تأذن لي في ذلك؟". فأذن له إدريس، ثمّ سارا حتى إذا كان آخر النهار إذ هما براعٍ يرعى غنمات له. فقال له ملك الموت: "لو طلبنا من هذا الراعي لبناً من هذه الشويهات نفطر عليهً". فقال له إدريس: "انطلق بنا، فإنّ الذي اصطحبنا من أجله لا يتركه بلا رزق". لمّا أقبل الليل رزقهم الله طعاماً، فأكل إدريس ولم يأكل ملك الموت. ثم قاما ليصلّيا حتى أصبحا، وكانت حالهما في اليوم الثاني كذلك.

لمّا كان اليوم الثالث قال إدريس لملك الموت: "قد صحبتني يومين وليلتين ولم أرك تأكل شيئاً وأراك قوّاماً على العبادة قويّ البدن حسن الوجه طيّب الرائحة". قال:

"إني كذلك يا نبي الله منذ خلقت". فقال له: "فمن أنت؟"، قال: "أنا ملك الموت"، فقال له إدريس: "قد صحبتني فهل جئت تقبض روحي"، قال: "لا، لأن ربّي لم يأمرني بذلك لكنه أمرني أن أصحبك".

قال له إدريس: "يا أخي، لي إليك حاجة". قال: "وما هي؟"، قال: "أن تقبض روحي"، قال: "فما تريد بذلك وللموت من الكرب ما لا يحصى"، قال له إدريس:

"لعلّ الله أن يحييني بعد ذلك فأكون أشدّ اجتهاداً في عبادتي إيّاه". قال له ملك الموت: "لا يمكنني ذلك إلّا بأمر من الله تعالى، فسل ربّك ذلك". فأوحى الله إلى ملك الموت: "إني قد علمت ما في قلب عبدي إدريس فاقبض روحه". فقبض ملك الموت روحه ثم أحياه الله تعالى في الحال. وكان يجتهد في العبادة حتى كان أكثر الناس صوماً وصلاةً.

وكان ملك الموت قد صادق إدريس، ولمّا كان بعد ذلك أقبل ملك الموت إلى إدريس يزوره. فقال له إدريس: "يا أخي أتقدر أن توقفني على جهنّم حتى أنظر إليها؟"، قال له ملك الموت: "وما حاجتك إلى ذلك وفي جهنم من الأهوال ما لا يحمله أحد وما لي إلى ذلك سبيل؟ ولكن أحملك إلى قريب منها والله أعلم بحاجتك".

فحمله ملك الموت حتى أوقفه الله على طريق مالك خازن النار، ولمّا رآه مالك خازن النار واقفاً كشّر في وجهه كشرة كادت نفس إدريس أن تخرج من خشيته.

وأوحى الله – عزَّ وجلَّ – إلى مالك: "وعزّتي وجلالي لا أرى إدريس بعد كشرتك هذه سوءاً أبداً. ارجع إليه واحمله وأوقفه على شفير جهنّم حتى يرى ما فيها".

فأخذه مالك وأوقفه على شفير جهنم وصاح مالك بخزنة جهنّم أن: "اقلبوا أطباق جهنّم". فقلبوا، نظر إدريس إلى تلك الأهوال والنكال والعذاب والنيران والقطران والحيات والعقارب. فلولا أن الله – تبارك وتعالى – قوّاه وإلّا كان قد صعق. ثمّ احتمله مالك حتى أوقفه مكانه الذي أخذه منه فوضعه فيه. أنزله ملك الموت إلى الأرض، فأقام يعبد الله ولا يكتحل بنوم ولا يهنأ بمطعم خوفاً من عذاب الله الذي عاينه.

ولمّا كان بعد ذلك أقبل ملك الموت يوماً وقال له: "يا أخي هل لك أن تدخلني الجنّة، حتى أنظر إليها، وإلى ما أعدّه الله – عزَّ وجلَّ – لأوليائه؟". فقال: "يا نبي الله، إن الجنّة محرمة لا يدخلها إنسان إلّا أن يموت، لأن أهل الجنّة لا يموتون، واذكر حاجتك لله تعالى. غير أني أحملك وأقعدك على طريق الجنّة، فإنّ رضوان يعبر عليك وهو خازن الجنّة فسله حاجتك"، قال: "افعل ذلك".

ففعل ملك الموت، وأقبل رضوان ومعه ملائكة الرحمة. نظر إلى إدريس – عليه السلام – فقال لملك الموت: "من هذا؟"، قال: "نبي الأرض وقد أراد أن ينظر إلى نعيم الجنّة ليكون اجتهاده على عبادة الله أكثر"، قال رضوان: "إن ذلك إلى ربّي عزَّ وجلَّ". فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى رضوان: "أني قد علمت ما يريد عبدي، وقد أمرت غصناً من أغصان شجرة طوبى أن يتدلّى فيلتفّ به ويدخله الجنّة. فإذا دخلها فأقْعِده يا رضوان على أعلى موضع في الجنّة". فلمّا دخل الجنّة، ورأى ما فيها من النعيم قال له رضوان: "إن الجنّة لا يدخلها أحد من البشر إلّا أن يموت". فقال له إدريس: "أنا قد متّ والله – سبحانه وتعالى – لا يسلّط عليّ الموت مرتين. وقد رأيت جهنّم ووردت عليها وكان حتماً من ربّي ذلك على عباده". وذلك قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} (مريم 71). فرجع رضوان إلى ربّه وقال: "إلهي وسيدي أنت أعلم بما قاله عبدك إدريس". فأوحى الله – عزَّ وجلَّ –: "إن عبدي إدريس حاجّك بكلامي فزره في جنتي لا تعاوده. نيبوا إدريس من الجنّة حيث يشاء، وذلك قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} (مريم 56 ، 57)".

الأوثان حيلة إبراهيم – عليه السلام – في تكسيره للأصنام، وقوله تعالى:{قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} (الأنبياء 60).

قال السريّ: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام سجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم. فلمّا كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم: "يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا لتنظره أعجبك ديننا". فخرج معهم إبراهيم، ولمّا كان في بعض الطريق ألقى نفسه وقال:

"إني سقيم". فلمّا مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعاف الناس:{وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} (الأنبياء 57). فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة، فإذا بهم في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم، يليه أصغر منه إلى باب البهو. وقد جعلوا بين أيديهم طعاماً وقالوا: "إلى حين رجوعنا من العيد يكون قد باركت فيه الآلهة فنأكل".

فلمّا نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على سبيل الاستهزاء: "ألا تأكلون؟". فلمّا لم يجب أحد قال: "ما لكم لا تنطقون؟". فراغ عليه ضرباً باليمين، وجعل يكسرهم بفأس بيده حتى لم يبقَ إلّا الصنم الأكبر. علّق الفأس في رقبته ثمّ خرج، ولذلك قوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} (الأنبياء 58). ولم يكسر الكبير لعلهم يرجعون إليه ويسألونه عنهم وعمّن فعل بهم هذا الفعال.

فلمّا قدم القوم من عيدهم إلى بيت الآلهة رأوا أصنامهم، قالوا: "من هذا الذي فعل هذا بآلهتنا؟ إنه لمن الظالمين". فأتى الذين سمعوا إبراهيم يقول: {تالله لأكيدنّ أصنامكم}. وقالوا: "سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم يعيبهم ويشتمهم ويستهزئ بهم"، فبلغ ذلك النمرود الجبّار فأخذه وحبسه وجمع حطباً ليحرقه.

قَسَم سارة حيلة إبراهيم – عليه السلام – مع سارة وهاجر.

وذلك أن سارة – رضي الله عنها – لما غارت من هاجر حين حملت بإسماعيل – عليه السلام – قالت: "والله لأقطعن منها عضواً". فلمّا أخبرت هاجر إبراهيم ما قالته سارة، قال لها إبراهيم: "ماذا حلفت على هاجر؟". قالت: "والله لأقطعن منها عضواً"، فقال لها: "اختنيها وقد بررت في يمينك"، فكانت أول امرأة ختنت.

دعاء إسحاق حيلة يعقوب – عليه السلام –.

ممّا حكاه الثعلبي أن إسحاق لما كبر وعمي، كان له اليسع ويعقوب، التفت يوماً إلى اليسع وقال له: "يا بني أطعمني لحم صيد حتى أدعو لك دعوةً دعا بها إبراهيم – عليه السلام –". وكان اليسع رجلاً أشعر، أما يعقوب فكان أجرد. مضى اليسع ليصيد لأبيه شيئاً، ومضى يعقوب فذبح عنزاً ولبس جلدها وأتاه بلحمها.

قال له: "كل يا أبتِ"، قال: "من أنت؟"، قال: "ولدك اليسع"، قال: "اللمس لمس اليسع والريح ريح يعقوب". فقالت له أم يعقوب: "هو ابنك اليسع فادع الله تعالى"، فقال: "قدّم طعامك" فقدمه، فأكل منه كفايته. ثمّ قال له: "ادنُ مني". فدنا منه وقال: "اللهم اجعل الأنبياء من ظهره والملوك". وذهب يعقوب وجاء اليسع قال له: "يا أبتاه قد جئتك بالصيد الذي أردت". قال له إسحاق: "يا بني سبقك أخوك يعقوب". فغضب وقال: "والله لأقتلنّه". فلمّا سمع يعقوب ذلك هرب إلى خاله، وتزوج عنده بابنته، وكان من أمره ما كان.

قصة يوسف حيلة إخوة يوسف – عليه السلام –.

اتفق جميع المفسّرين أنّ يوسف – عليه السلام – لما رأى في المنام ما رأى وقصّه على يعقوب، وذلك قوله عزَّ وجلّ: {يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} (يوسف 4)، قال له يعقوب: {يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} (يوسف 5). كانت خالته قريبة منهم فسمعت قولهم، فأتت أولادها وأخبرتهم بما قاله يوسف، فحسدوا يوسف وقالوا: "بالأمس يقول رأيت إخوتي وقد غرسوا عصيّهم وغرست عصاي فطالت عصاي وأورقت وأثمرت وعصيّنا لم تينع ولا تتغيّر، وحملوا في قلوبهم ذلك". ثم إنهم فكروا في قتله، ودبروا في ذلك حيلة.

وهي إنهم كانوا كل يوم يخرجون يرعون غنماً لهم. فلمّا كان ذلك اليوم الذي أرادوا فيه الكيد بيوسف بطلوا الرعي وجعلوا يلعبون مقابل يوسف بأنواع اللعب.

ويوسف يتعجب منهم ومن لعبهم غاية التعجب، فقالوا: "نحن كل يوم نلعب كذا طول نهارنا وأحسن من هذا، وما لنا شغل إلّا اللعب والغنم ترعى. لمَ لا تأتي معنا وتتفرّج وتلعب مع إخوتك؟". كانت هذه أول حيلة على يوسف. فقال: "ما "يخليني" أبي فاسألوه أنتم عسى أن يتركني". قالوا: "غداً نسأله وتكون أنت عنده، وتقول له: أريد أن أمشي مع إخوتي ألعب وأتفرّج"، واتفقوا على ذلك.

فلما أصبحوا أتوا إلى أبيهم يعقوب وقالوا كما قال الله – تبارك وتعالى –:{يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (يوسف 11 ، 12). فقال لهم يعقوب: "اعلموا أني قد اجتهدت في تربيتكم وتربيته حتى كبر فيفرحني ما يفرحكم ويعجبكم، غير {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} (يوسف 13)". قالوا: {لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ} (يوسف 14). وسأل يوسف أباه، فأنفذه معهم على كره منه، وعاقدهم على أن يردوه إليه سالماً ويحفظوه، وإن جاع أطعموه، وإن عطش سقوه، وإن تعب حملوه على أكتافهم. ساروا ويعقوب على تلٍّ ينظر إليهم، فلما غابوا عن عينه ندم على ذلك وجلس تحت شجرة هناك يبكي. غلبه النوم فنام، ثم انتبه وهو مغموم مهموم.

لما بعدوا عن يعقوب وأيسوا منه أنزلوه عن أكتافهم، وصاروا يجدّون في السير وهو يعدو خلفهم ولا يلحقهم. فلما طال الشوط تعب وعطش صاح بهم من خلفهم: "يا إخوتي تعبت وعطشت قفوا لي". فلم يقفوا ولم يلتفتوا إليه، وأخذ يذكرهم بالأخوّة ويتشفقهم الأبوّة والعهد والميثاق. فلطمه واحد منهم وأكبَّه على وجهه، وجدّوا في السير ويوسف يتبعهم حتى بلغوا مراعيهم.

ثم إنهم تشاوروا فيما يصنعون بيوسف، فكل واحد منهم يقول شيئاً من أمر القتل. قال يهودا: "لا تقتلوا أخاكم فيحل بكم ما حل بقابيل من قتل أخيه، ولكن ألقوه في بعض الجباب"، ويوسف يبكي ويقول: "يا أخي يهودا ألا ترى ما هم فيه إخوتي من قتلي؟". قال له يهودا: "لا بأس عليك". فقالوا

ليهودا: "نخاف أن نطرحه في الجب فيخرج ويُعلِم أباه بما صنعنا في حقه". قال: "نبصر له جبّاً لا يقدر أن يطلع منه". فأتوا إلى جب ضيق الرأس وسيع الأسفل عميق الماء، فهمّوا أن يرموه فيه. قال يهودا: "هذا جبّ عميق فإن رميتموه ربما يقع ويموت، ولكن دِلّوه بحبل"، ففعلوا ذلك. كان في الجب صخرة، أمر الله الصخرة أن ترتفع فجلس يوسف فوقها، فلما استقر رموا الحبل من أيديهم ورجعوا، وبقي يوسف في الجب. ثم أخذوا شاة فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وجاءوا أباهم عِشاءً يبكون. فلمّا قربوا من يعقوب كان واقفاً ينظر إلى عددهم، فأخذوا في البكاء والنحيب وضجوا بصوت واحد: "وايوسفاه!". لما سمع يعقوب الصوت صرخ صرخة عظيمة وخرّ على وجهه، مغشياً عليه، حتى دخلوا عليه بقوة وقالوا: "يا أبانا حلت المصيبة وعظمت الرزيّة: {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} (يوسف 17)". قال: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (يوسف 18). ثم رموا القميص إليه فأخذه وقلّبه فلم يرَ فيه آثار خرق، وما زال يبكي حتى عمي.

أما يوسف فإنه بقي في الجب ثلاثة أيام، ولما كان اليوم الرابع أقبلت قافلة من بلاد اليمن تريد أرض كنعان وكانت طريقها بالجب الذي فيه يوسف. فخرج بعضهم في طلب الماء، أتى إلى الجبّ لعلمه أن فيه ماءً من قبل ذلك في سفرة أخرى. أدلى دلوه فتعلق فيه يوسف، فثقل عليه وزعق بشريك له وقال: "أعنّي على الدلو فإنه ثقيل". أتى صاحبه فهجّ الدلو إلى رأس الجب، ورأى يوسف فصاح: "يا بشراي هذا غلام". اجتمع عليه الناس فرأوا صبياً مثل القمر.

وكان إخوة يوسف قياماً، فلما رأوا يوسف قد خرج من الجب وكان ظنهم أنه قد مات أقبلوا وضربوه ولطموه وقالوا لهم: "هذا عبدنا قد أبِقَ منا من ثلاثة أيام ونحن "ندور" عليه". فإن كان فيكم من يشتريه بعناه، وقالوا ليوسف بالعبرانية: "لا تنكر أنك مملوك حتى نبيعك عليهم وإلّا نأخذك منهم ونقتلك". سأله أهل القافلة فأقرّ، واشتراه مالك بن دَعْر بعشرين درهم. ثم قالوا: "هذا عبد أبِق"، فرضي بذلك. وكان قصدهم ألّا يهرب ويأتي إلى أبيه فيخبره بما فعلوا معه. أخذه مالك وقيّده وسار به إلى مصر حتى ملكها بأمر الله تعالى.

يوسف وإخوته حيلة يوسف الصديق – عليه السلام – مع إخوته، بما حكاه وهب بن منبه قال:

لما انتشر القحط والغلاء في أرض مصر وصل إلى كنعان، فبلغ بيعقوب وأولاده شدة عظيمة. أعطى يعقوب أولاده بضاعة وقال: "انطلقوا إلى مصر واشتروا لنا طعاماً". فأخذوا ما أعطاهم أبوهم وجاءوا إلى مصر. كان يوسف جالساً في منظرة له تُشرف على البر والبحر، أناخوا في حائط المنظرة. فلما رآهم يوسف عرفهم.

أشرف عليهم وقال: "من أنتم؟"، قالوا: "نحن من أرض كنعان من نسل النبي يعقوب – عليه السلام –. قدمنا هذا البلد لضيق، لحقنا نشتري من القوت بقدر ما يكفينا". فسكت يوسف وأمر بتزيين قصره، وبات إخوته تحت قصره.

كان ليوسف في حصن داره مكان مرتفع من صفائح الرخام. أمر بفرشه، ففرش بأنواع الفرش وقعد يوسف – عليه السلام – على سريره متوّجاً وشدّ على وسطه المنطقة وطوّق عنقه، وتزيّا بزيّ أهل الملك. ثم أمر إخوته أن يدخلوا عليه {فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} (يوسف 58). سلّموا عليه ووقفوا بين يديه، فأمرهم بالجلوس، جلسوا ينظرون إلى عظيم ملكه وأمره ونهيه. ثم قال يوسف: "من أرض كنعان أنتم؟"، قالوا: "نعم أيها الملك"، قال: "عبرانيون أنتم؟"، قالوا:

"نعم"، قال: "أولاد رجل واحد أنتم؟"، قالوا: "نعم"، قال: "فهل لأبيكم غيركم"، قالوا: "نعم من امرأة يقال لها راحيل واحد اسمه يوسف والآخر اسمه بنيامين تركناه عند أبيه لأنه لا يصبر عنه". قال يوسف: "والابن الآخر؟"، قالوا: "أكله الذئب"، وذكروا له قصة الذئب كما ذكروها لأبيهم يعقوب.

فقال لهم يوسف: "إن رجعتم جئتم فأتوني بأخيكم معكم وإلّا لا تقربوني"، قالوا: {سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ} (يوسف 61). ثم أمر يوسف أن يُكال لهم الطعام بقدر كفايتهم بحضرته، وأمر بإيفاء الكيل لهم، وقال لأعوانه: "خذوا بضاعتهم دعوها في رحالهم". ثم قال كما قال الله – عزَّ وجلَّ –: {ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} (يوسف 59)، إلى قوله: {فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ} (يوسف 60). قالوا: {سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} (يوسف 61). كان جعل البضاعة في رحل يهودا، وسار القوم حتى وصلوا إلى أرض كنعان، فدخلوا على أبيهم وقبّلوا رأسه. وجعل يعقوب يسألهم عن خبرهم في مسيرهم وما جرى لهم مع العزيز. قالوا: "يا أبانا قد فتحنا رحالنا فوجدنا بضاعتنا ردت إلينا، فما نبغي؟"، قال يعقوب: "يا بني إنّ هذا الطعام محرّم علينا حتى تؤدوا ثمنه"، فقالوا: "كيف نرجع وقد ضمنّا له أن نأتيه بأخينا بنيامين". وذكروا أنّ العزيز قال لهم: {فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ} (يوسف 60). قال يعقوب: "بل تريدون أن تفعلوا به كما فعلتم بيوسف من قبل"، فقال يهودا: {يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} (يوسف 65)، {قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} (يوسف 66).

ولمّا فرغوا من بذل العهود أخذوا أخاهم وساروا إلى أن أتوا إلى مصر وبلغوا باب يوسف واستأذنوا عليه. فأذن لهم، فدخلوا عليه ووقفوا بين يديه. أمرهم بالجلوس ثم نظر إلى بنيامين، فأدناه إليه وأجلسه بين يديه. ثم أجلس إخوته خمسة عن يمينه وخمسة عن شماله. وقال لبنيامين: "أنت أخوهم؟"، قال: "نعم من أبيهم". قال: "ما لك أخ آخر؟"، قال: "كان لي أخ زعموا هؤلاء إخوتي أنه أكله الذئب". فأمر بإحضار الطعام، فقال يوسف: "يجلس كل أخوين منكم على مائدة". جلسوا، وبقي بنيامين وحده، فقال له يوسف: "فما لي أراك بلا أخ".

قال يوسف: "يا أولاد يعقوب إن فيكم من يزعق على الأسد فيخرّ ميتاً، وفيكم من يلزم الذئب فيفسخه نصفين، وفيكم من إذا صاح تضع الحوامل، وفيكم من يقتلع الشجرة من أصلها، وفيكم من

يسبق الفرس الجاري، وفيكم من يفعل أكثر من ذلك. ' فشوا ' حصل لكم من قوتكم هذه، كيف أكل الذئب أخاكم؟".

فقالوا: "أيّها العزيز إذا جاء القضاء ذهب الأقوياء".

ثم التفت إلى بنيامين وقال له: "لِمَ لا تأكل؟"، فقال له: "قد قلت أن يجلس كل أخوين على مائدة، وأنا ما لي من أخ يجلس معي". فقال يوسف وقد احترق قلبه على أخيه وأبيه: "أنا أكون لك أخ". ونزل عن السرير وأكل معه ولم يخبره أنه يوسف.

ثم أقبل يوسف على إخوته قال: "ما جئتم من البضاعة؟"، قالوا: "ما جئنا بشيء ولكنا لمّا فتحنا رحالنا وجدنا بضاعتنا ردّت إلينا، فقال والدنا: لا يحلّ لكم أكل الطعام حتى تؤدّوا ثمنه". فلما سمع ذلك قال: "نِعْم ما فعلتم". ثم قال للخازن أعطهم طعاماً بقدر ما تحمل جمالهم، وكان الغلمان يكيلون وهم يخيطون الأعدال.

فدعا يوسف بعض أعوانه وقال له: "خذ الصواع الذي أشرب فيه واجعله في رحل ذلك الفتى"، يعني أخاه بنيامين. ففعل الغلام ذلك من غير أن يعلم أحد.

ثم رحل القوم فأتبعوهم مؤذناً يؤذن: {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} (يوسف 70). قالوا، وأقبلوا عليهم: "ماذا تفقدون؟"، {قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} (يوسف 72 – 76). فلما نظروا إلى ذلك ضربوا بأيديهم على جباههم وقالوا: "ثكلتك أمك يا بنيامين فضحتنا"، قال: "يا إخوتي إني لم أفعل شيئاً من هذا". قالوا: "ألم ترَ إلى القوم أخرجوا صاعهم الذي ذهب منهم من رحلك".

ثم قالوا: "أيها العزيز أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل". فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم. وقالوا له: {يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف 78). قال يوسف: {مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ} (يوسف 79).

{فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (يوسف 80). وقال: "إني مقيم ها هنا مع بنيامين". وأضاف يهودا: {ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} (يوسف 81). استشهدوا على ذلك العير التي كنا فيها، فقال بعضهم: "إن هذا الملك وأهل مصر كلهم كفرة، يعبدون الأصنام

فتعالوا نتظاهر عليهم". قال روبيل: "أنا أكفيكم أمر الملك وأعوانه"، قال: "تسمعون أنا أكفيكم أمر العزيز وأعوانه"، فقال يهودا: "أنا أكفيكم أهل الأسواق".

فعلم يوسف بذلك، ثم إنّ يوسف أحضرهم وقال: "يا بني يعقوب ما الذي غرّكم مني. أحسنت إليكم مرة بعد أخرى، وتفضلت عليكم، فبدر من أخيكم هذا خيانة، فوقفتم تتشاورون في هلاك البلاد وأهلها. تظنون أن القوة كلها لكم، حتى ليس لأحد قوة إلّا لكم". ثم وكز برجله الإيوان الذي كانوا عليه، فطحطح حتى تكسرت صفائح الرخام. وقال: "لولا أني أعلم أنكم من أولاد يعقوب الصالح كنت صحت فيكم صيحة تخرّون على الرخام". وكان يهودا قد عزم أن يفعل شيئاً، وعلى كتفه شعر إذا غضب يخرج من تحت ثيابه، ويقطر منه الدم، ثم يصيح صيحة لا يسمعها أحد إلّا غشي عليه. كان لا يسكن غضبه حتى يمسه أحد من ولد يعقوب. فقال يوسف لولده: "اذهب والمس ظهر ذلك الرجل الكهل بيدك وتنحَّ عنه من حيث لا يعلم بك". ففعل الصبي ذلك فسكن غضبه. فالتفت يهودا إلى إخوته وقال: "من فيكم مسَّني فقد سكن غضبي"، قالوا: "ما مسّك أحد منا"، فقال: "والله لقد مسّتني يدٌ من آل يعقوب".

فلمّا عزّ عليهم ما أرادوا أن يفعلوه ونظروا ما رأوه من يوسف عزموا على العود، وتركوا روبيل عند بنيامين ومضوا إلى أبيهم. فقالوا: "إن بنيامين سرق صواع الملك فأخذوه به: {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} (يوسف 81)". فتعجب يعقوب من ذلك، وقال: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا} (يوسف 83). ثم قال: "كيف سرق ولدي وهو من الذرية الطيبة الذين يصومون النهار ويقومون الليل". قالوا: {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا} (يوسف 81). فأخذ يعقوب في البكاء والنحيب حتى بكت لبكائه الجن والإنس والطير والوحش. فأوحى الله إليه أن "كفّ عن بكائك فإني أجمع بين وبين ولديك يوسف وبنيامين وأردّ بصرك عليك". فسكت يعقوب من بكائه ثم قال لهم: "اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْحِ الله، {لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} (يوسف 67)، وهذه من حيل يعقوب أيضاً لأنه خاف عليهم من العين.

فلما دخلوا مصر أتوا إلى قصر يوسف وسلموا عليه وأوصلوه كتاب يعقوب، يذكر فيه أن يردّ عليه ولده بنيامين ويسأله في ذلك. فقال يوسف لإخوته: "إني لأظنكم لا تصدقون في كثير من قولكم". فاجتمعوا بين يدي حتى أسأل هذا الصاع عنكم. فاجتمعوا بين يديه، نقر الصاع نقرة طنّ طنة شديدة، فأقبل يوسف على إخوته وقال لهم: "يا بني يعقوب، إن هذا الصاع يقول تشهدون بالزور وتكذبون في قولكم إنّ أخاكم أكله الذئب". قالوا: "ما شهدنا بالزور وما قلنا في يوسف إلّا الحق".

ثم إنه نقر الصاع نقرة أخرى فطنّ الصاع طنة أقوى من الأولى. فقال يوسف: "أتدرون ما يقول الصاع؟"، قال: "إنه يقول إنكم حسدتم يوسف وأخذتموه من عند أبيه وأردتم قتله، ثم ألقيتموه في الجب". ثم نقر الصاع ثالثة فطنّ. قال: "أتدرون ما يقول؟"، قال: "ما كذبت أيها العزيز في قولي ولقد أخرجوا أخاهم من الجب وباعوه من مالك بن دعر بعشرين درهماً عدداً وأمروه أن يقيده ويحمله إلى مصر". فتغيرت وجوههم وقالوا: "ما نعرف شيئاً من هذا". ثم نقر الصاع نقرة أخرى

وهي رابعة فطنّ طنة عظيمة. قال: "يقول كتبوا كتاباً بخط يهودا"، قالوا: "أيها العزيز ما عندنا من هذا خبر". فأخرج يوسف الصحيفة فأعطاها ليهودا وقال له:

"تعرف خطك؟". فنظر يهودا فإذا هو خطه، قال: "هو خطي غير أنني ما كتبته باختياري وإنما كتبته على عبد لنا اسمه يوسف". فغضب يوسف وقال: "أليس تزعمون أنكم من أولاد يعقوب وأولاد الأنبياء. تعمدون إلى صبي ما بلغ الحلم، وهو أخوكم، ألقيتموه في الجب، ثم أخرجتموه وبعتموه بيع العبيد حتى صار عند عبدة الأوثان؟". التفت إلى أعوانه وقال: "انصبوا لي عشرة جذوع على باب المدينة، حتى أضرب أرقابهم وأصلبهم عليها، وأجعلهم حديثاً لمن مضى". فقالوا:

"أيها العزيز لا تفجع فينا أبانا". ثم قالوا: "هذا جزاء ما عاملنا به أخانا".

فلما أقروا بالذنب جمعهم بين يديه، ورفع التاج من على رأسه كأنه يحكّ رأسه، وكان في رأس يعقوب شامة. لما نظروا إلى الشامة عرفوها وقبّلوا الأرض بين يديه:

{قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف 90). فقالوا له عند ذلك: {تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا} (يوسف 91).

ثم عمد يوسف – عليه السلام – إلى القميص الذي كساه الله إياه في الجب، فطواه وقال: "اذهبوا به إلى أبي فألقوه على وجهه {يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} (يوسف 93)". فمضوا به إلى يعقوب ألقوه على وجهه فعاد بصيراً. وأخذ أهله وبنيه وأولادهم وجميع ما يملكه، ومضى إلى مصر. دخل على يوسف وجمع الله شمله، ولم يرَ مكروهاً من الله إلى أن فرّق الموت بينهم.

داوود وحماه حيلة داوود – عليه السلام – على طالوت.

ذكرها ابن المقفع في كتابه تاريخ العجم . إنّ طالوت لما زوّج ابنته بداوود – عليه السلام –، بعد قتله لجالوت وقطع رأسه، وأخذ خاتمه، عجبت بنو إسرائيل من فعاله وتحدثوا به. بلغ ذلك طالوت، فحسد داوود حسداً عظيماً، وخشي على ملكه، وندم على تزويجه بابنته ومقاسمته سلطانه وماله. فقال طالوت لابنته:

يا بنية قد ندمت على ما كان من تزويجي إياك من داوود لأنه ليس لنا بكفؤ، وإنه من سبط يهودا ونحن من سبط يوسف – عليه السلام –. ولست آمن أن يعيرنا الناس به، وأريد قتله فأريح نفسي منه. تفقدي أمره، فإذا رأيت منه غرّة فعرفيني لآتي إليه بنفسي. إن ذلك أخفى للأمر.

فقالت له ابنته: "يا أبتاه، لا يحل لك قتله، وهل تأمن من غدرك له البلية؟ فإنّ البلية أسرع إلى أهل الغدر والنكث، ولست آمن إن فعلت ذلك أن يسلبك الله ملكك ويبدل سلطانك". فقال لها طالوت: "أراك تؤثرينه عليّ ولا أجد بدّاً من قتله وقتلك لأخلو من العار، إذ هو ليس بكفؤ ولا نظير".

لما سمعت ذلك من أبيها خافت على نفسها، فأفضت بذلك إلى داوود. قال لها داوود: "ها أنا متناوم فاذهبي إليه وقولي له: يا أبي إني أؤثر هواك وطاعتك على داوود وإن كان بعلي، وها هو نائم مستثقل نوماً". ثم إن داوود تدرّع ولبس عليه ثوبه ونام. ذلك إنه لم يصدق زوجته فيما قالت، وأحب أن يبين صحة الأمر ولم يظن أن طالوت يستحلّ دمه وقتله بلا ذنب سلف منه إليه.

فانطلقت المرأة إلى أبيها، وقالت: "يا أبتاه ما أحب أن يعيبك الناس بشيء ولا يطغى عليه أحد بمكافئ. فإن أردت قتل داوود فهلمّ الساعة قد خلفته مستثقلاً نوماً". فاشتمل طالوت سيفه، وأقبل إلى منزل داوود، فصادفه متناوماً استلّ سيفه وضربه على صدره. فنبا السيف عن الدرع ووثب داوود وأخذ بأزياقه وقال له:

"ممن استحللت دمي بلا ذنب سلف مني إليك فمن يمنعني عنك؟". ونفط السيف من يد طالوت، وخاف أن يشيع ذلك في بني إسرائيل وما فعله في حق داوود فيسيئون إليه ويخلعونه من الملك. ثم إن داوود – عليه السلام – خلا سبيله وكتم أمره. وبقي طالوت بعد ذلك أياماً، ثم مات وتولى داوود موضعه على بني إسرائيل إلى أن تنبى.

وفي رواية أخرى، لما أراد طالوت قتل داوود أخبر رجلاً يقال له ذو العينين لابنة داوود، فقالت لداوود: "إنك الليلة مقتولٌ، فاعتزل حتى تنظر صدق قولي". فقال لها داوود: "إن كان يريد ذلك فما أستطيع خروجاً، ولكن آتيني بزق خمر". أتته به فوضعه في مرقده على سريره، وسجاه بثوبه ودخل تحت سريره. دخل طالوت وقال لابنته: "أين بعلك؟"، قالت: "هو نائم على السرير". فضربه بالسيف وسال الخمر. فلما وجد ريح الخمر قال: "يرحم الله داوود ما أكثر شربه للخمر"، ثم خرج. ولما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً وقال: "إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لحقيق أن لا يدعني حتى يأخذ مني بثأره. فاشتد على حجابه وحراسه في الحفاظة وأغلق دونه أبوابه". ثم إن داوود أتاه ليلة وقد هدت العيون فأعمى الله عنه أعين الحجاب، ففتح عليه الأبواب وهو نائم على فراشه، وضع سهماً عند رأسه وسهماً عند رجليه وسهماً عن يمينه وسهماً عن شماله، ثم خرج. فلما استيقظ طالوت نظر السهام، وقال: "رحم الله داوود. هو خير مني ظفرت به فقصدت موته وظفر بي فكفّ عني، ولو شاء وضع هذه السهام في قلبي وما أنا بالذي آمنه، وشدد على حراسه وحجابه".

ولما كانت الليلة الثانية أتاه ثانياً، فأعمى الله على أبصار الحراس والحجاب، فدخل داوود – عليه السلام – وهو نائم. أخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضّأ منه، وكوزه الذي كان يشرب منه، وقطع شعرات من لحيته، وشيئاً من هدب ثيابه، ثم خرج. فلما انتبه طالوت ورأى ذلك، طلب داوود وتاب من فعله وفوض أمره إليه.

الشدة بعدها الفرج حيلة سليمان بن داوود – عليهما السلام – مع الجن.

وذلك مما رواه ابن المقفع في كتابه تاريخ العجم : إن سليمان بن داوود – عليه السلام – أوصى الريح أن تلقي إليه كل ما تسمعه. وكانت الشياطين والجن تجتمع عند إبليس في كل عام مرة

واحدة، فتخبره بما هي فيه من الجهد والشدة، مما يستعملها فيه سليمان من الأعمال.

وقد أتوه في بعض الأعوام أخبروه بذلك، فقال لهم إبليس – لعنه الله –: "تعملون بالنهار وتستريحون بالليل؟"، قالوا: "نعم"، قال: "فإن ذلك فرج لم تتناه بكم الشدة". ثم حملت الريح الكلام إلى سليمان، وأمر باستعمالهم ليلاً ونهاراً في الصخور وقطع الرخام وحفر المعادن وأصابهم من ذلك جهد شديد. فلما جاء الحول اجتمعوا عند إبليس فأعلموه بذلك. قال لهم إبليس: "أليس إذا حملتم ما تحملونه، ثم انصرفتم إلى الأماكن التي تحملون منها، تكونون فرغاً ليس عليكم شيء؟"، قالوا: "بلى"، قال: "فإن الشدة لم تتناه بكم". فحملت الريح الكلام إلى سليمان فأمرهم أن يحملوا ما يُراد حمله إلى بيت المقدس. فإذا حملوا نحائت الصخرة إلى الفلاة ويأخذون عوضها ما يحتاج إليه في العمار، فاشتد ذلك عليهم. ولما كان في العام الثالث، اجتمعوا إلى إبليس فأخبروه بذلك. قال لهم: "هل عليكم سواق يسوقكم في مجيئكم ورواحكم ويضر بكم متى انقطعتم؟"، قالوا: "لا"، قال: "فإن الشدة ما تناهت بكم". فحملت الريح الكلام إلى سليمان، وأمر بسواق يسوقهم في المجيء والرواح، فمن تأخر أو عجز ضرب أشد الضرب، فاشتد ذلك عليهم. ولما كان العام الرابع اجتمعوا عند إبليس فأخبروه بذلك. قال:

"الآن تناهت بكم الشدة التي يُرجى بعدها الفرج فتوقعوه". فما تم ذلك العام حتى فرغ سليمان من عمله. وفي رواية أخرى أنه مات في ذلك العام.

الأمّ الحقيقية والأمّ المدّعية حيلة أخرى له.

خرجت امرأتان ومعهما صبيان. فعدا الذئب على أحدهما فأكله. أخذتا تختصمان في الصبي الآخر، وارتفعتا إلى داوود، فقضى به للكبيرة منهما. مرّتا على سليمان – عليه السلام – قال: "كيف أمركما وقصتكما؟"، فقصتا عليه القصة، قال: "فأْتوني بسكين أشق الغلام بينكما بالسوية"، قالت الصغرى: "أتشقّه؟"، قال:

"نعم"، قالت: "لا تفعل، حظّي منه لها"، وقالت الأخرى: "شقّه". فأعطى الولد للتي قالت: لا تشقه. والحكمة في ذلك أنّها لا تؤثر هلاكه خوفاً عليه أن لا يقتل وأدركتها شفقة الأمّ، أما الأخرى فليست أمّه، فقد هان عليها هلاكه كما هلك ولدها. فعلم أنّ الدم تحرك وأنّها احترقت عليه وآثرت عليه فهي أمّه، فردّه عليها.

سارق الوزة حيلة أخرى له.

جاء رجل إلى سليمان – عليه السلام – فقال له: "يا نبي الله إنّ لي جيراناً يسرقون إوزي ولا أعلم من هم". فنادى سليمان الصلاة جامعة، ثم خطب خطبة وقال في آخر خطبته: "وأجد فيكم من يسرق إوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه". فمسح رجل منهم رأسه، قال سليمان لصاحب الإوز: "هذا صاحبك".

ولزمه بثمن الإوز.

صاحب الرغيف حيلة عيسى – عليه السلام – مع الذي أكل الرغيف. وذلك مما رواه وهب بن منبه:

ذكر أنّ عيسى – عليه السلام – خرج مع صاحب له يسيحان في الأرض. أصابهما جوع شديد، فأتيا قرية من قرى الشام، فقال عيسى لصاحبه: "انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية". انطلق الرجل وأقام عيسى يصلي. جاء الرجل وأبطأ عليه عيسى في الصلاة، فأكل رغيفاً. ولما قضى عيسى صلاته قال له: "أين الرغيف الثالث؟ هل أكلته؟"، قال: "لا والذي لا إله إلا هو. ما كانا إلا اثنين يأكل كل واحد منّا رغيفاً".

ثم انطلقا فلقيا أعمى. فقال له عيسى: "أريك، على أن تعبد الله وحده"، قال: "نعم إن عاد عليّ بصري". فدعا عيسى ربه فردّ عليه بصره. ثم التفت إلى صاحبه وقال: "عزمت عليك بصاحب هذه القدرة ألست صاحب الرغيف؟"، قال: "لا والذي لا إله إلا هو"، فسكت عيسى.

وانطلقا، فلقيا مُقعداً، قال له عيسى: "أقيمك، على أن تعبد الله وحده"، قال: "لك ذلك إن قمت". فدعا عيسى ربه فأقامه، ثم التفت إلى صاحبه وقال له كالقول الأول. قال: "لا والذي لا إله إلا هو". فانطلقا حتى أتيا نهراً عظيماً ليس فيه معبر ولا صرفة. فقال عيسى لصاحبه: "كلما رفعت قدمي ضع قدمك موضعه". ففعل ذلك وعبرا النهر. قال له عيسى: "بربّ هذه القدرة ألست صاحب الرغيف؟"، قال: "لا والذي لا إله إلا هو".

ثمّ انطلقا فأتيا غير بعيد، فرأى عيسى ثلاث لبنات من ذهب، قال لصاحبه: "لبنة لك ولبنة لي". قال: "واللبنة الأخرى لمن هي يا روح الله؟"، قال عيسى: "أنت أكلت رغيفاً وأنا أكلت رغيفاً ولا يجوز لنا أن نأخذ إلّا على قدر ما أكلنا"، فقال: "أنا صاحب الرغيف الآخر أكلته وأنت في الصلاة"، قال عيسى: "فهي جميعاً لك".

وانطلق عيسى وتركه.

أما الرجل فبقي قائماً عليهن لا يقدر على حملهن، كلما أراد حملهن ثقلن عليه. وبينما هو كذلك إذ مرّ به ثلاثة أنفار، لما نظروه إلى الثلاث لبنات وثبوا عليه فقتلوه وأقاموا عليها. فقال اثنان لواحد منهم: "انطلق إلى بعض هذه القرى فآتينا بطعام نأكل، وشيئاً نحمل عليه هذه اللبن". فذهب صاحبهما وتشاورا عليه وقالا: "إذا جاء وثبنا عليه نقتله ونقتسم أنا وأنت اللبن". وأما الذي ذهب يشتري الطعام فقال: "أعمل لهما في الطعام سماً يأكلانه فيموتان، فآخذ أنا اللبن كلها". ثم اشترى طعاماً وسمّاً وحمله إلى صاحبيه، فما كان إلّا أن وضعه حتى وثبا عليه فقتلاه. ثم جلسا يأكلان ما أتى به صاحبهما، فما كان إلّا أن أكلاه فماتا. فمرّ بهم عيسى – عليه السلام – بصر بهم مصروعيْن حوله واللبن ملقاة بينهم. قال: "هكذا تصنع الدنيا بأهلها. كل هؤلاء في النار".

نجاح شمعون في أنطاكية حيلة شمعون الصفا – عليه السلام –. ذكرها الثعلبي في تفسير القرآن.

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} (يس 13 ، 14). الثالث هو شمعون الصفا. وذلك أنّ عيسى ابن مريم – عليه السلام – أنفذ إلى أنطاكية رجلين اسم أحدهما برنابا والآخر بولس. فأتياها ولم يصلا إلى الملك وطالت مدتهما.

فخرج الملك ذات يوم، فكبّرا وذكرا الله. غضب الملك وأمر بهما، فأُخذا وجُلدا وحُبسا. لمّا علم عيسى بذلك بعث رأس الحواريين شمعون الصفا لينصرهما ويستخلصهما. فدخل البلد متنكّراً، وجعل يعاشر خواص الملك، يريهم الآيات حتى آمنوا به وانتسبوا إليه، فرفعوا خبره إلى الملك، ثم دعاه فرضي عشرته وأنس به وأكرمه.

وبينما هم في بعض الليالي، ذكر شمعون للملك وقال له: "بلغني أنك حبست رجلين في السجن بعد ضربهما حين دعواك إلى دين غير دينك، فهل ناظرتهما أو سمعت قولهما؟". قال الملك: "أحال الغضب بيني وبين ذلك". قال: "فإن رأى الملك أن يحضرهما حتى ننظر ما عندهما". أمر الملك بإحضارهما، فقال لهما شمعون: "من أرسلكما إلى ها هنا؟"، قالا: "الله الذي خلق كل شيء". قال لهما شمعون: "من أرسلكما إلى ها هنا؟"، قالا: "الله الذي خلق كل شيء"، فقال لهما شمعون الصفا: "وأوجزا"، قالا: "إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد". قال شمعون: "وما آتيكما؟"، قالا: "ما تتمنّى". فأمر الملك بإحضار غلام مطموس العينين، قال لهما شمعون: "ادعوا إلهكما أن يجعل له عينين". فما زالا يدعوان ربّهما حتى انشقّ له موضع العينين، وأخذا بندقتي طين فوضعاها موضع عينيه فصارتا مقلتين يبصر بهما. تعجّب الملك من ذلك، فقال شمعون للملك: "إن أنت دعوت إلهك أن يفعل مثل هذا كان لك الشرف لا عليك". فقال الملك: "ليس لي عنك سرّ مكتوم. إن آلهتنا التي نعبدها لا تسمع ولا تبصر ولا تضرّ ولا تنفع". وكان شمعون إذا دخل مع الملك إلى صنمه صلّى وتضرّع وبكى حتى ظنّوا أنه على ملتهم.

ثمّ قال الملك للرسولين: "إن قدر ربّكما على إحياء ميت آمنا به وبكما". قالا: "إنه قادر على كل شيء". قال الملك: "إن ها هنا ميت قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن دهقان لي. وقد أخرتهم عن دفنه حتى يأتي أبوه فيدفنه. فأحضروه، فقد أروح وتغيّر". فجعلا يدعوان الله علانية، وشمعون يدعو سرّاً حتى قام الميت وقال لهم:

"إني متّ منذ سبعة أيام مشركاً، فأدخلني في سبع أودية من النار، وأنا أحذّركم ما أنتم فيه. فآمنوا بالله، وها هي أبواب السماء قد فتحت، وهذا شاب حسن الشباب يشفع لهؤلاء الثلاثة". فقال الملك: "ومن الثلاثة؟"، قال شمعون: "وهذين"، وأشار إلى صاحبيه. فتعجّب الملك من ذلك. ولمّا علم شمعون ما عند الملك قال: "أما تقول لإلهك يحيي لنا ميتاً، أو ترجع إلى ديننا، أو تنادي بين الرعية أن آلهتنا لا تضرّ ولا تنفع، وإلّا دعونا عليك، فهلكت أنت وبلدك". فآمن الملك ومن معه وخواص أصحابه وبقي شمعون عندهم إلى أن قبضه الله تعالى.

رفع الحجر الأسود حيلة النبي – صلى الله عليه وسلم – في رفع الحجر الأسود.

رواه محمَّد بن عمر الواقدي في كتابه المعروف ب مولد النبي – صلى الله عليه وسلم – . قال: حدّثني محمّد بن عبد الله عن الزهري عن محمد بن حريز بن مطعم، قال: لما انتهوا إلى حيث يوضع الحجر من الركن، قالت كل قبيلة: "نحن أحقّ بوضع الحجر". واختلفوا حتى خافوا الفتنة فيما بينهم. فقام أبو أميّة بن المغيرة وقال: "يا معاشر قريش إنّما أردنا البرّ لا الشر، وقد اختلفتم وتشتّت أمركم. فاجعلوا أول من يدخل من باب بني شيبة هو الذي يحكم بيننا"، قالوا: "رضينا وسلمنا". وكان شريفاً مطاعاً.

فكان أول من دخل من باب بني شيبة النبي – صلى الله عليه وسلم –، فلمّا رأوه قالوا: "هذا الأمين الصادق. فقد رضينا بما يقضي بيننا". ثمّ أخبروه الخبر، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "أنا أدعكم كلكم ترفعونه". ثم رفع إزاره ووضع الحجر في وسطه ثم قال: "يأتي من كل ربع من أرباع قريش رجل". وكان في ربع بني عبد مناف عقبة بن ربيعة، وفي الربع الثاني أبو ربيعة الأسود بن المطلب، وفي الربع الثالث أبو حديفة بن المغيرة، وفي الربع الرابع قيس بن عدي. ثم قال – صلى الله عليه وسلم –: "ارفعوه جميعاً". فرفعوه. فشاله النبي – صلى الله عليه وسلم – ووضعه في موضعه وأرضاهم بقوله.، وكان الفخر له – صلَّى الله عليه وسلم –.

اللجوء إلى الغار حيلة النبيّ – صلى الله عليه وسلم – ليلة لجأ إلى الغار.

وذلك لمّا خرج النبي – صلى الله عليه وسلم – خاف أن يتبعوه، فأمر عليّ بن أبي طالب – عليه السلام – أن ينام موضعه ويتّشح ببردته. قال له: "لا يخلص منهم إليك شرٌّ إن شاء الله"، ففعل ذلك. ولمّا كان نصف الليل جاءه المشركون وأحاطوا به وهمّوا أن يبطشوا به ظنّاً أنه النبي – عليه الصلاة والسلام –، ففتح عينيه، رآهم فتنحنح. عرفوا صوته وهربوا منه. فمنهم من وقع، ومنهم من مات، ومنهم من تكسّر، ومنهم من نجا.

وسبب قصدهم لعليّ أنّ رجلاً أتى إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وأعلمه أنّ المشركين قد اجتمعوا وتواعدوا في هذه الليلة أن يأتوك فيقتلوك. فلجأ النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الغار لأمر يريده الله ونام علي موضعه.

الجار المؤذي حيلة أخرى له – عليه الصلاة والسلام –.

ذلك أن رجلاً أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: "يا رسول الله إن جاري يؤذيني وقد نهيته مراراً فلم ينته". فقال: "انطلق وأخرج متاعك إلى الطريق". انطلق الرجل فأخرج رحله وألقاه على قارعة الطريق. فقالوا له: "ما شأنك؟"، قال: "فلان جاري يؤذيني وقد شكوته إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنهاه مراراً فلم ينته، أعلمته ذلك فقال أخرج رحلك فألقه على الطريق".

فجعلوا يقولون: "لعنه الله، اللهم ألعنه في الدنيا والآخرة". فبلغ الرجل ذلك، أتاه واعتذر إليه وقال: "لا أعود، ارجع إلى بيتك". فرجع الرجل إلى منزله آمناً مطمئناً.

جيرة المستغيث حيلة أخرى له – عليه الصلاة والسلام –.

مرّ به رجل هارب من قوم وناداه: "يا محمّد أغثني فإن خلفي من يطلب دمي". فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "امضِ لوجهك لأصُدّ عنك الطلب". فمضى الرجل وقام النبي – صلى الله عليه وسلم – وجلس موضعاً آخر غير موضعه الأول. فأتى القوم يتعادون، وقالوا: "يا محمَّد جاز بك شخص نعته وصفته كذا".

فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "والذي نفسي بيده منذ حللت موضعي هذا ما جاز عليّ أحد". فصدّقه القوم لما يعرفونه من صدقه وطلبوا غير الطريق، ونجا الرجل بنفسه.

تغطية الانسحاب من حيلة أخرى له – عليه الصلاة والسلام – أنه قال: "إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليزمّ أنفه وينصرف كأنه رعف".

العجائز من حيلة أخرى له – عليه الصلاة والسلام – على سبيل المزاح أنّه رأى في بعض منازله عجوزاً، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم –: "إن العجائز لا يدخلنَ الجنّة".

فبكت العجوز، وضحك النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى أن بانت نواجذه وقال: "إنما يدخلنَ بنات أربعين سنة".

بياض في عينه أتت إليه امرأة قالت له: "إن بعلي يدعوك"، قال: "من بعلك؟"، قالت: "فلان"، قال: "الذي في عينه بياض؟"، قالت: "والله ما في عينه بياض"، قال: "بلى والله في عينه بياض". فأتت بعلها وجعلت تنظر في عينه، فقال لها الرجل: "ما بالك؟"، قالت: "إن النبي – صلى الله عليه وسلم – ذكر أن في عينك بياضًا". ضحك الرجل وقال: "أليس فيها بياض وسواد؟".

ابن البعير أتت إليه امرأة فقالت: "يا رسول الله احملني على بعير إلى أهلي"، قال: "احملوها على ابن بعير"، قالت: "يا رسول الله ما أركب إلّا على بعير"، قال: "ما عندنا إلّا ابن بعير"، قالت: "ما أركب إلّا على بعير". فضحك النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: "هل بعير إلّا من بعير"، فركبت المرأة وانصرفت إلى أهلها.

فصْل في حِيَل من ادّعى النبوّة المصباح العجيب زعم الواقدي أنّ رجلاً من يربوع يُقال له جندب بن كلثوم يلقّب بكرداب، ادّعى النبوّة على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. كان يزعم أنّ دليل نبوّته أن يُسرج نشابة الحديد أو الطين المعجون المهيّأ كالشمع. وحيلته في ذلك أنه كان يطلي المسامير وغيرها بدهن البلسان، ثمّ يشعلها فتشتعل مثل الشمعة. ومثل هذا العمل إلى يومنا هذا في بيعة بالرها وفي بيعة قيامة القدس. ذلك أن القيّم إذا ساوى القناديل جعل على رأس كل فتيلة خيطاً

من البلقك، مشدوداً به، مروياً بدهن البلسان والخيط نافذ من سقف القبّة إلى ثقب صغير. فإذا أراد الوقود واجتمع الناس في داخل القبّة، طلع القيّم إلى سطح القبّة وقرّب النار من طرف الخيط. لم يشعر أحد فيشتعل في الحال لأجل دهن البلسان نازلاً في الخيط على سمته حتى يصل إلى رؤوس القناديل، مرواة بالنفط الطيّار، فتشتعل، فيزعم الديهان أن هذا نور نزل من السماء فأشعل القناديل. ويُفتن به جهّال الناس من النصارى ونسائهم وأعمائهم وضعفاء الدين من المسلمين. وحكى أنه كان في القدس متولٍ يُقال له أشير الدولة عمد إلى الوقت الذي يشعل فيه هذا القنديل وصعد إلى سطح الكنيسة، وأتى إلى أعلى القبّة وحفظ الموضع الذي تنزل منه النار.

فلم يمكن القيّم من ذلك، وأبطأ على الناس، فبذلوا له مئة دينار وقالوا له: "إن الملائكة لا تنزل وها هنا من لا يؤمن بالمسيح"، فعلم أنها حيلة فأخذ الذهب وكتمها.

شعر الأقرع منهم مسيلمة الكذّاب، هو من بني حنيفة ويفري اليمامة. كان يزعم أن دليله على نبوّته أن يمرّر يده على رأس من عليه شعر حسن، فيقبح ويتناثر شعره. ويتفل في الماء العذب فيصير ملحاً، ويمسح يده على رأس الأقرع فيصير له شعرًا.

حيلته في ذلك أن يأخذ دسم الإوز وسم الأفاعي وذراريح ويعمله كهيئة المَرْهَم، ويمرره على الشعر، فيندثر ويسقط في الحال.

وله دواء آخر يعمله إذا لطخ به رأس الأقرع نبت الشعر، وهو أن يأخذ صفار البيض فيسقيه بدهن وزن خمسة دراهم. فترجل بنار ليّنة في إناء نحاس، ويخلط معه بيض البوم وعظم محرق ومني الرجال، ويطلي بها يده ويمررها على رأس الأقرع فينبت له الشعر. وقد ذكر جماعة من الأطباء هذا الدواء واتفقوا عليه.

لا يأكلك الأسد منهم كهيس الكلابي، كان يزعم أن الله أوحى إليه: "أيّها الجائع اشرب الماء تشبع ولا تقرب الذي لا ينفع فإنه ليس بمقنع". وزعم أن دليله على نبوّته أن يطرح بين يدي السباع الضارية فلا تأكله. وحيلته في ذلك أن يأخذ دهن الغار وحجر الفرسان ومستقاء محرقة وزبد البحر وصدف محرق وشحم الحنظل وبصل العنصل، فيغلي الجميع في الشيرج، ويدهن به بدنه. فإذا شمّت السباع تلك الرائحة تفرقت لخاصيتها، ولا تقربه فتهرب منه. وزعمت الأطباء أنّ السبع إذا عضّ من طلي بهذه الأدوية ضرس، وخدر فمه، ووقعت أضراسه، وهلك في يومه.

ثيابٌ لا تحرقها النار منهم أبو جعوانة في الطائف، ادّعى النبوة وكان يلعب بالنار ويمشي عليها، ويلقي قميصه عليها وهي تشتعل فتخمد. حيلته في ذلك أنه كان يأخذ بيابن وكثيراء بيضاء وخطمي بيضاء وطلق. يسحق الكل ويخلطه مع بياض البيض، ويلطخ به يديه ورجليه ويلعب بالنار فلا تؤذيه. كان له قميص ملطوخ من هذه الأدوية، فهو يقع على النار فلا تعمل فيه شيئاً وربما خمدت. وكان معه منديل من ريش السمند يلقيه على النار فلا يحترق.

إدخال البيضة في القنينة منهم حنظلة بن يزيد الكوفي، كان يُعرف بالشقي. وزعم من نقل الأخبار أنه كان أطرف من تنبّأ. كان يزعم أن دليله على نبوته أنه يدخل البيضة إلى القنينة ويُخرجها منها إذا شاء، وهي صحيحة. ذلك أنه كان يأخذ البيضة ساعة ما تضعها الدجاجة، فيضعها في خل الخمر والنوشادر ثلاثة أيام، فتبقى شبه العجين الرقيق. يأخذ قنينة يملأ نصفها ماء، ويسرح البيضة من رأس القنينة فتنزل إلى الماء وتجمد. يسيل الماء فتبقى البيضة وحدها. وقد رأينا في زماننا من يعمل في قنينة نارنجة واترنجه ورمانة وخيارة وقثاءة وأشباه ذلك. وذلك أنه يأخذ الذي يريد أول ما قد عقد ويجعله بعوده في القنينة ويشدها في الشجرة إلى أن تكمل. ثم يقطع العرق منها فتبقى داخل القنينة. هذا رأيناه كثيراً وعملناه.

ثور النحاس منهم زرادشت، كان قبل الإسلام قد ادّعى النبوة وعمل ثوراً من نحاس يخور كما الثور. وذلك أنه اتخذ ثوراً من نحاس، وعمل له ثقبين وجعل كفله مع أصل الحائط، وجعل خلفه من وراء الحائط منفاخاً مثل منفاخ الحداد في بيت لطيف خفي لا يهتدي أحد إليه. وكان يدخل ابنه ينفخ بذلك المنفاخ فتحصل الريح في جوف الثور. وله عينان وأذنان ومنخران وفم يطلع منه الريح، فيسمع له خوار شديد ويبقى على ذلك مدة.

الصنم السحري منهم مصعب بن الزبير، ادّعى النبوة، ودليله عليها أن له صنماً يلقي إليه أشرار الناس، وأنه يعلم الغيب. وذلك أنه اتخذ بيتاً مبيضاً مليحاً، وعمل في وسطه صنماً كبيراً أصفر يسمع آدمياً. إذا دخل فيه وخز منافسه سمعه وأنفه وعينيه وفمه.

وكان إذا سأله أحد أن يخبره بسره يجلس على باب البيت ويقول للشخص السائل: "ادخل وقل حاجتك لهذا الصنم، واجلس بين يديه وقل: أيها الروح الأمين بلغ رسالتي إلى النبي مصعب. ودُرْ حوله سبع مرات واخرج، ووجهك إلى الصنم إلى أن تصل إلى الباب".

فإذا سمع صاحبه الذي يختبئ في جوف الصنم أول الكلام سبق صاحب الحاجة من موضع له معمول سرب إلى جوف الصنم. فإذا دخل الرجل وقال للصنم ما يريد تلقّاه الرجل وطلع خبر به مصعب. فكان يحدّث الصنم ويحدّث الناس بما يقولون للصنم.

لغة الإشارات منهم من ادّعى النبوة وكان معه شخص آخر يفعل هذا. فيُسرّ إليه رجل بخبر، يشير ذلك الشخص إليه بإشارات من جسده، مثل ما يقول له الرجل: "سرقة".

فيضع يده على ساقه، ثم على ركبته، ثم على قفاه، ثم على هامته، ولا يتكلم ولا ينطق بحرف واحد. فيقول له الآخر: "قلت له عن سرقة ويخرق له ما يريد ويوهمه ما يشتهي". وهذه أكثر ما تعمله الطريقة.

الباب السّادس في حيَل الخلفةَ والملوك والسَّلاطينْ الدليل حيلة أبي بكر – عليه السلام – ذكرها ابن الجوزي في كتاب الأذكياء.

لمّا هاجر النبي – صلى الله عليه وسلم –، كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يركب وأبو بكر رديفه.

وكان أبو بكر يعرف الطريق لانطلاقه إلى الشام، فكان يمر بالقوم ويقولون: "مَن هذا بين يديك؟"، فيقول: "هادٍ يهديني الطريق".

وبإسناده المقدّم، إلّا أنه زاد فيه أبو الحسين بن محمد قال: حدّثنا أبو عبادة قال: حدّثنا أبو سلمة بن الأكوع قال: لمّا خرج النبي – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر من الغار، ركب أبو بكر خلف النبي – صلى الله عليه وسلم – فكان كلّما مرّ بقوم يقولون: "يا أبا بكر من هذا؟"، فيقول: "دليل يدلني الطريق".

الثوب المخروق حيلة لعمر بن الخطاب – عليه السلام – ذكرها أيضاً ابن الجوزي في كتاب الأذكياء .

قال: قدمت على عمر بن الخطاب حلل من اليمن من الغنائم ليقسمها على المسلمين، فرأى منها حلة رديئة.

فقال: "كيف نصنع بهذه الحلة إن أعطيتها أحداً لم يرضها؟"، فأخذها وطواها وتركها تحت ركبته، وأخرج طرفها، ووضع الحلل بين يديه، وجعل يقسم بين الناس.

دخل الزبير بن العوام وهو على تلك الحالة، فجعل ينظر إلى الحلة وقال لعمر: "ما هذه الحلة؟"، قال له عمر: "دع عنك هذه"، فقال له: "ما شأنها؟"، قال عمر: "دع عنك"، قال: "فاعطنيها"، قال: "إنك لا ترضاها"، قال: "بلى قد رضيتها". فاستوثق عمر منه، واشترط أن يقبلها ولا يردها، فرضي بالشرط، ورمى بها عمر إليه. فأخذها الزبير ونظر إليها، رآها رديئة فقال: "لا أريدها"، قال عمر: "الشرط أملك".

لتصريف البضاعة حيلة أخرى له من كتاب نثر الدر .

كان لعمر غلام يبيع الحلل، فقال له: "إذا كان الثوب قصيراً انشره وأنت جالس، وإذا كان طويلاً انشره وأنت قائم".

نشر الأخبار حيلة أخرى له: ذلك أنّ عمر بن الخطاب لمّا أسلم أحب أن يشيع إسلامه. فقال لجميل بن معمر الجمحي، وكان مشهوراً بإذاعة السر لا يكتم شيئاً يُخبَر به: "إنني قد أسلمت فاكتم عليّ واستره، ولا تُعلم به أحداً". فخرج جميل ونادى بأعلى صوته في أهل مكة: "ألَا إن عمر بن الخطاب قد أسلم فاعلموا ذاك". فشاع الخبر بإسلام عمر، وكان ذاك بإرادته.

الخنزير والفيل حيلة أخرى له.

قال المدائني صاحب كتاب المكائد والحيل : لمّا عبر المسلمون الخليج خرج إليهم أهل أرمينيا، ومعهم الفيلة فقتلوا المسلمين. وكانت الفيلة تتهمر في وجه الخيل فتنفر، والمسلمون ليس معهم رَجَّالَة.

فقال عمر: "ائتونا بخنازير"، فأتوه بها. قال: "اضربوها بين يدي الفيلة". فكانت كلّما سمعت صوت الخنازير جفلت وهربت، فتبعهم عسكر المسلمين، وقتلوهم وأسروهم.

الوعد الغامض حيلة لعثمان بن عفان – عليه السلام – وذلك مما رواه أيضاً المدائني أنه قال:

حضر عثمان حصناً يعرف بطميسة وضيَّقَ عليهم فطلبوا منه الأمان إن هم فتحوا لا يقتل منهم رجل واحد. ففتحوا فقتلهم غير رجل واحد.

الرجل المفقود حيلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –.

مرفوع إلى الإصبغ بن نباتة، قال: دخلنا مع علي – عليه السلام – إلى المسجد، فاستقبله صبي يبكي وحوله جماعة يسكتونه. فلمّا رآه أمير المؤمنين يبكي قال: "ما بالك يا صبي؟".

قال: "يا أمير المؤمنين إنّ شريحاً قضى عليّ بقضية ما أدري ما هي"، قال له: "وما قصتك؟".

قال: "يا مولاي هؤلاء الذين تراهم معي خرج أبي معهم في سفر وكان أبي صاحب مال، فأخذهم معه للتجارة. عاد هؤلاء ولم يعد أبي، فسألتهم عنه فقالوا إنه مات. وسألتهم عن تركته فقالوا: ما خلف شيئاً. فقدمتهم إلى الشريح فاستحلفهم وأطلقهم".

فقال علي: "لأحكمن بحكم ما حكم به إلّا داوود – عليه السلام – يا قنبر ادع بصاحب الشرطة". ثم دعاهم ونظر إلى وجوههم وقال: "أنبئوني بما فعلتم بوالد هذا الصبي"، فقالوا بلسان واحد: "مات".

ففرّق بينهم، وأوقف كل رجل مع أسطوانة من المسجد ومعه شرطي. ثم دعا بكاتبه عبد الله بن أبي رافع، فقال له: "اكتب"، وقال للناس: "إذا كبّر كبروا كلكم".

ودعا بأحدهم وقال له: "أخبرني في أي يوم مات أبو الصبي"، قال: "في يوم كذا وكذا، وشهر كذا وكذا، وسنة كذا وكذا"، قال: "في أي وقت؟"، قال: "في وقت كذا وكذا"، قال: "فمن غسله؟"، قال: "فلان".

فلما سأله عن هذا كله، كبّر وكبّر المسلمون معه. ارتاب الباقون ولم يشكوا أنّ صاحبهم قد أخطأ بحديثه. وقد أقسم عليه وعلى نفسه، فأمر به إلى السجن.

ثم دعا بآخر منهم وقال له: "لقد علمت بما صنعتم وبما أنت لا جاهل به".

قال: "يا أمير المؤمنين ما أنا إلّا واحد منهم ولقد كنت كارهاً لقتله".

فلما أقرّ جعل يدعوهم واحداً واحداً، فيقر بالقتل حتى أقروا جميعاً. أمر بهم إلى السجن وألزمهم بالدم والمال.

العاشقة حيلة أخرى له – عليه السلام –.

حضرت بين يديه امرأة قد تعلقت برجل تزعم أنه قد افتضّها، وأرتهم جنابته على ثيابها. فكانت قد أخذت بياض البيض ولطخت به ثوبها.

فاستحضر الرجل وقال له: "أخبرني وأصدق".

قال: "والله يا مولاي ما لي معها، بل هي تحبني. ولما لم أطاوعها على ما في نفسها عملت هذه الحيلة حتى أتزوج بها وأنا لا أريدها".

فقال له: "قف مكانك"، ثم استدعى المرأة وقال: "أريد أن أزوّجك به إن صدقتِني، فهل كان بينكما أمر أم لا؟". فقالت: "إنه غصبني على روحي وهذا أثره".

فقال عليٌّ – سلام الله عليه –: "يا قنبر ائتني بماء حار شديد الحرارة". أحضره له، فأخذ ثوبها وغمسه في الماء لحظة، فقبّ منه بياض البيض.

فلما رآه – عليه السلام – قال: "ما هذا سوى بياض البيض، هاتم السياط"، فجاءه السياط. وقال: "اجلدوها جلد المفتري"، وأطلق الغلام.

تخمين الضرر حيلة أخرى له – عليه السلام –.

حدثني بها السيد الأجلّ المنعم الفاضل جمال الدين سيد الأصحاب أبو عبد الله حسين الرقام قال:

قرأت في بعض الكتب في مدرسة السَّراي برأس سوق السلطان ببغداد:

أنّ رجلين ارتفعا إلى علي بن أبي طالب – عليه السلام – وذكر أحدهما أن الآخر ضرب عينه بحجر نقص نورها، وهو مطالب له بديتها. فقال عليّ – عليه السلام –:

"شدوا عينه المضروبة"، وأعطى الشخص حجراً وقال له: "لا تزال تبتعد بها حتى لا يراها". فما زال يمشي حتى غابت عن عينه.

ثم قال اذرعوا ما بين موضع الرجل والحجر، فذرعوه ثم حلوا عينه وسدوا العين الصحيحة وفعلوا مثل الأول. ثم ذرعوا بين الموضعين، فنقص ثلث الموضع، فألزمه ثلثي الدية للعين.

عندما تنكر الأمّ ابنها حيلة أخرى له – عليه السلام –.

ذلك أن صبياً تعلّق بامرأة ادّعى أنها أمّه، وأنكرته، وأنّ أباه خلف مالاً وقد أخذته أمّه دونه. فرفعا إلى عليّ – عليه السلام –.

سألها، فأنكرت وقالت: "لي شهود أنني ما تزوجت". فطلب الشهود، حضروا وشهدوا أنها لم تتزوج، وأنّ هذا الصبي مدسوس عليها.

قال عليّ – عليه السلام –: "ائتوني بقابلة". أتوه بها، فقال: "انظري هل هذه بكر أو ثيّب". فأدخلتها المشراح، وضمنت لها الصبية مئة دينار على أن تقول إنها بنت بكر. فخرجت القابلة وقالت: "يا مولاي الصبية بنت بكر".

فقال عليّ – عليه السلام –: "يا صبي قد شهدوا لها أنها بنت وأنها ما تزوجت".

فقال له الصبي: "يا عليّ أين العلم الذي علّمك رسول الله – صلّى الله عليه وآله – وورثته منه". فقال له: "حاضر". ثم زعق بالصبية ثم قال لها: "ألك أحد؟"، قالت: "ما لي إلّا الله تعالى". ثم قال للصبي: "ألك أحد؟". قال: "ما لي إلّا الله"، فقال للصبي: "مدّ يدك، قد زوجتك هذه الصبية على صداقٍ مبلغه مئة دينار"، فقال الصبي: "قبلت هذا النكاح". وكان عليّ – عليه السلام – قد علم الصبي سرّاً بقبول النكاح، فقال له: "قم وخذ زوجتك".

فقام الصبي وقبض على الجارية. ولما تحققت الجارية ذلك قالت: "يا عليّ هكذا أمرك رسول الله – صلّى الله عليه وآله – أن تزوّج الأولاد بالأمّهات. هذا والله ولدي ما أخسر الدنيا والآخرة"، فأصلح بينهما وانطلقا.

وأحضر الشهود والقابلة وجلدهم جلد من كذب وحبسهم.

النصابان حيلة أخرى له – عليه السلام –.

ذلك أنّ نفرين أتيا امرأة فأودعاها مئة دينار وقالا لها: "لا تسلميها لأحد منّا دون حضور الآخر".

ومضيا عنها حولاً، فجاء أحدهما إليها وقال: "إن صاحبي مات فادفعي إليّ المال". أبت وقالت: "لن أسلّمه حتى تحضرا جميعاً". فتثقل عليها وجيرانها، ولم يزالوا بها حتى دفعت إليه المال.

ثم لبثت حولاً آخر، فجاء صاحبه وقال لها: "ادفعي إليّ المال". قالت: "إن صاحبك جاءني وقال إنك مت فدفعت الذهب إليه". فاختصما وارتفعا إلى عليّ – عليه السلام –، وقصّا عليه قصتهما، فعرف أنهما قد مكرا بها.

فقال عليّ – عليه السلام –: "إن الذهب عندي، أحضر صاحبك كما ذكرت وخذ الذهب فلا يجوز أن تسلّمه إلى أحد منكما دون حضور صاحبه"، فترك الرجل المرأة وذهب.

الزوج العنين حيلة أخرى له – عليه السلام –.

جاءت امرأة إلى عليّ – عليه السلام – وشكت أن زوجها عنين لا يقدر على المجامعة، فأحضر زوجها وسأله عن ذلك فأنكر. وكان الزوج يحبها ولا يشتهي فراقها وهي تختار فراقه.

فاستدعى أمير المؤمنين – عليه السلام – القابلة، وأمرها أن تحشوَ فرجها خلوقاً ولا يعلم زوجها بذلك. ثم أمره بإتيانها، وأعطاه منديلاً يتنشف فيه ويريه إياه.

فلما خلا بها لم يطق على الفعل وخرجا. فطلب عليّ – عليه السلام – المنديل، فلم يجد فيه للطراق أثراً. فقال له: "أنت عنين لا محالة"، وطلقها منه.

كذب الزوجة حيلة أخرى له – عليه السلام –.

جاءت إليه امرأة ادّعت أنّ زوجها عنين، فأنكر الزوج ذلك.

قال عليّ – عليه السلام – لقنبر: "يا قنبر اذهب به إلى النهر وأنزله فيه إلى صرته وأوقفه ساعة وأخرجه. فإن رأيت ذكره تقلص وتقنفذ فاعلمني وإن لم يتغير فاعلمني".

فأخذه قنبر ومضى به إلى النهر، وأنزل الرجل إلى صرته، وأوقفه ساعة وأطلعه وذكره قد تقلص وتقنفذ، فأخبر أمير المؤمنين بذلك. فقال للرجل: "خذ زوجتك وانصرف إنها كذابة".

التفرقة بين الشهود حيلة أخرى له – عليه السلام – مع اليتيمة التي شهدوا عليها بالزنى.

ذلك ما ذكره ابن أبي عمير عن معرية بن وهب عن أبي عبد الله، قال: إنّ عمر بن الخطاب أتوه بجارية قد شهدوا عليها بالزنى.

وكان من حديثها أنها كانت يتيمة عند رجل يربيها قربة لله تعالى، وكان الرجل كثير الأسفار.

فنشأت اليتيمة وكبرت وحسنت وبلغت مبالغ النساء.

خافت التي هي في بيتها أن يتزوجها زوجها عليها، وكانت امرأة الرجل دون الصبية في الحسن والجمال بشيء كثير. فسقتها الخمر بغير علمها، ولما سكرت الصبية ثقبتها المرأة بإصبعها.

لما قدم زوجها من سفره، قالت له زوجته: "إن اليتيمة قد زنت وثقبت واستشهدت النسوة على ذلك"، فشهدن وساعدنها على عملها.

فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فلم يدرِ ما يحكم فيه. وقال للرجل: "انهض بنا إلى علي بن أبي طالب – عليه السلام –". فأتوه وهو في المسجد وقصوا عليه القصة.

فقال للمرأة: "ألك شاهد وبيّنة؟"، قالت: "جاراتي يشهدنَ بذلك"، فقال: "أحضريهن"، فأحضرتهن. فسلّ عليّ سيفه وطرحه بين يديه، ثم أمر بكل واحدة منهن أن تدخل بيتاً وحدها.

ثم استدعى امرأة الرجل وضاربها بكل وجه فلم تصدق. فأدخلها بيتاً واستدعى بإحدى الشهود. وجثا على ركبتيه وقال لها: "تعرفيني أنا عليّ وهذا سيفي، وقد قالت امرأة الرجل ما قالت وأعطيتها الأمان، فإن لم تصدقيني لاملأنّ هذا السيف منك". فالتفتت إلى عمر وقالت: "يا أمير المؤمنين لي الأمان على الصدق". فقال لها عليّ – عليه السلام–: "أصدقيني".

قالت: "والله ما زنت الصبية وإنما امرأة الرجل فعلت كيت وكيت غيرة منها على زوجها"، وقصت القصة من أولها إلى آخرها.

فقال علي: "الله أكبر أنا أول من فرّق بين الشهود بعد دانيال". فأخذ المرأة وحدّها حدّ القذف، وألزمها بمهر الصبية، وطلّقها زوجها، وتزوّج الصبية وحدّ اللواتي شهدنَ بالزور.

كيف يوزن الفيل؟

حيلة أخرى له – عليه السلام – في وزن الفيل.

ذكروا أنّ رجلاً حلف بالطلاق ثلاثاً أن لا بدّ ما يزن الفيل. وذلك أنّه كان قد قدم إلى البصرة وجرى بسببه إيمان يحلف ذلك الشخص لا بدّ ما يزنه، فعجز عن وزنه فأخبر علياً بقصته. قال:

"أنزلوا الفيل إلى سفينة كبيرة وعلّموا أين يصل الماء من جنبيها، ثم أخرجوا الفيل وزنوا حجارة واطرحوها في السفينة حتى تلحق الماء العلامة. فما كاف وزن الحجارة فهو وزن الفيل".

معلومات خادعة حيلة معاوية.

حكى المدائني أنه كان في صفِّين، وكان عليّ – عليه السلام – قد نزل على الماء. فألقى معاوية كتاباً في عسكر علي – عليه السلام – أنّ معاوية يريد أن ينزل في المكان الفلاني، فوقع على

الماء وعسكره. ولما قصد عليّ إلى المكان لم يرَ لمعاوية خبراً، فرجع يطلب موضعه، وحال معاوية بينه وبين الماء.

الإشاعة المغرضة حيلة أخرى له.

كان قيس بن سعد عاملاً على مصر قبل علي – عليه السلام – فأشجى معاوية، فكتب إليه معاوية يستدعيه لنفسه ويمنيه. فلم يجبه قيس، فأظهر معاوية أنه قد قرأ كتابه، وخطب بذلك وكتب إلى بلاد الشام جميعها. كتب من كان عيناً لعلي – عليه السلام – فأخبره بما سمع، وعزل قيساً عن مصر. فقال له عبد الله بن جعفر: "إن هذا كيد من معاوية وقيس ناصح لك فلا تعزله". فأبى وعزله واستعمل على مصر محمد بن أبي بكر، ففسدت على علي مصر وندم علي بعزل قيس، وذلك مما أراده معاوية.

هبة بالإكراه حيلة أخرى له.

ذلك أنّ كرب بن إبراهيم بن صباح الحميري قدم على معاوية، فكتب له إلى عمرو بن العاص وهو متولٍ مصرَ بألف دينار. أتاه كرب بالكتاب، فأبى عمرو أن يعطيه شيئاً. رجع إلى معاوية يخبره، فقال له معاوية: "ما لك عشيرة تعطيك؟"، قال: "بلى". قال: "فأتيت مصر فأشِعْ أنك تخرج إلى اليمن، ثم اذهب بعشيرتك فغيروا على الرهوط وخذوا ما لعمروٍ بالطائف". فخرج كرب إلى مصر وأشاع ذلك، فبلغ عمرَ وأنفذ إليه عمرو: "وما هذا الذي بلغني؟"، قال: "هو ذلك إن لم تَقُلْ لي بجائزتي من معاوية لأفعلنّ ذلك". فقال عمرو: "والله ما هذا منك وإنما هذا برأي معاوية"، وأنفذ إليه بألف دينار.

معاوية ينعي نفسه حيلة أخرى له.

حكى المدائني في كتابه المعروف ب المكائد والحيل أنّ معاوية أرسل رجلاً إلى الكوفة ينعاه. فقيل لعلي – عليه السلام –: "إن رجلاً قدم الكوفة ينعى معاوية". فقال عليّ: "ما مات". ثم قدم راكب آخر ينعاه، فقيل لعلي. فقال: "ما مات"، فسرج رجل آخر وجاء ينعى معاوية. فقيل لعلي – عليه السلام –، قال: "والله ما مات وما يموت حتى يملك ما تحت قدمي"، وكان قصد معاوية كذلك. فصار أصحاب عليّ – عليه السلام –عامة مع معاوية يتقرّبون إليه بذلك، وتفرّقت الجموع عن عليّ إلى معاوية، وبقي عليّ في نفر يسير.

التملص من ميثاق حيلة أخرى له من تجارب الأمم.

لما قتل عليّ – عليه السلام – استخلف أهل العراق الحسن – عليه السلام –. وكان الحسن – عليه السلام – لا يريد القتال والفتنة، بل أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية، ثم يدخل في الجماعة.

عرف الحسن أن قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه، فعزله وأمر عبيد الله بن العباس. كان قيس بن سعد على مقدمة أهل العراق وهم أربعون ألفاً، بايعوا علياً – عليه السلام – على الموت. وعلم عبيد الله بما يريده الحسن أن يأخذه لنفسه من الأموال التي أصاب، فشرط له ذلك.

ثم إنّ معاوية دسّ إلى عسكر الحسن بن علي – عليهما السلام – حين نزل المدائن، إلا أن قيس بن سعد قد قُتل. فتفرقوا وأحاطوا بسرادق الحسن حتى نازعوه فراشه الذي كان تحته وأخرجوه.

خرج الحسن – عليه السلام – حتى نزل المقصورة البيضاء في المدائن، وكتب إلى معاوية يطلب منه الأمان. فقال الحسن للحسين – عليهما السلام – ولعبد الله بن جعفر: "إني كتبت إلى معاوية أطلب منه". فقال له الحسين: "أنشدك الله أن لا تصدّق أحدوثة معاوية وتكذّب أحدوثة علي".

فقال الحسن: "اسكت فإني أعلم منك بالأمر". واشترط الحسن على معاوية أن يجعل له ما في بيت المال وخراج ذلك الحول وعلى أن لا يشتم علياً وهو يسمع.

كان الذي في بيت المال خمسة ألف ألف. وكان معاوية قد أرسل قبل أن تردّ عليه صحيفة الحسن بالشرط صحيفة بيضاء مختومة على أسفلها، وكتب إليه أن "اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت على أسفلها ما شئت فهو لك". فما أتت الصحيفة إلى الحسن اشترط فيها أضعاف الشروط التي كان سألها قبل ذلك، وأمسكها عنده وتمسك معاوية بصحيفة الحسن التي كان قد كتبها.

فلما التقى معاوية والحسن، سأله الحسن أن يعطيه الشروط التي في السجل المختوم بختم معاوية في أسفله. فأبى معاوية أن يعطيه وقال: "ما أعطيك إلا ما سألتنيه بخطك"، فاختلفا وتنازعا ولم ينفّذ للحسن من تلك الشروط شيئاً.

حيلة الساعة الأخيرة حيلة أخرى له عند موته.

ذلك لمّا حضرته الوفاة، أوصى إلى ولده بأشياء من جملتها أنه قال: "لا ينزلني قبري إلا عمرو بن العاص. فإذا ألحدني وسوّى عليَّ اللبن، وأراد أن يطلع فلا تتركه أن يطلع من الحفرة حتى يبايعك. وإن لم يفعل فاشدخ رأسه بالسيف، فما أخاف عليك إلّا منه ومن الحسين بن علي – عليهما السلام –".

فلما قضى معاوية نحبه، وحملوه إلى قبره، وصلوا عليه أمر يزيد لعمرو بن العاص أن يلحده. فلما ألحده وهمّ بالخروج سلَّ يزيد سيفه، وقال لعمرو: "إما أن تبايعني أو ألحقك به". فقال له عمرو: "ما هذا منك والله إن هذا من هذا"، وأشار إلى معاوية ورفسه على صدره، وبايع ليزيد وطلع وهو يلعن معاوية.

الحليب المسموم حيلة مروان[6] بن الحمار من تاريخ الطبري.

إنّ مروان حبس إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في جب في الرقة. وكان معه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وشرحبيل بن معاوية، وهشام بن عبد الملك، كانوا يتزاورون، وكان أكثرهم صحبة ومعاشرة إبراهيم وشرحبيل. فأبلغ مروان ذلك، خاف على نفسه منهما فأخذ لبناً وسمّمه، وبعثه مع غلام من بعض الغلمان. وقال له: "مرّ به إلى إبراهيم وقل له: قال لك أخوك شرحبيل: اشرب هذا اللبن فقد استطابه واشتهى أن تشربه".

فمضى الغلام كما أمر وبلّغ رسالته. فتناوله وشرب منه ومضى الغلام. ووثّب من ساعته وتكسل جسده، وأبطأ في ذلك اليوم عن شرحبيل. فأرسل إليه شرحبيل:

"جعلت فداك قد أبطأت اليوم عني فما حبسك؟". فأرسل إليه: "إني لما شربت اللبن الذي أرسلت إليّ ألحقني كسلاً".

فأتاه شرحبيل وهو مذعور وقال له: "لا والله الذي لا إله إلا هو ما شربت اليوم لبناً ولا أرسلت إليك. إنا لله وإنا إليه راجعون. احتيل عليك وسممت فوالله ما تصبح إلا ميتاً". وتولى بعده السفاح[7]
.

قتل دون شهود حيلة المنصور.

ذلك لما كتب ابن المقفع لعبد الله بن علي نسخة كتاب الأمان الذي أخذه على المنصور. كتب إلى سفيان بن معاوية النميلي يأمر بقتله، فاستأذن عليه مع الناس، وحجبه حتى خرج الناس ثم أذن له فقتله. أخذ سليمان وعلي أبناءه على سفيان وأشخاصه إلى المنصور، وأحضروا شهوداً يشهدون عليه بقتله. فأحضرهم المنصور وقال لهم: "انظروا في أمره". ثمّ أحضر الشهود وقال لهم: "إذا أنا قتلت سفيان بشهادتكم ثم خرج ابن المقفع عليكم من هذا الباب أيكم ينصّب نفسه لأقتله بسفيان؟". فلما سمعوا ذلك رجعوا عن الشهادة ودُرِئ عن سفيان الحد.

عقاب الشاعر السكير حيلة أخرى له مع ابن هرمة.

دخل ابن هرمة على المنصور فأنشده. فقال: "سَلْ حاجتك". فقال: "تكتب إلى عمالك في المدينة متى وجدوني سكران فلا يحدوني".

فقال له: "هذا حد الله ولا سبيل إلى تركه". قال: "فما لي حاجة غير هذا". ففكر المنصور ساعة ثم كتب إلى عامله في المدينة: "من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده ثمانين جلدة واجلد الذي يأتيك به مئة جلدة".

فكان الشرطي يمرّ بابن هرمة سكران، فيقول من يشتري مئة بثمانين.

عطر المنصور حيلة أخرى له.

رُوي أنه جلس في بعض خوخاته التي ينظر منها إلى السوق، فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يخور في الطرقات، فأرسل خلفه.

لمّا حضر سأله عن حاله فأخبره الرجل أنه كان له مع زوجته مال وأسبان، وأنه سرق من بيتها، ولم ترَ نقباً ولا تسلقاً ولا باباً مفتوحاً.

قال له المنصور: "منذ كم تزوجتها؟"، قال: "منذ سنة"، قال: "فبكر أخذتها أم راجع؟"، قال: "راجع"، قال: "فهل لها ولد من غيرك؟"، قال: "لا"، قال: "صبية هي أم عجوز؟"، قال: "صبية".

فدعا له المنصور بقارورة فيها طيب كان يتخذه لنفسه حاد الرائحة غريب النوع. فدفعها إليه وقال له: "تطيّب بهذه القارورة فإنها تذهب عنك همّك".

فلمّا خرج الرجل من عند المنصور قال المنصور لأربعة من نقبائه: "يقعد كل واحد منكم على باب من أبواب المدينة فمن شمّ منه رائحة هذا الطيب آتوني به".

وأمّا الرجل فإنه أتى بالطيب زوجته وقال لها: "هذا وهبه لي أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور". فلمّا شمّته بعثت إلى الرجل الذي تحبّه وقد كانت أعطته المال وقالت له: "تطيّب بهذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي".

فتطيّب منه الرجل ومرَّ مجتازاً ببعض أبواب المدينة. فاشتمّ الرجل الموكل رائحته، فلزمه وأتى به إلى المنصور. فقال له المنصور: "من أين لك هذا الطيب؟ فإن رائحته طيّبة عجيبة"، قال: "اشتريته"، قال: "أخبرنا ممّن اشتريته؟"، فتلجلج في كلامه واختلط.

فدعا المنصور صاحب الشرطة وقال له: "خذ هذا الرجل إليك فإن أحضر لك كذا وكذا من المال فدعه يذهب. وإن لم يحضره فاضربه إلى أن يموت من غير مؤامرة".

فلمّا خرجا من بين يديه دعا بصاحب الشرطة وقال: "هول عليه وجرّده ولا تضربه حتى يأتيك أمري". فخرج به صاحب الشرطة وأحضر السياط وجرّد الرجل وضرب الأوتاد. فلمّا تحقّق الرجل أنه مضروب أذعن ليدلّ على المال، فأمر بإحضاره فأحضره بعينه ولم ينقص منه شيء. وأعلم المنصور بذلك، فردّه على صاحبه وطلّق زوجته منه.

استشارة حيلة أخرى له.

خلا يوماً أبو جعفر المنصور مع يزيد بن أبي أسيد، فقال له: "يا يزيد ما ترى في قتل أبي مسلم[8] ؟". قال: "أرى أن تقتله وتتقرّب إلى الله بقتله، فوالله ما يصفو لك ملكك، ولا تهنأ بعيش ما بقي". قال يزيد: "فنفر منّي نَفَرةً ظننت أنه سيأتي عليّ". ثم قال: "قطع الله لسانك وسلّط عليك عدوك،

أتشير عليّ بقتل أنصر عباد الله لنا وناصرنا على عدونا. أما والله لولا حفظي ما سلف منك لأعددتها هفوة من هفواتك ولضربت عنقك، قم عني لا أقام حيلك".

قال يزيد: فقمت وقد أظلم بصري وتمنيت أن تسيخ الأرض بي. فلمّا قتله قال لي: "يا يزيد أتذكر يوماً شاورتك في قتل أبي مسلم؟". قلت: "نعم يا أمير المؤمنين".

قال: "كان ذلك والله في نفسي وما أشكّ فيه لكن خشيت منك أن تشيعه فيسمعه فينجو"، فقلت لك ما قلت.

استخدام الأموال العامة حيلة أخرى له.

حدثنا أبو الربيع سليمان بن أيوب المدني بإسناده أنّ المنصور أخرج مالاً في الكوفة وقال: "ادفعوا إلى كل رجل خمسة دراهم". لمّا فعلوا ذلك علم عددهم، قال:

"خذوا الآن من كل شخص أربعين درهماً". فاجتمع من ذلك مال عظيم. وأمر أن ينفق في عمارة السوق والخندق. فقال شاعرهم في ذلك:

القتل بحادث حيلة أخرى له على عمّه.

ذلك لمّا قتل أبو مسلم الخراساني أشغل الجند بالأرزاق، وأنقص أهل الري، فبعث إليهم المنصور جيشاً، فقتلوا الخوارج وسبّوا ذراريهم، وأعطى عمّه عبد الله الأمان أنه متى رآه لم يُعرض عنه بوجهه.

فلمّا جيء به، أمر به فحبس في بيت بُني أسّه على حجارة الملح، وأمر الفراشين بغسله كل يوم مرتين. فنزل الماء في أساس الحائط، وذاب الملح وسقط البيت على عمّه فمات.

مهمة سرية حيلة حتى وقف على أخبار بني عمه الذين أرادوا قتله وتولي الأمر من بعده.

ذلك أن عمّه حفص أوفد وفداً من السند، منهم عقبة بن مسلم. دخلوا على المنصور، فقضى حوائجهم، وأرادوا النهوض. فأجلس عقبة ثم قال له: "من أنت؟"، قال: "رجل من جند أمير المؤمنين وخدمه"، قال: "ما اسمك؟"، قال: "عقبة بن مسلم بن نافع بن..."، قال: "ممّن أنت؟". قال: "من الأزد من بني هناة"، قال:

"إني أرى لك هيبة وإني أريدك لأمر لي لنا به مغنى. لم أزل أرتاد له رجلاً عسى أن تكون أنت، فإن كفيتنيه رفعتك". قال: "أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين بي".

قال: "فاخف أمرك واستر شخصك وأتني في وقت كذا".

فأتاه الرجل في ذلك الوقت. قال له:

إن بني عمّي هؤلاء قد أبوا إلّا كيد ملكنا واغتياله، ولهم شيعة في خراسان بقرية كذا وكذا يكاتبونهم، ويرسلون إليهم بصدقاتهم وألطاف بلادهم. فأخرج بكتب وألطاف وعين من المال حتى تأتيهم متنكِّراً بكتاب نكتبه لك عن أهل هذه القرية، ثم تستتر إذا جئتهم، فإن كانوا قد ارعووا عن رأيهم فأحب والله بهم وأقرب، وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر منهم، فاشخص حتى تلقى عبد الله بن الحسن متقشّفاً متخشّعاً. فإن جفل وهو فاعل فاصبر وعاوده حتى يستأنس بك وتلين لك ناحيته، فإذا ظهر لك ما قبله فأسرع ما كنت إليّ.

فسار حتى قدم على عبد الله بن الحسن، فلقيه بالكتاب وأنكره ونهره وقال ما أعرف هؤلاء القوم. فلم يزل ينصرف ويعود حتى قبل كتابه وألطافه وأنس به.

فسأله عقبة الجواب فقال: "أما الكتاب فلا أكتب إلى أحد ولكن أنت كتابي إليهم. فأقرّهم عني السلام، وأخبرهم أني خارج لوقت كذا وكذا". فشخص الرجل من عنده حتى قدم على المنصور، فأخبره الخبر وأخبره بأشياء كان ينتظرها منه.

وقال له أبو جعفر:

إني أريد الحج فإذا صرت بمكان كذا وكذا فإذا لقيني ابن الحسن فإني مبجله وأضع مجلسي وأدعو بالعزاء. فإذا فرغنا من الطعام وتحدثنا فامتثل بين يدي فإنه سيصرف وجهه عنك. فأته من الجانب الآخر حتى يملأ عينه منك. ثم حسبك وإيّاك بأن يراك ما دام يأكل.

خرج حتى أتى البادية، فلقيه بنو الحسن، أجلس عبد الله بن الحسن إلى جانبه، ثم دعا بالطعام وأصابوا منه ثم أمر به فرفع، وأقبل على عبد الله بن الحسن يحدّثه.

وقال له: "يا أبا محمد قد علمت ما أعطيتني من العهود والمواثيق أن لا تبغي لي سوءاً ولا تكيد لي كيداً في سلطاني"، قال: "وأنا على ذلك يا أمير المؤمنين".

فلحظ المنصور عقبة فأقبل نحوه وشاوره ساعة، وعبد الله بن الحسن ينظر. فلمّا انفصلا قال ابن الحسن: "يا أمير المؤمنين أقالك الله"، فقال له أبو جعفر: "لا أقالني إن لم أقتلك". وقبض عليه وأمر بحبسه إلى أن رأى رأيه فيه.

الإفلات من قاتل حيلة الهادي. ذكرت في سلوان المطاع .

أنّ موسى الهادي كان يوماً في بستان له على حمار بغير سلاح له، بحضرة جماعة من أهل بيته وبطانته. دخل عليه حاجب من حجابه وأخبره عن رجل من الخوارج كان ذا بأس ونكاية، وإنه قد ظفر به بعض القواد، وهو بالباب. فأمر الهادي بإدخاله، أُدخل بين رجلين قد قبضا على يديه.

فلمّا نظر الخارجي الهادي جذب نفسه من الرجلين، ثم اخترط سيف أحدهما وقصد الهادي. فقرّ كل من كان بحضرته، وثبت على حماره حتى قرب الخارجي منه.

فأشار الهادي بيده: "يا فلان اضرب عنقه". فالتفت الخارجي لينظر من خلفه، وثب الهادي وقبض عليه وعصره فأُلصق بالأرض، وأخذ السيف من يده فنحره به.

ثمّ عاد إلى ظهر حماره وتراجع إليه خاصته وأهله وقد ولّوا خوفاً ورعباً، فلم يخاطبهم واحد ولم يركب بعدها إلّا الخيل بالسلاح.

حقيقة مرض حيلة للرشيد.

لما دخل الرشيد طوس اشتدت علته وكان بختيشوع المتطبّب يغدو ويروح إليه ويعطيه الآمال الأباطيل ويمنّيه الأماني، ويقول له: "مرضك من هذا السفر".

فدعا الرشيد يوماً بالفضل وقال: "ائتني برجل عاقل من التجار أشاوره في أمري وأقضي إليه بسرّي". فجاءه برجل من أهل طوس، استنطقه فرآه عاقلاً فقال:

"تحفظ السرّ؟"، قال: "نعم". فخلا به وقال له: "خذ هذه القارورة فائت بها جبريل بن بختيشوع وقل هي قارورة ابن لي، فتأمّلها إن كان له حياة عرفني، وإن لم يكن له حياة فعرّفني".

فذهب الرجل بالقارورة، ولمّا نظرها الطبيب أقبل على أبيه. وقال: "يا أبتِ، ما أشبه هذه بقارورة ذلك الرجل، هذا ميت لا محالة". فرجع الرجل وأخبر الرشيد، فقال: "ويلي عليه ابن الزانية"، ومات بعدها بثلاثة أيام.

المأمون يضارب بالأسعار حيلة المأمون. حكى صاحب العقد ابن عبد ربّه:

إنّ المأمون كان يحبّ الجوهر وكان الناس يغالون فيه في أيامه. أراد أن يحتال بحيلة تضع من قدر الجوهر ويرخص له فيشتريه.

جمع أصحابه يوماً وخاطبهم وقال: "ما أجلَّ الذخائر". فتقرّر رأيهم على الجوهر. قال: "هاتم جوهرة". فجاؤوا بفصّ ثمنه مئة دينار، فأمر بكسره قطعاً وقال لهم: "كم يساوي الآن؟"، قالوا: "دانق". ثم أمر بدينار. قال: "كم يساوي؟"، قالوا: "عشرون قيراطاً"، فأمر بكسره قطعاً وقال: "كم يساوي الآن؟"، قالوا:

"سبعة عشر قيراطاً"، فقال: "أجلّ الذخائر هذا الذي إذا كسر ألف قطعة لم يذهب من ثمنه إلّا اليسير، لا الذي إذا كسر لم يبقَ من ثمنه إلّا اليسير". فانتشرت هذه القصة عنه، فقلّ ثمن الجوهر، وقلّت الرغبة فيه، فاشتراه رخيصاً.

المعارض القوي حيلة أخرى له مع عبد الله بن طاهر.

ذلك أن بعض إخوة المأمون قال يوماً: "يا أمير المؤمنين إنّ عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد علي بن أبي طالب – عليه السلام – وكذا كان والده من قبله". فرفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عادوا لمثل هذا القول، فتقدم إلى رجل أن يمضي في هيئة العراقة والقتار إلى مصر، وأن يدعو جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا العلوي، وأن يذكر مناقبه وفضله وعلمه وفضائله. قال له: "ثم توجه بعد ذلك إلى بطانة عبد الله بن طاهر، ثم آتيه وادعه ورغّبه في إجابته له، وابحث عن دقيق أمره بحثاً شافياً وآتني بما تسمع منه".

ففعل الرجل ذلك حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء والأكابر، جلس يوماً عبد الله بن طاهر وقد ركب إليه عبد الله بن السري بعد صلحه وأمانه. ولمّا انصرف قام إليه الرجل وأخرج من كمه رقعة فدفعها إلى عبد الله بن طاهر، فأخذها بيده، فما هو إلّا أن دخل إلى مخدعه الخاص. خرج الحاجب وأدخل الرجل عليه وهو جالس على بساط ما بينه وبين الأرض شيء، وقد مدّ رجليه وأخفافه فيهما.

فقال له: "قد فهمت ما في الرقعة من جملة الكلام فهات ما عندك". قال: "ولي الأمان على نفسي ذمة من الله معك؟"، قال: "ذلك لك"، فأظهر له ما أراد، ودعاه للقاسم وأخبره بفعله وعلمه.

فقال له عبد الله بن طاهر: "أتنصفني؟"، قال: "نعم"، قال: "هل شُكْرُ الله على العباد؟"، قال: "نعم". قال: "فهل يجب شكر بعضهم على بعض عند الإحسان والمنّة والفضل؟"، قال: "نعم"، قال:

فتجيء إليّ وأنا على هذه الحالة؟ ألم ترَ ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب وفيما بينهما أمري مطاع وقولي مقبول. ثم ما التفتّ إلى جهة من جهاتي إلّا رأيت نعمة لرجل أشم، أنعم بها عليّ، ومنة ملك بها رقبتي، ويداً لازمة بيضاء ابتدأني بها كرماً وتفضلاً منه. أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان وتقول لي:

أغدر بمن كان أولى بهذا الأمر وأحرى، واسع في إزالة ملكه وضرب رقبته وسفك دمه ونكث بيعته؟

فسكت الرجل.

ثم قال عبد الله بن طاهر: "أمّا أنا فقد بلغني أمرك وتالله ما أخاف عليك إلّا تفسد. فارحل عني من هذه البلد فإنّ السلطان الأعظم لا يصبر على شيء من ذلك أن يبلغه خبرك وتكون الجاني على نفسك ونفس غيرك".

فعاد الرجل وأخبر المأمون فاستبشر وقال: "ذلك غرس نعمتي ويدي"، ولم يظهر من حديثه هذا شيء إلّا بعد المأمون.

المسارَّة المزيّفة حيلة المعتضد. قال أبو محمد عبد الله بن حمدون:

جرى مني بين يدي المعتضد أمر، فضحك ضحكاً كثيراً. فقلت: "يا أمير المؤمنين كم أضحكك ولا تضحكني؟". قال: "ارفع المطرح وخذ ما تحته"، فرفعت المطرح فإذا بدينار. فقلت: "ما هنا غير دينار؟"، قال: "خذه"، قلت: "قط، خليفة أجاز نديمه بدينار". فقال: "ما يقع لك من بيت مال المسلمين أكثر من هذا"، قلت: "أعطني شيئاً من عندك"، قال: "ما تسمح نفسي أن أعطيك شيئاً من عندي".

ثم فكر ساعة وقال: "يا بن حمدون، لكني أحتال لك حيلة تأخذ منها خمسة آلاف دينار"، فقبلت يده، وقال:

إذا كان في غدٍ وجاء الوزير أبو القاسم أشاورك بحيث تقع عينه عليك مراراً طويلاً. ثم التفت إليه كالمغضب وانظر أنت إليه في خلال ذلك كالمخلص الراحم له. فإذا انقطع السرار تخرج ولا تبرح من الدهليز حتى يخرج إليك.

فإذا خرجت خاطبك بخطاب لطيف جميل، وأخذك إلى دعوته يسألك عن حالك. فاشكُ الفقر والعيلة وقلة حظك مني، وثقل ظهرك بالدين والعيال، وخذ ما يعطيك واطلب كل ما تقع عينك عليه حتى تستوفي خمسة آلاف دينار. فإذا حصلتها في بيتك وسألك عما جرى بيننا فأصدقه وإيّاك أن تكذبه. وعرّفه أن ذلك حيلة مني عليه حتى يصل إليك القدر، وحدثه بالحديث كله على شرحه. وليكن إخبارك إيّاه بعد امتناع شديد واستحلاف بالطلاق والعتاق إن تصدقه.

فلما كان من الغد، حضر الوزير أبو القاسم. فحين رآه المعتضد قد بدأ يشاورني وجرت القصة كما تقدم. خرج أبو القاسم الوزير، وجلس في الدهليز ينتظرني. فلما رآني قام لي وقال: "يا أبا محمد، ما هذا الجفاء الذي لا نراك ولا تزورنا ولا تسألنا حاجة؟". فاعتذرت إليه بكثرة ملازمتي للخدمة. فقال: "لا بدّ اليوم أن تزورنا"، وأخذني إلى منزله. فلمّا جلسنا نتحادث أحضر الطعام فأكلنا وغسلنا أيدينا، وأخذ يسألني فبدأت أحدثه مما أجد من العائلة والفاقة والفقر وكثرة الدَّين وقلة حظي من المعتضد. فقال: "لو عرفتني ذلك حملته عنك وخففت مؤونة الصغار عنك". ثم قال: "يا غلام هات من الذهب كذا ومن الفضة كذا ومن الثياب كذا ومن الطيب كذا حتى يكمل شيء يبلغ خمسة ألف دينار". وكلما رأيت شيئاً مليحاً طلبته حتى أخذت كل ما طلبت وحصلته في منزلي.

ثم بعد ذلك قال: "أريد أن أسألك عن شيء وتحلف لي أنك تصدقني". فقلت: "أنا مملوك الوزير السمع والطاعة". فحلفني بالطلاق والعتاق على الصدق، ثم قال:

"في أي شيء شاورك الخليفة اليوم في أمري". فصدقته عن كل ما جرى حرفاً، وكيف احتال عليه المعتضد. قال: "لقد فرجت عني". ولو طلبها مني بغير هذا الوجه أعطيته أضعافها، وانصرفت إلى

منزلي. فجاءني رسول المعتضد. ولمّا حكيت له ما جرى فضحك ضحكاً شديداً وقال: "هنأك الله بما أخذت".

فضيحة في بلاط المعتضد حيلة أخرى له في كتاب نثر الدرر.

يُحكى أن المعتضد قام في بعض الليالي لحاجته، فنظر إلى بعض الوشّاقية قد نهض من على ظهر آخر ومشى على أربعة حتى اندسّ بين الغلمان. وكان بينهم مسافة لا يمكن أن يتحققه منها. فقامت قيامة المعتضد من هذا ووقف ساعة لا يدري ما يصنع. ثم قصد الغلمان وصار يضع يده على صدورهم واحداً واحداً، فمن وجد قلبه ساكناً تركه إلى أن وصل إلى ذلك الجاني وهو لا يعرفه، فوجد قلبه يخفق خفق الخوف والجزع. حركه برجله فقام، وأحضر له آلات الضرب والعقوبة ليقرره، فأقرّ الغلام بالذنب قبل الضرب، فضرب عنقه في الحال.

ذمة مقامر حيلة أخرى له. قال أبو محمد عبد الله بن حمدون:

كنت قد عاهدت الله تعالى على أن لا أعتد مالاً من القمار وأن لا يقع في يدي شيء من ذلك إلّا صرفته في ثمن النبيذ والشمع والجذر. فلعبت يوماً مع المعتضد وغمزته سبعين ألف درهم. فأذَّن العصر، نهض فصلّى وقعدت أفكر في أمر المال وقلت: "سبعين ألفاً بكم أشتري نبيذاً وشمعاً وجذراً، ولأي شيء حلفت؟ لو كنت اشتريت بها صنيعة، وبقيت أفكر وأنا نادم، وكانت اليمين بالطلاق والعتاق وبصدقة جميع ما أملك فلحقني من ذلك ندم عظيم". فعرف ذلك المعتضد مني.

ولما فرغ من صلاته قال: "في أي شيء تفكر؟"، قلت: "في خير يا أمير المؤمنين"، قال: "بحياتي أصدقني"، فصدقته حديثي ويميني. فقال: "طيب قلبك ما أعطيك من القمار فلساً واحداً إذا كان الأمر كذا"، ثم قام ليصلي، فلحقني همّ وغمّ وندم حتى كاد يقتلني وقلت: "لمَ صدقته؟"، وجعلت ألوم نفسي، فعرف ذلك مني.

ولما فرغ من صلاته قال: "بحياتي أصدقني ما هذا الفكر الثاني؟"، فصدقته وقال: "أما القمار فما أعطيك منه شيئاً، لكني أذهب لك من مالي سبعين ألفاً لا يكون عليّ إثم ولا يكون عليك حرج وتخرج أنت عن يمينك وأنا عن يميني". ثم إنه عجّل لي بالمال فأخذته وانصرفت.

العقاب الرهيب حيلة أخرى له.

جنى شخص جناية عظيمة فأخذه وسدّ جميع منافسه ولفّه في قطن وتركه في الشمس، وما زال ينتفخ إلى أن طار قحف رأسه وانبطّ.

قتل مبتكر حيلة أخرى له.

من نشوار المحاضرة قال البراعن عن عبد الله بن الحسن قال: حدثني القاضي التنوخي قال: حدثني جماعة من أهل الحضرة أنّ المعتضد أمر إسماعيل بن بلال، فأخذ له فخاراً، فملأه إسفيداجاً حيّاً وبلّه ثم جعل رأسه وعنقه وشيئاً من صدره فيه وأمسكه حتى جمد الإسفيداج عليه، فلم يزل يضرط حتى مات.

قتل بالنفخ حيلة أخرى له.

أخذ شخصاً قد جنى جناية فجعل بلبلة المنفاخ في دبره وما زال ينفخ فيه حتى انتفخ وتبطط جسمه ومات.

الحريق المتعمّد حيلة أخرى له.

وذلك أنه لما وصل إلى سكربتيتة وباين المقيسة وهي مدينة في بلد الزنج وجد حرورياً[9] كثيرة، فوقعت الهزيمة في أصحابه وخشي على نفسه. وكان الزنج قد أكمنوا حتى حصر عسكر المعتضد بين المدينة وبينهم. ففطن المعتضد لذلك وأحرق المعسكر فظن الزنج أن الجند قد أخذوا المدينة وأحرقوها فانهزموا ووقع فيهم السيف.

اعتراف سارق حيلة أخرى له.

ذلك أنه لما أطلق من بيت المال في بعض رسوم الجند عشر بدرات، فحملت إلى منزل صاحب عطاء الجند ليصرفها فيهم. فنقب منزله في تلك الليلة وأخذ المال. ولما أصبح لم يرَ المال، أمر بإحضار صاحب الخبر. وكان على الجيش مؤنس الفحل، فلما أتاه قال له: "هذا المال للسلطان والجند ومتى لم تأتِ به أو بالذي أخذه، غريمك هو أمير المؤمنين". فجدّ في طلبه وطلب اللص الذي جسر على هذه الفعال.

عاد إلى مجلسه وأحضر التوابين وهم كبار اللصوص قد تابوا عن اللصوصية، فإذا حدث أمر علموا من فعله. تقدم إليهم في الطلب، وتهدّدهم وتوعدهم على النقصة والتواني، وأنه متى طولب بالمال ولم يحصل إيّاه ألزمهم إيّاه وأخذ منهم. فتفرّق القوم في الدروب والأسواق والمواخير والغرف ودور المقامرين، وأخذوا رجلاً سخيفاً ضعيف الجسم رثّ الكسوة سيّئ الحال وقالوا: "هذا الذي أخذ المال وهو غريب"، فأقبل عليه مؤنس وقال له: "ويلك! مَن كان معك ومَن أعانك وما أظن أنك أخذت المال وحدك؟". فأنكر وعمل معه كل حيلة من الجيد والرديء فلم يقرّ بشيء. ولمّا أعياه ضربه بالسياط والدبابيس والقلوس والمقارع على سائر جسده غاب عن الدنيا، ولما أفاق سأله فأنكر.

وبلغ الخبر إلى المعتضد، فأحضر صاحب الجيش وقال له: "ما صنعت بالمال؟". فأخبره، وقال له: "تأخذ لصاً قد سرق عشرة بدر تبلغ به الموت حتى يهلك ويضيع المال، فأين حيل الرجال؟". قال:

"يا أمير المؤمنين لا أعلم الغيب ولم يكن لي في أمره حيلة سوى ما فعلت". قال: "هاتم اللص". فأتوا به وقد حمل في جُلّ، فوضع بين يديه فقرّبه إلى نفسه وسأله فأنكر. قال له: "ويلك إن مت لم ينفعك، وإن برئت من هذا الضرب لم أدعك تصل إليه. فلك الأمان وعليّ الضمان بما يلج به حالك، يُصلح به أمرك". فأنكر ولم يقرّ، "عليّ بالأطباء فأحضروا". قال: "خذوه إليكم وعالجوه إلى أن يصلح واجتهدوا على برئه في أسرع وقت". فأخذوه وعالجوه وواظبوا عليه حتى صلح وبرئ جسده وظهر لونه وعادت إليه روحه.

ثم أحضره المعتضد، فسأله عن حاله ودعا له وشكره وقال: "أنا بخير ما أبقى الله أمير المؤمنين". فسأله عن المال فعاد إلى الإنكار. وقال:

ويحك لا تخلو من أن تكون أخذته وحدك أو وصل إليك بعضه. فإن كنت أخذت بعضه سمحنا لك بما أخذت فأقرّ لنا على أصحابك. وإن لم تقر قتلتك ثم لا ينفعك بقاء المال بعدك، ولا يبالي أصحابك بقتلك، ومتى اعترفت رفعت إليك عشرة آلاف درهم وأخذت لك من صاحب الجيش مثل ذلك، وجعلتك من جملة التوابين. وأكتب لك كل شهر عشرة دنانير تكفيك، وتكون عزيزاً مكرّماً وتنجو من القتل ونخلص نحن من الإثم.

فأبى إلّا الإنكار، واستحلفه بالله فحلف وأحضر مصحفاً فحلف به. فقال له: "احلف برأسي". فحلف أنه ما أخذه وأنه مظلوم منهم.

فقال له المعتضد: "إن كنت كاذباً قتلتك فأنا بريء من دمك". وأحضر ثلاثين أسود بحيث يراهم اللص بأيديهم الصواليج، وأمرهم أن يتناوبوا على ضربه. فضرب إلى أن عاد إلى عادته الأولى وترك إلى أن أفاق. وسئل فأنكر، وأحضر الأطباء وأمرهم بعلاجه حتى هدأ وصلح، وسأله عن حاله فأنكر، وفعل به ذلك مرات عدة ويسأله فينكر.

فوكل به عشرة، وقال: "ساهروه ومتى غمض أو نعس صلبتكم". صاروا يحرسونه ليلاً ونهاراً، ويطعمونه ويسقونه، فبقي عشرة أيام على هذه الحالة ويسأله فينكر. قال: "دعوه ينام". فتركوه فنام يوماً وليلة. وأتى إليه المعتضد وأنبهه بزعجة وقال له: "هات حتى نقسم المال". قال: "الساعة أريد أن أنام". فقال: "اقسمه وخذ سهمك ونم". قال: "ما أقدر الساعة". فقال له: "أين هو؟". فقال له: "عند فلان في الموضع الفلاني في البقعة الفلانية ومعه فلان وفلان". ثم انقلب ونام.

فنهض المعتضد من ساعته، وأحضر الذين ذكرهم وضربهم فأقروا بالمال. أمر بإحضاره فمضوا وجاءوا به، وأخذ المال وصلبهم. فلما انتبه اللصّ من نومته عرضهم عليه، وأراه الذهب فاعترف، فصلبه إلى جانبهم.

المؤامرة حيلة القاهر. من كتاب تجارب الأمم .

لمّا تولى القاهر الخلافة اجتمع مؤنس المظفر[10] ويلبق الكاتب وابنه علي والوزير أبو علي ابن مقلة[11] ومحمد بن ياقوت وعلي بن عيسى المتطيب على قتله وحبسه.

وعقدوا الأمر سراً لأبي أحمد الكليني، وحلف له يلبق وابنه وأبو علي ابن مقلة والحسن بن هارون. ثم كشفوا الأمر لمؤنس فقال لهم مؤنس: "لست أشك في القاهر وقد أسرفتم في الأمانة وأخطأتم في تقليده الأمر، فلا تعجلوه وترفقوا به حتى تؤنسوه ويأنس وينبسط إليكم، ثم حينئذ اقبضوا عليه".

11 10

قال علي بن يلبق والحسن بن هارون: "الحجة إلينا والدار في أيدينا، وما نحتاج أن نستعين بأحد في القبض عليه لأنه بمنزلة الطائر في القفص"، وعملوا على معالجته وقبضه.

فاستنكر في نفسه لمّا أحسّ بالبلاء وأخذ حذره وراسل السلاحية بالحضور عنده وعرفهم أنّ عليّاً بن يلبق يحضر بحيلة قد علمها القاهر، فحضروا متفرقين. قال:

"أريد كل منكم أن يحمل سلاحه ويكمن في موضع من داري فإذا حضر فلان وفلان"، – وعدّد أسماء الذين يريدون القبض عليه – فلمّا حضروا واستقر بهم المجلس "اخرجوا عليهم واقبضوهم". وكان قد أحضرهم مع علي ليخلع عليه ويخلع نفسه وينحدر البصرة ومهدهم على مثل ذلك. فحضر علي بن يلبق وفي رأسه نبيذ ومعه عدد يسير. ولمّا قبض على الجميع خلص القاهر من القتل وعبر إلى داره واستتر من ليلته. وبلغ ابن مقلة الخبر فاستتر، وكذلك الحسن بن هارون وأبو بكر بن مراية وانحدر يلبق إلى دار السلطان والحذر لا يحاذره، فقبض على كل من كان معه من جملة مؤنس، واستوثق الأمر للقاهر.

ناصح مخلص حيلة للراضي بالله[12] .

كان له صاحب يغشاه قبل الخلافة ويخدمه ويجد منه النفع والنصح. فلمّا تولّى الخلافة حضر يوماً بين يديه، وقال له الراضي: "يا هذا إن لنا صاحباً نريد أن ننفعه بشيء من حطام الدنيا، وقد أمرت له بمئة ألف درهم. فهل ترى أن نقيم بأولاده؟". فقال له: "يا مولاي هذا إسراف وتبذير في بيت المال، وأمير المؤمنين عليه خرج كثير. وإن كان ولا بدّ من إعطائه فتكون عشرة آلاف درهم بضاعة حسنة مع معامل "كيس"". فما زال الراضي يستقلها وهو يصعد إلى ثلاثين ألف درهم.

ولمّا لم يجد الراضي مزيداً من ذاك أمر له بها وقال له: "لك أردت أن أعطيها". فقال: "يا أمير المؤمنين يكون حرماني لها عقوبة بسوء محضري". فقال له الراضي:

"أصلح محضرك ما عشت فما يليق إلّا الخير". وأمر له بمئة ألف دينار.

قوة العادة حيلة للناصر لدين الله العباس أحمد[13] .

ذاك أن بعض الفراشين تسلّق على بعض خزائنه وأخذ منها كيساً فيه ألف دينار. لم يفتح قفلاً ولم يفشَّ باباً. ولمّا طلبوا الذهب وجدوه قد نقص كيساً، فأخبروا الناصر بذلك. سألهم على الأقفال الموجودة على الأبواب، فقالوا: "ما تغيّر منها شيء، وإنما قفل الصندوق انفتح". قال: "لا يكون قد نسيتم أن تقفلوه". فأروه الختم وقد انقلع. فقال: "اكتموا أمركم"، وناساهم شهراً. ثم قال للخازن: "اخف المفاتيح".

ثمّ أتى فوقف على باب الخزانة وقال: "أريد المفاتيح". قال الخازن: "قد عدمت". قال الناصر: "أبصروا يا فراشين كيف تفتحون أو تتسلقون أو تفشون الأقفال، فما فيهم من كان له حيلة في ذلك؟".

فبرز من بينهم شخص قد غاب عني اسمه وقال: "أنا أدخل"، ثم تسلّق إلى روزنة على وجه الباب ودخل منها إلى الخزانة. فقالوا: "اقلع الغلق". فقلعه وفتحوا الباب، ولزمه الناصر وقال: "أريد الكيس الذي أخذت يوم كذا وكذا"، فأنكر. قال: "ابطحوه". فبطح وضرب ضرباً مؤلماً، فأقرّ بأنه أخذه، وأمر بإحضاره فمضى وأحضر الكيس ولم ينقص منه شيء. فأخذ الناصر وصلبه وقطع أخبار الفراشين الذين معه.

فصْل فِي حِيَل الملوك الحرب الاقتصادية حيل الإسكندر.

حكى ابن الخطيب صاحب كتاب تاريخ بغداد في بابه المعروف ب لفظ التدبير أنّ الإسكندر صار في سيره في الأرض إلى المدينة في غاية المنعة والتحصّن، فتحصَّن فيها أهلها. آيس الإسكندر منها بحصانتها، وتعرّف خبرها. فأخبر أنّ فيها من الميرة والعيون المتفجرة ما لا يخاف عليه من النفاذ. فرحل عنها ودسّ تجاراً من خلاله متنكِّرين وأمدّهم بالمال، وأمرهم بالدخول إلى المدينة على سبيل التجارة وبيع ما معهم من التجائر، وأن يبتاعوا ما أمكنهم من الميرة والمغالاة فيها.

فدخل التجار المدينة وانكشف عنها الإسكندر راجعاً، وآمنوا لبعد الإسكندر عنهم حتى صار في أيدي تجاره أكثر ميرة أهل المدينة. فلمّا علم الإسكندر بذلك، كتب إلى تجاره فأحرقوا ما بأيدهم من الميرة كلها، وهربوا عن المدينة. وزحف الإسكندر إليها، لا ميرة لأهلها إلّا شيء يسير، فحاصرها أياماً قليلة، طلبوا منه الأمان وفتحوا الباب على حكمه.

التهجير من حيله كان إذا أراد محاصرة مدينة شرّد مَنْ حولها مِنْ أهل القرى وتهدّدهم بالسبي حتى يخرجوا هاربين معتصمين في المدينة. وصاروا فيها أضعاف أهلها، وأسرعوا في الميرة وبطل زرعهم، فنزل عليها وحاصرها.

ملكة حسناء غنية حيلة أخرى له. قال صاحب كتاب التجارب :

كان في زمن الإسكندر امرأة يُقال لها القيدافة، وكانت أجمل أهل زمانها وأفضلهم عقلاً. كان لها ابنان يدبّران ملكها ويضبطان سلطانها. فلمّا بلغهم ما أُعطي الإسكندر من الظفر والنصر على من ساواه وقدومه أرض مصر خافت على ملكها، ولم تأمن أن يغزوَها في أرضها وبلادها. فبعثت مصوّراً حاذقاً بالتصاوير ماهراً في صناعته إلى أرض مصر، وأمرته أن يتوصل وينظر الإسكندر، ويصوّر لها صورته على أدقّ ما يقدر عليه من الصنعة، في جميع أحواله قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً وجالساً ويأتيها به.

فأقبل المصوِّر إلى مصر، وتلطّف حتى صار من ندماء الإسكندر، وأمعن النظر فيه، وعرف معانيه، ورسم لها صورته على جميع حالاته في طومار كبير. ثمّ انصرف به إلى القيدافة الملكة ودفع الطومار إليها وفيه جميع تصاويره.

وبلغ الإسكندر ما هي عليه من الحسن والجمال والظرف والكمال، ووصفت له مدينتها، وإنها أربعة فراسخ في مثلها، وإن الحجر الواحد من سور المدينة ستمئة ذراع وعرضه مائتا ذراع، وإن بيوتها حجارة منقورة، ولها ثلاثمئة وستون باباً من حديد ونحاس.

فكتب إليها الإسكندر يدعوها إلى التوحيد وقال لها: "إن أجبت إلى الإسلام وبعثت بالخراج كففنا عنك وقتلنا أعداءك. وإن أبيت فإني أردفك بالحرب، فاستعدي لذلك إني سائر إليك". فكتبت إليه:

"قد أتاني كتابك بما دعوتني إليه من الإيمان فمزيد لك نفسك، وأمّا الدخول في طاعتك فهيهات ذاك أبداً". فلمّا قرأ الكتاب، أمر منادياً ينادي بالرحيل. فسار شهراً حتى وصل إلى ملك في طريقه يسمّى قريان. فتحصن منه، وضع الإسكندر على حصنه المنجنيق حتى هدمه وملك كل ما فيه.

وكان لقيدافة ولد يسمّى قيدروس، قد تزوج ابنة ذلك الملك. وكان قد قدم على قريان ليحمل ابنته ويزفّها عند أمّه، فأخذه الإسكندر أسيراً مع زوجته.

ثم إنّ الإسكندر أجلس وزيره قيطفون في مجلسه، وأمر جنوده أن يدعوه بالإسكندر والملك. ثم قال الإسكندر لقيطفون: "ادعُ قيدروس ابن قيدافة وزوجته، وأمر بضرب رقابهما، فأقبل الأرض بين يديك، واستوهبهما منك، فهبهما لي، وأنفذني معهما رسولاً إلى أمّه، وأنفذ معي نفراً من ثقاتك". ففعل الوزير ذلك ودعا بابن قيدافة وزوجته، فأدخلا عليه وعلى رأسه التاج وعليه البدنة وهو شبيه بالإسكندر. فقال له: "من أنت وما اسمك وما أمرك وما هذه المرأة معك؟". قال: "أيُّها الملك أنا قيدروس ابن الملكة قيدافة ملكة الأندلس وأفريقيا، تزوجت بابنة هذا الملك وهي هذه، وقدمت لأحملها وجهازها، أخذنا الملك مع من أخذ من الأساري". فقال قيطفون: "اضربوا أرقابهما". فألقى الإسكندر نفسه عليهما وقال: "أيُّها الملك الإسكندر لي عليك حق خدمة قديمة وأريد أن تهب لي هذا الفتى وزوجته". قال قيطفون: "قد وهبتهما لك". فشكره الإسكندر وقبّل يده وقام قيدروس وزوجته فقبّلا يد الإسكندر وهما يظنّانه وزير الملك.

فقال له قيطفون:

أريد أن أنفذ وزيري هذا رسولاً معك إلى أمّك ليدعوها إلى الطاعة والدخول في ديننا لأنني كاره محاربتها وقتل الرجال وخراب الأرض. فأحسنا إليه كما أحسن إليكما، واستوصيا به خيراً حتى يعود إليّ سالماً فيُعلمني ما يكون جواب أمّك.

قال قيدروس: "أفعل أيُّها الملك، وكيف لا أحفظه وقد وهب لي ولزوجتي حياةً جديدة وعمراً ثانياً".

خرج قيدروس ومعه الإسكندر رسولاً إلى أمّه، ومعه عشرون نفراً من أصحابه. وقد تقدّم إليهم ألا يدعوه إلّا قيطفون الوزير. ساروا حتى انتهوا إلى أول ملكها، وأنفذ ابنها من بعض بلادها شخصاً يُعلمها بقدومه. فخرجت إليه مستقبلة ابنها قيدروس ومعها ابنها الأكبر كبش في ألف فارس. فلمّا نظر قيدروس لأمه ترجّل وقبّل الأرض بين يديها. أمرته بالركوب فسار معها وهو يخبرها بخبره وما كان منه. ثم قال لها: "أيتها الملكة أكرمي مثواه فإنه وزير الملك الإسكندر، وهو الذي خلّصني من الموت واستنقذني من القتل"، وقصّ عليها القصة. فشكرت له الملكة وولدها كبش وجميع جندها، وهم يظنّنون أنه قيطفون الوزير. وقالوا له: "جزيت خيراً أيُّها الوزير وأعاننا الله على مكافأتك".

فلمّا دخلت البلد أمرت للإسكندر بمنزل نفيس، وتوافر لديه طعام يصلح للملوك وحلاوة وشراب وغيره. فلمّا كان في اليوم الثاني استدعته إليها. ولمّا تأملته علمت أنه الإسكندر لصورته التي تملكها. فأحضرت من الطعام والشراب شيئاً لم يعرفه الإسكندر. ولمّا فرغوا من الغداء قالت للإسكندر: "يا قيطفون بمَ بعثك صاحبك وما يريد وما يدعونا إليه؟". فقال لها: "يريد أن تدخلي في دينه وتؤدي الخراج إليه، وقد بلغه حسنك وجمالك وعقلك، فلهذا أمسك عنك وعن حربك". فلمّا سمعت ذلك داخلها غيرة الملك وقالت: "تنصرف اليوم حتى ننظر في أمرك غداً ونرى رأياً"، فانصرف الإسكندر إلى منزله.

ولما كان في اليوم الثالث دخل عليها، وهي في مجلس أحسن من المجلسين الأولين. فقال لها: "ما أحسن مجالسك!"، قالت: "صدقت يا ابن دارا". وتبسمت في وجهه، فلما سمع ذلك منها عرف أنها قد عرفته، فعضّ يده وقال: "أيتها الملكة لقد أحسن الله تعالى إليّ حيث لم يسمع أحد منك وأنت تدعيني بهذا الاسم".

قالت له: "دع عنك هذا، ما دعوتك إلّا باسمك، فأنت الإسكندر ولا أشكّ في ذلك". فقال لها الإسكندر: "يا سيدتي لا تهلكيني إني لست الإسكندر، وإنما أنا قيطفون الوزير". فأخذت بيده، وأدخلته قبة هناك، فأرته جميع الصور التي يكون فيها. فعضّ على شفته. وقالت:

ما لك تعضّ على شفتك؟ ألست الإسكندر الذي ملك الأرض، فاطمئنّ ولا تظن إلّا خيراً. فإني حاقنة دمك، كاتمة أمرك، وإني أدعوك بقيطفون مخافة من ولدي الأكبر ولو عرفك قتلك، فانصرف يومك هذا وليفرج همك وتطيب نفسك.

فانصرف عنها ذلك اليوم، ثم عاد إليها من الغد وهي في مجلس أحسن من تلك المجالس كلها. وعندها ولداها كبش وقيدروس. فقال لها قيدروس: "أيتها الملكة، عجلي سِراح قيطفون وأحسني إليه وكافيه بما صنع معي إذ أعتقني ورد عليّ زوجتي". فقالت: "إني فاعلة ذلك إن شاء الله". ثم قالت: "ما الذي تريد؟". قال:

"أريد ثلاثاً: الإيمان بالله لتحقني دمك ودم قومك، والجزية، والخراج. فإن أبيت فاستعدي للحرب فإني مبارزك". لما سمع ابنها الأكبر ذلك غضب غضباً شديداً، وقال: "بلغ من جراءتك على الملك أن تلقاها بمثل هذا الكلام؟ من أنت ومن صاحبك؟ والله لا تفلت من يدي حتى أقتلك"، وصار ينتهر الإسكندر. فقالت له أمه:

"ما لك وللرجل؟ إنما هو رسول بلّغ ما أرسل به". وغضبت عليه وأمرت بإخراجه، وقالت للإسكندر: "إن ابني هذا جاهل ولا آمنه أن يقتلك ويعصيني فيك. ألست ذا دهاء وحيلة حتى آمنه عليك ولا أخاف غائلة؟"، قال: "أدخليه ولا خوف عليك ودعيني وإيّاه". فبعثت إليه، دخل عليها مغضباً، فقال له الإسكندر: "إني لا ألومك، إنما اللوم للإسكندر كيف رجمني إلى أعدائه وجعلني واقية لعسكره وجنده؟ فهل لك في الأمر حتى أشفيك منه؟" قال كبش: "وما هو؟"، قال: "أن تجعلوا

إليّ عندكم أثرة، وتعطوني ما يعينني من أموالكم، وأن تفرضوا لي بعض سلطانكم، ولكم على الله كفيل أن أضع يد الإسكندر في يدك، من غير أن يكون معه أحد من أصحابه، هكذا". ووضع يده في يد كبش. فقال: "إن فعلت كنت أشهر الناس عندنا، ونواسيك بنصف ملكنا، ونعوّضك في جميع أعمالنا، ذلك فيما عندنا متبع".

قال الإسكندر: "والله الذي لا إله إلّا هو، لأخلينك والإسكندر، ثم يضع يده في يدك كذا"، ثم وضع يده في يد كبش بمكان لا يكون له ناصر فيه من أصحابه. قال كبش: "أخبرني كيف تصنع؟"، قال:

تخرج معي ومعك ألف رجل من أصحابك. فإذا قاربناه كمنت له مع أصحابك في غيطة، وأنطلق أنا إليه أعلمه أني قد حملت من عندكم من الدر والياقوت ما لا قيمة له، وأقول له: إن الرأي يجعله لنفسك لا تدخله في القسمة، وآتيك به معي وحدي حتى أنتهي به إليك، فقم عند ذلك إليه اضرب عنقه. فإن أحببت أن تقدر له على ذلك فأكثر له من الهدايا وصفوف الجوهر ليكون أسرع لما تريد.

فرضي كبش بذلك وقال له: "إني أرجو أن يكون قتل الإسكندر على يدي فيكون ذلك فخراً لي على سائر الأمم".

هذا وقيدافة تسمع الكلام وتتعجب من مكر الإسكندر وجلادته. ثم انصرف الإسكندر يومها، ولمّا كان من الغد دخل على القيدافة، فأخذت عليه العهود والمواثيق أنه لا يؤاخذ ولدها كبش بجهله وحمقه، وأن يرده إليها سالماً، فأعطاها ذلك. ودعت ابنها كبش ورؤساء مملكتها وأجلستهم عن يمينها وشمالها على كراسي الذهب. ثم قالت: "أرأيتم إن أجبت هذا الملك المظفر إلى ما يجب واكتفينا مؤونته، ولا نضطر إلى محاربته وهذا رأي؟". قالوا: "لنعم ما رأيت أيتها الملكة".

ثم قالت لابنها كبش فيما بينها: "إنما أريد باختباري الهدايا إليه ليكون أقرب لما تريده". ثم دعت بتاج عظيم وقالت للإسكندر: "يا قيطفون قل لسيدي الإسكندر:

أنت أحقّ بهذا التاج من جميع الناس وقد آثرتك به على ولدي". وقامت من على سريرها وقالت: "ترى هذا السرير وما عليه من أنواع الجواهر واليواقيت والمرجان والدر؟". قال الإسكندر: "نعم". ثم دعت ببساط منسوج بالذهب والفضة فيه الشمس والقمر، وقالت: "هذا بساط لم يملك أحد مثله". وأعطته مئة ألف رطل فضة وعشرة آلاف رطل ذهب، ومئة مركب من مراكبها مرصعة بالدر والجوهر، وألف سيف مجلاة بالذهب، ومئة درع بيض سواعدها.

وأنفذت ذلك كله مع الإسكندر، وسار معه ولدها كبش في ألف فارس من أصحابه حتى انتهى إلى قريب من عسكره. فأمر بتلك الهدية فوضعت، وقال لكبش وأصحابه: "اكمنوا هنا في هذه الغوطة حتى آتيكم بالإسكندر". ومضى إلى عسكره، فلما رأوه تباشروا وكانوا قد آيسوا منه، أمرهم أن يركبوا معه وهم ألف ألف وستة آلاف. وأقبلوا نحو الغوطة ونادى بالكبش: "اخرج إن أردت قتل الإسكندر". فخرج وقد طار عقله من كثرة الجنود، وقال للإسكندر: "أين الإسكندر؟"، فوضع يده

في يده وقال: "أنا الإسكندر وقد وضعت يدي في يدك". فقال له كبش: "يا سيدي أقلني عثرتي، ولا تؤاخذني بجرمي، واغفر لي، وأحسن لي كما أحسنت إلى أخي، واحفظني في والدتي". فقال له الإسكندر: "لا بأس عليك، فقد أخذت أمك عليّ المواثيق والعهود أنّه لا يصل إليك مني سوء، فأقرئها عني السلام، وأعلمها أني أفي لها بكل ما وعدتها". ثم أعطاه من التحف والهدايا أضعاف ما أعطته أم كبش. فلما وصل ابنها إليها سالماً وأخبرها بما عاين من عسكر الإسكندر ومن أجناس الأمم أنفذت إليه خطبته، فأجابها إلى ذلك وتزوج بها وأضاف ملكها إلى ملكه.

خيول من نحاس حيلة أخرى له.

ذلك أن الإسكندر لمّا تُوفّي والده وجلس موضعه، أنفد إليه فورس ملك الهند، وطلب منه ما كان أبوه يحمله إليه. وهو كل سنة مئة بيضة ذهب، كل بيضة ألف مثقال، ومئة بيضة فضة كل بيضة ألفا أوقية. فبعث الإسكندر إليه يقول له: "إن الدجاجة التي كانت تبيض ذلك البيض ماتت وما عندي إلّا مئة ألف سيف مقاتلة".

فلمّا سمع فورس ذلك تأهّب لمحاربة الإسكندر وجدَّ في السير وجمع الجند. فبلغ الإسكندر ذلك، وكان رجلاً حَوِلاً، له مكر وكيد ومكائد مع حسن تدبير. رأى إعمال الحيلة والتمهد والرفق، فاحتفر خندقاً حول مدينته. وفكّر في عمل الحيلة، وكيف ينبغي له أن يقدم على فورس. كان فورس لا يقاتل إلّا على الفيلة، ففتحت له فكرته أن يصنع خيلاً من نحاس مجوفة وعليها فرسان من نحاس مجوفة، تجري على بكار من نحاس، وحشا أجوافها بالكبريت والنفط، واتخذ منها جملة كثيرة.

فلما قدم فورس إلى قتال الإسكندر، والتقت العساكر، أمر الإسكندر أن تشعل أجواف الخيل النحاس. فأشعلت ودفعت، فهربت بها العجل وحمي النحاس حتى بقي أبيض. فلما حملت الفيلة على عسكر الإسكندر، التقوها بتلك الخيل النحاس. ولمّا رأتها الفيلة ظنت أنها خيل مقاتلة. فلفّت خراطيمها عليها، وعادتها في القتال ذلك، فاحترقت خراطيمها ونفرت وولت، فوطأت عسكر فورس، وتمزقوا كل ممزق ووقع فيهم عسكر الإسكندر قتلاً وأسراً. وأُخذ فورس أسيراً وملك الإسكندر بلاده جميعها.

الزيارة الجريئة حيلة أخرى له.

ذلك أنه لما قدم العراق لقتال دارا، وكان الأخير قد نزل بموضع يقال له حزي، سيّر إليه الإسكندر رسولاً، فلما دخل إليه أُعجب دارا بصيته وبلاغته، وأمر بإحضاره في مجلس شرابه. فكان رسول الإسكندر كلما أُعطي قدحاً صبه على ثيابه، وشال القدح في كمه. فقيل لدارا في ذلك. فقال له دارا: "ما هذا الذي تفعله؟". قال رسول الإسكندر: "أمرني ملكي لا أشرب خمراً حتى أعود إليه، وأنا أكره أن أرد شراب الملك، فأصبه على ثوبي، وأضع منه على رأسي، وإن أخذت الآنية فإن سنتنا مع ملكنا هكذا، فإن أمرني الملك أعصى ملكي وأشرب وأرد الآنية فعلت". فقال له دارا: "لا ترد الآنية ولا تعصِ ملكك".

ودخل موبذ على دارا، فعرف الإسكندر أنه يعرف، وعرف الموبذ الإسكندر. نهض الإسكندر بحجة البزال فركب ونجا. وقال الموبذ للملك: "إن هذا الرسول الذي عندك هو الإسكندر". طلبه فلم يجده فعلم بصحة ذلك.

ولما أصبح القوم واصطف العسكران برز الإسكندر بين الصفين ونادى: "يا معاشر الفرس قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمان فمن كان منكم معنا فليعترك ناحية"، فاتهمت الفرس بعضها بعضاً، وولت منهزمة وقُتل دارا.

البطل المرعب حيلة لملك الروم.

حُكي أن ملك الروم غزا بلادًا أفريقية فعبر الخبر إليهم. وحاصر مدينة لهم زماناً طويلاً، فحاربوه على باب المدينة. وكان في أهل المدينة رجل يقال له أقطر، وكان في غاية النجدة والشجاعة، فما كان يبرز إليه أحد إلّا قتله.

وبلغ ذلك ملك الروم فقد كان بهذا الأخير قائد من قواده يُقال له أرسلاوس، لم يكن في الدنيا أفرس منه.

وقد غضب عليه الملك واعتزل الحرب، سأله الملك فلم يطعه. فقال الملك: "اطرحوا الصوت إنّ أخا أرسلاوس قد استأسره أقطر". فلما سمع أرسلاوس ذلك عظم عليه وطلب أخاه فلم يجده. فطلب سلاحه وطلب أقطر، بارزه فاستأسر أرسلاوس لأقطر وأنابه إلى ملك الروم. فقتله ففتّ به أعضاد أهل أفريقيا، وزحف عليهم ملك الروم وأرسلاوس، فقتل منهم مقتلة عظيمة وملك البلد.

الأميرة الحسناء حيلة شهريار ذو الجناح.

ذلك أنه سار إلى سمرقند وحاصرها فلم يظفر بها. فطاف حولها وأخذ رجلاً من أهلها، واستمال قلبه، وسأله عن المدينة.

فقال: "أما ملكها فأحمق الناس ليس له همّ إلّا الأكل والشرب والخلوة مع النساء. ولكن له بنت هي التي تدير أمره وتسوس ملكه".

فبعث معه هدية إليها وقال له:

أبلغها أنه لما بلغني من عقلها وحسنها ما بلغني أحببت أن تكون زوجتي، فهذا سبب مجيئي إلى هنا. فإن أنكحتني نفسها حتى يصير بيننا ولد ملك العرب والعجم وكان الفخر لها بذلك. وإني لم آتِ في طلب المال ومعي أربعة ألف ألف تابوت مملوءة ذهباً، وأنا أدفعها إليها وأمضي إلى الصين. فإن كانت الأرض لي فهي زوجتي وإن هلكت كان المال لها.

فلما بلغها الرجل الرسالة قالت: "قد أجبته فلينفد بالمال". فأرسل إليها أربعة آلاف تابوت، في كل تابوت رجلان بالسلاح، وجعل بينهم علامة ضرب البوق. فلما كان نصف الليل ضرب البوق ولزم أبواب المدينة. فنهض الرجال من جوف التوابيت وفتحوا الأبواب، ودخل شهريار المدينة، وقتل أهلها وأخذ ملكها وابنته.

الملك اللامبالي حيلة بهرام جور.

حكى ابن المقفع في كتابه تاريخ العجم أن بهرام جور لما تولى المملكة، ودانت له البلاد والعباد، آثر اللهو على ما سواه. لم يكن له همّ إلّا الأكل والشرب والصيد، فعتبت الرعية عليه، وطمع فيه مَن حوله من الملوك، ورجوا استباحة بلاده والغلبة على ملكه. أول مَن سبق إلى المكابرة له خاقان ملك الترك، فإنه غزاه في ثلاثمئة ألف رجل من الأتراك، حتى دخل في أرض خراسان، وشنّ فيها الغارات، واستاق مواشيها. فلما بلغ أهل المملكة إقبال خاقان بالجيوش إلى بلاده وتعاظم ذلك، اجتمعوا ودخلوا على بهرام جور وقالوا: "أيّها الملك قد دهمك هذا الغزو، ولا ينبغي لك أن يشغلك ما أنت فيه من اللهو والشرب والصيد. فاستعد للمسير، وتأهب لمحاربته لئلا يخرب ملكك، ويصير عليك عار إلى آخر الأبد".

قال: "سأشرع في ذلك إن شاء الله". ولم يمتنع عما كان عليه من الأكل والشرب، ثم أظهر أنه يريد الصيد في أرض أذربيجان وآجامها، ويلهو في سيره إليها. اختار من عسكره سبعة آلاف رجل واستخلف أخاه قربين بن بزرخر. ثم خرج على فرس له حاملاً جعبة نشاب وقوساً وطبلاً وكلباً سلوقياً وعلى يده باز. وأمر أصحابه أن يخرجوا على هذه الصفة، وسار بسبعة آلاف باز وسبعة آلاف كلب وسبعة آلاف طبل، وأخذ طريق أذربيجان يتصيّد منزلاً منزلاً ولم يشكّ أهل مملكته أنه هرب.

فاجتمع عظماء أهل العراق وأشرافهم على أن يوجهوا إلى خاقان ملك الترك ليأمنهم، ويسلموا البلاد إليه. وبلغه مسير بهرام جور هارباً إلى أذربيجان، وما اجتمع عليه أهل مملكته من المصالحة فاقتنع بذلك.

وبلغ بهرام جور الخبر، فسار على أرض الديلم حتى انتهى إلى طبرستان. وأخذ على ساحل البحر يسير الليل ويكمن النهار حتى انتهى إلى قزمس. وصاد من الطير والوحش ما لا يحصيه إلّا الله، وحملها معه أحياءً حتى وافى جبلاً مطلاً على عسكر الترك.

فلما كان وجه الصبح أمر بالطبول فضربت، وبتلك الطيور والكلاب والوحوش فأرسلها والبزاة، وارتجّت الأرض بضرب الطبول وقالوا: "ما تكون كثرة هذه البزاة والكلاب والطيور إلّا مع ألف ألف رجل". واضطرب عسكر خاقان وماج بعضهم في بعض، وثبت بهرام جور في وجوههم وحمل عليهم فانهزموا على وجوههم، وتبع بهرام جور أثرهم فقتل منهم خلقاً كثيراً وانهزموا. طلب خاقان فلحقه وقتله، واحتوى على ملكه وعسكره. وصار حتفه، وغنم أصحابه غنيمة عظيمة.

سار في طلبهم حتى خرج من خراسان وارتحل في طلبهم، ورتّب في البلاد من يوثق به، وعاد وقد فتح الله عليه.

ثم رفع عن أهل مملكته الخراج ثلاث سنين شكراً لله بما نصره، وقسم على أهل مملكته مالاً كثيراً، وأعطى الفقراء والمساكين ألف ألف درهم، وعاد إلى ما كان عليه من الأكل والشرب.

مغامرة جنونية حيلة أخرى له.

بلغه بعض الكرّات أن عدواً قد نهب أطراف بلاده واستولى على أكثرها، واستخف به وأظهر الاستهانة به إلى أن قويت شوكته وعظم سلطانه وملك أكثر بلاده.

فخاف الوزراء وأكابر الدولة، ودخلوا على الملك، وأعلموه بما يجب عليه من أموره واستملاك العدو بلاده وتمكينه من السلطنة. فنهرهم وزجرهم، واستدعى مئتي جارية من جواريه فألبسهن الثياب المصبّغة وأركبهن القصب وركب معهن، وجعلن يلعبن ويلعب معهن، ويغني ويغنين معه ويضحكنَ ويلعبنَ. فلما رأى وزراؤه ذلك خرجوا من عنده وقد آيسوا منه واجتمعوا على خلعه.

فبلغه ذلك، ودعا جارية من جواره وقال: "الويل إن علم أحد من أهل المملكة ما أفعله"، ثم أخذ صمغاً عربياً فلبد به شعره جميعه حتى صار كأنه فرع أصبح، ولبس مدرعة صوف وتحتها ثوب شعر، وأخذ قوساً ونشاباً، وخرج في جوف الليل، تقدم إلى الجارية أن تخفي أمره وتظهر أنه عليل إلى حين رجوعه.

ثم مضى وحده حتى انتهى إلى طلائع العدو، وكمن في مغار على طريقهم، وجعل لا يمر به طائر ولا وحش إلا صَرَعه، ووضع سهمه فيه حيث شاء. وجعل يجمع كل ما صاد حتى صار كالتل العظيم. مرت به طلائع العدو فنظروا منه إلى أمر هالهم، وقال له الرئيس: "ويلك من أنت؟". فقال: "إن أعطيتني الأمان أخبرتك".

قال: "لك الأمان". قال: "أنا غلام لرجل سائس وإن أستاذي غضب عليّ وكان إليّ مُحسناً، فأوجعني ضرباً ونزع ثيابي عني، وألبسني هذه المدرعة وأجاعني. وإني طلبت غفلته فخرجت أتصيّد وآكل. وقلت: لا أبرح حتى أرمي بكل سهم".

فأخذه معه إلى الملك وأخبره قصته. فقال له الملك: "قدمه بين يدي". أمره بالرمي فرمى، فكان يضع سهمه من الصيد حيث شاء مما يقترحه الملك. تعجب الملك منه وقال له: "ويلك، وهل في هذه المملكة من يرمي مثلك؟". فضحك بهرام جور وقال: "أيها الملك أنا أخسهم وأنجسهم وأمقطهم رماية وأحقرهم مقداراً.

طردوني لكوني لا أحسن الرمي مثلهم، وعندي جنس آخر من الثقاف". فقال: "وما هو؟". قال: "ادع لي بإبر". فدعا له بإبر، فأخذ إبرة منها ورمى بها على أذرع، ثم أتبعها أخرى، ثم أتبعها

أخرى. ثم جعلها سلسلة قد تعلّق بعضها ببعضها الآخر. فبهت الملك، وملئ قلبه ذعراً وقال له: "ملككم هذا جاهل ما يعلم أنني قد قربت من بلاده". فضحك بهرام جور وقال: "إن أعطاني الملك الأمان نصحت له". قال: "قد أعطيتك". قال: "إن ملكنا مستهزئ بأمرك مستصغر لشأنك لعلمه أنك لا تخرج من قبضته، وذلك أني أخسّ رامٍ في مدينته وأبخسهم رماية وأقلّهم ذكراً. فإذا كنت أصيب بألف سهم ألف رجل، فما ظنّك بالملك إذا خرج ومعه أربعمئة ألف رامٍ أنا أخسّهم وأقلّهم إصابة". قال الملك: "صدقتني فيما قلت والله ما استصغر شأني وأمهل أمري إلّا متوثق بمن معه، ولا تركني أبلغ هذا الموضع من ملكه إلّا مما ذكرت".

ثم أمر زعيم جيشه أن يرحل من ساعته، ونادى الناس بالرحيل. رحل لا يلوي على شيء، وأطلق بهرام جور وانصرف. بقي ثلاثة أيام حتى دخل منزله، ولما أصبح جلس للناس ودخل عليه الوزراء والعظماء. فقال لهم: "ما عندكم من خبر عدوكم؟". فأخبروه برحيله وانصرافه عنهم، فأخبرهم بالقصة وعظم شأنه وأعظموا فعله وتفرّسه.

صديقان وملك حيلة كسرى أبرويز.

كان كسرى أبرويز إذا رأى في مملكته رجلين من بطانته وخاصته قد تحابّا واتفقا في كل شيء خلا بأحدهما وأفضى إليه بسر في الآخر، وأعلمه أنه قد عزم على قتله وأمره بكتمان ذلك عن نفسه فضلاً عن غيره، وتقدم إليه في ذلك بوعيد. ثم يجعل حجته في إذاعة سره ملاحظة صديقه في دخوله وخروجه من عنده، وفي إسفاره لوده ووقاية الملك. فإن وجد الآخر أمره كأوله علم أنّ الآخر لم يفضِ إليه بسره ولم يظهره على ما عنده. فقرّبه واجتباه ورفع منزلته. ثم خلا به وقال له:

أردت قتل فلان بشيء بلغني عنه فتحققت عن أمره فوجدته باطلاً. أما إن رأى من لك نفوراً وازوراراً وإعداءً من جانب علم أنه قد أذاع بسره فأقصاه، وأطرحه وجفاه، وأخبر صاحبه أنه أراد محنته بما أودعه من سره. ثم إنه ينفيه من أرض مملكته.

الخادم الأمين من حيله مما ذكره ابن المقفع في فضل الفرس.

كان كسرى أبرويز إذا حق الرجل على قلبه وقرب من نفسه وأحب أن يمتحنه بمحنة باطنة يأمر به أن يتحول إلى منزله، وأن يُفرغ له حجرة، ولا يحوّل إليها امرأة ولا جارية. ويقول له: "إني أحب الانعزال في ليلي ونهاري، ومتى كان معك حرمك شغلك عني وقطعك. فاجعل منصرفك إلى منزلك في كل خمسة أيام يوماً واحداً".

فإذا تحول الرجل وأتاه وخلا به كان لا ينصرف من عنده فيتركه على هذه الحالة شهراً.

فامتحن شخصاً من خاصته بهذه المحنة في الحرم، ثم دسّ إليه جارية من خواص جواريه، ووجّه معها إليه بألطاف وهدايا، وأمرها أن لا تقعد عنده في أول ما تأتيه. فلما أتته بألطاف الملك قامت

ولم تلبث أن انصرفت. حتى إذا كانت المرة الثانية، أمرها أن تجلس لحظة وتبدي بعض وجهها حتى ينظر إليها، ففعلت ولاحظها الرجل وتأملها، ثم انصرفت.

فإذا كانت المرة الثالثة أمرها أن تطيل الجلوس عنده وتحادثه، وإن أرادها فوق العادة أجابته. ففعلت وجعل الرجل يحدّ النظر إليها ونشر يحدثها. ومن شأن النفس أن تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطالب. فلما أبدى ما عنده قالت: "أخاف أن ينظر لنا ولكن دعني حتى أدبّر في هذا أمراً".

ثم انصرفت فأخبرت الملك بكل ما كان بينهما. فأنفذ أخرى غيرها من خواصهن وثقاتهن بألطافه وهداياه. فلما جاءته قال: "ما فعلت فلانة؟". قالت له: "اعتلت"، فاربدّ لون الرجل. ثم لم تطل القعود عنده كما صنعت الأولى في المرة الأولى، وعاودته بعد ذلك وجلست عنده أكثر من المقدار الأول، وأبدت له بعض محاسنها حتى يتأملها ثم انصرفت.

عاودته في المرة الثالثة، أطالت عنده القعود والمضاحكة معه. فدعاها إلى ما في النفس من التركيب. فقالت:

إنّا على خطى من الملك ومعه في دار واحدة لا نأمن من أن يعثر بنا، ولكن الملك بعد ثلاثة أيام يطلع إلى الصيد فإن أرادك أن تمشي معه فأظهر أنك عليل وتمارض.

فإن خيّرك بين الانصراف إلى دارك ونسائك والمقام ها هنا إلى رجوعه فاختر المقام ها هنا، وأخبره أن الحركة تصعب عليك. فإذا أجابك إلى ذلك كنت أنا عندك إلى حين عوده.

فسكن الرقيع إلى قولها، وانصرفت الجارية إلى الملك، فأعلمته بكل ما كان بينهما.

فلما كان الوقت الذي وعدته فيه أن يخرج الملك دعاه الملك. فقال للرسول: "إني عليل". فأعاد الرسول الجواب فتبسم الملك وقال: "هذا أول الشر"، وأنفر إليه بمحفة يُحمل فيها، وأتاه وهو معصب الرأس. فإذا بصر به من بعيد يقول: "والعصابة للشر الثاني"، ويبتسم.

فلما قرب من الملك سجد له فقال له كسرى: "متى حدث بك هذا المرض؟". قال: "في هذه الليلة". قال: "فأي الأمرين أحب إليك الانصراف إلى نسائك تتمرض عندهم أو المقام ها هنا إلى وقت رجوعي". قال: "ها هنا أيها الملك، ارفق لي لقلة الحركة". قال: "وما سبب حركتك في منزلك؟". ثم أمر به أن يوسم بوسم الزنا ويُنفى من أرضه.

السيف المشؤوم ومن حيله أيضاً حكي عنه أنه دخل في بعض الأيام فجأة إلى بعض دوره، فرأى جارية وغلاماً متعانقين. غضب لذلك غضباً شديداً وهمّ بقتلهما، ثمّ فكر في نفسه وخاف الفضيحة. فتحت له الفكرة أن ينفذه إلى بلاد الروم فيُقتل هناك.

استدعاه في بعض الأيام وقال له: "إني باعثك إلى أرض الروم بتجارة تبيعها هناك، وتغتصّ لنا من معمول الروم ما يصلح لمثلنا". فقال: "سمعاً وطاعة". فأعطاه أشياء وأنفذه فمضى وعاد، ثم أنفذه فمضى وعاد.

ثم أنفذه وأعطاه في جملة ما أعطاه حساماً قد صنع لقتله، وذلك أنه نقش فيه صورته وقال له: "لا تبع هذا إلّا للملك". ثم سار ذلك المملوك إلى بلاد الروم، وباع ما كان معه وقدم الحسام إلى الملك. فلما رأى الملك الحسام أعجبه غاية العجب، ثم نظر صورة كسرى في دسته وصورة الغلام وهو قائم في جنبه يسارّه في أذنه.

ففكر في ذلك وجعل ينظر إلى الحسام وينظر إلى الغلام، فرأى صورته لا تخرم دقة واحدة. فقال كسرى: "ما بُعث بهذا الغلام إلا ليعرف طريق بلادي وأحوالها".

فأخذ جميع ما كان مع الصبي وصلبه.

كنز الريح ومن حيله أيضاً أنه أنفذ رجلاً من قواده اسمه شهربراز في خمسين ألف إلى بلاد الجزيرة والشام، وهي بيد قيصر ملك الروم. فجعل يفتحها أرضاً أرضاً حتى فتح الجزيرة كلها وضيّق على قيصر. وأخذ قيصر كنز الريح الذي كان قد اجتمع في خزانة الملك ليرحل عن الجزيرة والشام، فلما أخذ الشام والجزيرة حمل المال في البحر إلى بلاد الروم وكان مالاً عظيماً. فقيل إنّه حمل في خمسمئة سفينة، فعصفت به الريح وردته إلى الشام. أخبر بها شهربراز فقبض عليها وبعث الأموال إلى كسرى وقال: "هذا الكنز جاءت به الريح فهو كنز الريح".

وعظمت منزلته عند كسرى حتى لم يكن يوازنه عنده أحد. فحسده أقرانه من قواد كسرى وقالوا لكسرى: "إن شهربراز يقول: أنا أعظم من كسرى وأجلّ منه، وأنك لو دعوته لما جاء إليك"، وجعلوا يقولون مثل هذا الكلام وشبهه عند كسرى حتى أقروا ذلك في قلب كسرى.

فكتب إلى شهربراز أن: "قد وقعت حادثة أريد أن أشاورك فيها، فاستخلف على جيشك، وبادر إليّ". ثم كتب كتاباً آخر على يد رسول آخر، وبعثه خلف الأول منه:

"إني كنت قد كتبت إليك في شورة وقعت وقد كفاني الله أمرها، فأقم مكانك حتى يأتيك أمري".

وقال للرسول الثاني: "كن على أثر الأول فإذا قرأ شهربراز الكتاب الأول ورأيته قد أجاب للإقبال نحوي فلا تدفع إليه كتابك ودعه حتى يأتي، وإن رأيته قد كره الإقبال إلينا فادفع إليه هذا الكتاب".

فلما رفع الرسول الأول كتابه لشهربراز وقرأه قال: "ما أرى الملك كتب إليّ في هذا الكتاب إلا وهو سكران". فلما رأى الرسول الثاني كراهيته دفع الكتاب إليه وقال له: "إن الملك أردفني خلف هذا الرسول من الغد". ففرح شهربراز وسألهما أن يكتما عليه ما قاله، وأحسن جائزتهما.

وكتب إلى كسرى: "إني ها هنا في نجّة العدو وقد حاصرتهم وأرجو أن يفتح الله على يدي ولا يمكنني استخلاف غيري على هذا الجيش. وقد وفق الله الملك بما كتب في الكتاب الثاني يأمرني به من الإقامة".

وكان لشهربراز خليفة بباب كسرى يكتب إليه فأخبره وحذره، وأخبره "أنّ الناس قد حسدوك عند كسرى وأوغروا صدره عليك فإياك أن تأتيه، فإنك إن أتيته لم تسلم منه البتة". ولما ورد الكتاب على شهربراز كان قد نزل على باب القسطنطينة محاصراً لقيصر تنحى بعسكره عنها.

وقال بعض الوزراء: "بل كان سبب استدعاء كسرى شهربراز أنّه كان له أخ يقال له فرحان وكان من أشد الرجال وأشجعهم. فقال يوماً في سكره: إني رأيت البارحة كأني جالس على سرير كسرى. فكتب صاحب الحد إلى كسرى بذلك وغضب كسرى على فرحان وكتب إلى شهربراز أن ابعث إليّ برأس فرحان".

فكتب شهربراز إليه: "أيها الملك إن فرحان رجلٌ ليس له نظير، وإذا قتل فلا خلف لكم عنه في عنايته وكفايته وشجاعته". فأعاد كسرى إليه الرسول ليبعث برأس فرحان، فعاوده شهربراز بمثل قوله الأول. فأعاد كسرى إليه الرسول أن: "لا بد من أن تبعث برأسه"، فعاوده شهربراز فيما أمره كسرى من قتل فرحان.

فكتب كسرى إلى فرحان أني: "قد ولّيتك الجند مكان شهربراز"، وكتب إلى العسكر: "إني قد وليت عليكم فرحان". قال شهربراز: "سمعاً وطاعة". وقام نزل عن موضعه وأجلس أخاه فرحان موضعه. ثم كتب كسرى إلى فرحان: "إن شهربراز قد عصاني في أمور أمرته بها فانفذ إليّ برأسه". فلما ورد الكتاب إلى فرحان دعا شهربراز وعرض عليه الكتاب، فقال شهربراز: "وما أنت فاعل الآن". قال: "لا بد لي من امتثال أمر الملك". قال شهربراز: "دعني حتى أوصي بوصية وأكتبها". قال:

"نعم فافعل".

فدعا شهربراز بسفط وفتحه فأخرج منه ثلاثة كتب التي كتبها كسرى في قتل أخيه فرحان ودفعها إليه وقال: "أمرني الملك بما أمرك به فيّ وخالفته ثلاث مرات، فلذلك غضب عليّ، وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد". فقام فرحان من مكانه، ورد شهربراز إلى موضعه، وقام بين يديه، وقال: "أنت أحق بالرئاسة مني وأكرم وأعقل".

ثم إنّ شهربراز كتب إلى قيصر ملك الروم: "إني أريد أن أحدثك بسر لا تحمله الكتب ولا تنقله الرسل، ولا بد من لقائك فمتى تأذن لي؟". تعجب قيصر وخاف من ذلك أن يكون سبب مكر، فأعاد عليه الكتاب وقال له: "لا وجه للقائنا مع ما بيننا". فكتب إليه شهربراز بالعهود والمواثيق والأيمان

المعظمة وقال: "الحقني في خمسين رجلاً وأنا في مثلها حتى تعلم أنه لا غدر عندي بك". ففعل قيصر ذلك ثم تواعدا مكاناً ويوماً يلتقيان فيه.

فخرج قيصر إلى ذلك المكان في نفر، وخرج شهربراز من عسكره إلى هناك. وضربت لهما قبة، فدخلاها وخلوا من الناس. ولم يكن عندهما إلّا ترجمان يعبّر لهما ما يقولان. فأخبر شهربراز قيصر ما كان من كفايته أمر كسرى وفتوحه لأجله. وذكر: "أنه قد تغير عليّ وأراد قتلي وأنا الآن لا أسير إليه ولا أثق به. وقد سألتك وأنا أعتذر إليك فيما مضى فاجمع جنودك وسر إلى أرض فارس فإنّ أساورة فارس كلها معي، وإنما آمرك بالمسير لأني لا آمن أن ينقذوني جنودي من كسرى. ثم أنهما تعاهدا وتوافقا". ولما أراد القيام قال شهربراز: "السر لا يحمله إلا اثنان فازداد ذاك". فأشار قيصر إلى شهربراز، فاستل سيفه وقتل الترجمان، ورجع كل واحد إلى موضعه. جمع قيصر جنوده وخرج سحر بلاد فارس وغلب جميع ما كان غلب عليه شهربراز وسار إلى العراق يهزم ويقتل.

فلما قدم قيصر العراق كتب له شيرويه بن كسرى أبرويز ابن أخت قيصر، وذلك بأن كسرى تزوج بأخت قيصر فولد له شيرويه. وعلم شيرويه أن يقبض على أبيه كسرى ويسلم الملك إلى خاله قيصر، ففطن كسرى بذلك. أخذ شيرويه وسجنه.

ثم إن كسرى احتال في دفع قيصر عنه بعد أن ملك إلى باب المدائن. فدعا أحد الرهبان الذين يوجدون في مملكته ووعده ومنّاه إن هو حمل كتابه إلى شهربراز أن يكرمه ويكرم جميع الرهبان الذين في مملكته، ويبني له ديراً. وقال له: "إنما أبعثك لئلا يظن أن معك كتابي إذ أنت من جملتهم.

وفيه:

أما بعد فقد وفيت بما ضمنت لي من الكيد على قيصر حتى أخرجته من بلاده وأوقفته في حدودي. فينبغي أن تأتي من بعده بالعساكر الذين معك، وأطّلع أنا من أمامه فنستأصله وأوليك موضعه. وموعدنا يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا.

ثم إنه أقرأه الراهب ليعلم ما فيه وسلمه إليه. فأخذه وسار حتى وصل إلى عسكر الروم، ولما سمع صوت النواقيس جرت دموعه وقال: "بئس الرجل أنا إن أعنت على أهل ديني". فحمل الكتاب إلى قيصر وسلمه إياه، فقرأ قيصر الكتاب وتحيّر بما فيه. اتهم شهربراز ولم يدرِ ما يصنع إلّا أنه أقام مكانه.

ثم كتب كسرى كتاباً آخر وسلمه إلى رجل من أهل فارس، قال له: "امضِ على غير سمت عسكر الروم وتعالَ إلى عسكر الروم، كأنك قد جئت من عند شهربراز وتعرض لهم حتى يلزموك ويأخذوا الكتاب منك". وفي الكتاب: "من شهربراز عبد كسرى إلى الملك: أما بعد فقد أخرجت

قيصر من بلاده بالمكر والحيل، وخاصلته ببلادك فاستقبله بمن عندك من العسكر، وإني أنا خلفه فنستأصل شأفته.

فأخذ الكتاب ومضى كما أمره كسرى. دخل عسكر الروم فلزموه، وأخذوا الكتاب منه وسلموه إلى قيصر. رآه بخط شهربراز وختمه، فلما قرأ قيصر الكتاب الأول والثاني، أمر بضرب الناقوس للرحيل إلى بلاده. وكتب إلى شهربراز يستخونه وينسبه إلى الغدر. فذكر له شهربراز أنّ "كسرى قد احتال عليك حتى رحّلك عن بلاده وليس لي علم بشيء من هذا"، فلم يصدقه قيصر وتحيّر شهربراز في أمره.

ثم إن كسرى كتب إلى شهربراز يطيّب نفسه ويخبره برضاه عنه فأمره بالقدوم عليه. أقبل شهربراز إلّا أنه لم يعتمد على كسرى. كان ابن كسرى مسجوناً، فأدال به شهربراز حتى أخرجه من السجن. واتفق هو وشيرويه على كسرى أبيه، فما زالا حتى قبضا عليه وسجناه في موضع شيرويه، وجلس شيرويه على سرير المملكة وسلّم الناس عليه بالملك وبايعوه على ذلك.

ويقال إن أحداً غيره لم يقتل بعد موته رجلين، إلا كسرى أبرويز كان قد وقع في نفسه أن ابنه يقتله بأمارات رآها منه. فعمد إلى حق من ذهب ووضع فيه سمّاً وكتب عليه: "دواء للجماع". من أخذ منه ثلاثة مثاقيل وشربه بشراب جامع كذا وكذا مرة لا يضره الجماع شيئاً، وختم عليه وجعلها في خزانته الخاصة.

ثم إن شيرويه خشي من أبيه وأنفذ إليه رجلاً من القواد ليقتله. فلما دخل الرجل على كسرى، قال له كسرى: "ما وراءك؟"، قال: "بعثت لأقتلك". قال: "إنك لم تقتلني لأن أباك كان حراً وأنت رجل حر، وجزاء الخير عند الأحرار ما يكون إلا خيراً"، فاستحياه الرجل وخرج وأخبر شيرويه بقول كسرى واستعفاه من قتله.

فبعث إليه شيرويه رجلًا قد قتل كسرى أباه. وقال له: "ادخل عليه وخذ منه بقصاص أبيك". فدخل الرجل عليه، قال له كسرى: "من أنت؟"، قال: "أنا فلان بن فلان"، قال: "لِمَ جئت؟"، قال: "أمرت بقتلك". قال: "أنت الذي تقتلني لأنني قتلت أباك وليس من صليب أبيه من ظفر بقاتل أبيه ولم يقتله"، فقتله الرجل ثم خرج.

فقال له شيرويه: "ماذا قال لك كسرى؟"، فأخبره بقوله. قال شيرويه: "هذا مثلي ومثلك. أنت قاتل أبي وقد قدرت عليك، فإن لم أقتلك كنت لغيره". فأمر بقتل الرجل، هذا واحد بعد موته.

وأما الرجل الآخر فهو ابنه شيرويه، أخذ مفتاح الخزانة من وسط أبيه وفتحها فرأى فيها ملكاً عظيماً وظفر بالحقّ. ففرح به فرحاً عظيماً وقال بهذا كان يتقوى على شيرين. فأخذ منه مثقالاً فوقع شكيره ولم يهنأ بشيء من ملكه ومات في أيام قلائل، فهذه من جملة حيل كسرى بعد موته.

ثمر ونوى حيلة النعمان بن المنذر.

وذلك أنّ كسرى أنوشروان كان قد ولى النعمان بن المنذر على العرب وجعله ملكاً عليهم. كان كسرى ملك الفرس والنعمان ملك العرب. دخل النعمان على كسرى ذات يوم وبين يديه ثمر منزوع منه النوى، وقد جعلوا موضعه لوزاً.

أراد كسرى أن يمازح النعمان فاستدعى شيئًا منه ووضعه بين يدي النعمان، والنعمان لا يعلم حبّ الثمر كيف هو، إلا أنه رآه يأكل ولا يرى نوى. فأكل النعمان وبلع النوى موافقة لكسرى. فضحك كسرى وجماعته وأطعم النعمان ما بين أيديهم.

فطن لذلك وطلع من عند كسرى وكتب من ساعته إلى العرب أن تنهب أطراف المدائن ونيسابور والحيرة إلى الكوفة. ففعلوا ذلك وحلقوا الناس وانقطعت السبل، وكثرت الشكاوى إلى كسرى، فأحضر النعمان وذكر له ما جرى.

فقال النعمان: "إن أمري ليس مطاعًا ولا مسموعًا لأنني كنت عند العرب ملكاً، والآن صرت عندهم مطرة، فشعبوا عليّ وعصوا أمري". ففطن كسرى لما أراد وقال له: "إنما أردنا الملاعبة"، وخلع عليه، وبره. فأنفذ إلى العرب وردهم عما كانوا عليه.

طريق الأحجار الكريمة حيلة بعض الملوك.

كان في بعض المصافات فكسر عسكره وانهزم، وانهزم الملك أيضاً فطلبوه. وجعل ينثر في طريقهم فصوص الجوهر والزمرد والبلخش والياقوت والدنانير. ظنوا أنها كانت معه ذخيرة وقد سقطت منه. فانشغلوا بلقطها ونجا الملك بنفسه. ولمّا أرادوا بيعها طلع الكل زجاجاً مصبوغاً والدنانير مطلية.

لقاء القمة حيلة ملك الصين.

يحكى عن الإسكندر أنه كان في بعض الليالي مختلياً بنفسه، وقد دخل من الليل شطره. دخل عليه حاجبه وقال له: "رسول ملك الصين بالباب"، وكان الإسكندر محاصِراً للبلد، وهو مستأذن للدخول على الملك. قال: "أدخله". فأدخله وأوقفه بين يدي الإسكندر. سلم ثم قال: "إن رأى الملك أن يستخليني فليفعل". فأمر الملك من في حضرته أن ينصرفوا كلهم. انصرفوا كلهم وبقي خواصه وحاجبه.

قال له: "ما الذي جئت به؟"، قال: "لا ينبغي أن يسمعه أحد إلّا الملك". فقال الإسكندر: "فتّشوه". فتّشوه فلم يجدوا معه شيئاً، فأخذ الإسكندر بيده سيفاً مسلولاً وقال له: "قف مكانك وقل ما شئت"، بعد أن أخرج كل من عنده. قال له: "أنا ملك الصين لا رسوله، جئت إليك أسألك عما تريده. فإن كان ممّا يمكن عمله ولو على أصعب الوجوه عملته وأعفيتك من الحرب". فقال له الإسكندر: "وما الذي أمنك مني؟"، قال: "علمي بأنك عاقل حليم ولم يكن بيننا عداوة ولا مطالبة، ولو قتلتني ما سلّم أهل الصين إليك البلد وأقاموا ملكاً غيري، ثم تنسب إلى غير الجميل وضد الحزم".

فأطرق الإسكندر ساعة، وعلم أنه رجل عاقل فقال له: "أريد منك ارتفاع ثلاث سنين عاجلاً ونصف ارتفاع ملكك كل سنة". قال: "غير هذا". قال: "لا". قال: "قد أجبتك ولكن اسألني كيف يكون حالي بعد ذلك". قال: "كيف يكون حالك؟". قال: "أكون أول قتيل من محارب وأول مفترس". قال: "إن قنعت منك بارتفاع سنتين؟". قال: "يكون أصلح قليلاً وأفسح مدة". قال: "فإن قنعت منك بسنة؟"، قال: "يكون في ذلك بقاء ملكي وذهاب جميع لذاتي". قال: "إن قنعت منك بالثلث من الارتفاع؟". قال: "يكون الثلث للفقراء ومصالح البلاد ويكون الباقي لجيشي وسائر أسباب الملك"، قال له: "قد اقتصرت منك على هذه"، فشكره وانصرف.

فلمّا طلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلاك، وتواثب أصحاب الإسكندر إلى خيلهم وركبوها واستعدوا للحرب. فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين وعليه التاج وهو راكب، فلمّا رآه قال له الإسكندر: "غدرت". فقال له بعد أن ترجّل: "لا والله". قال: "فادن منّي".

فدنا منه وقال له: "ما هذا الجيش العظيم؟"، قال: "أردت أن أريك أنني لم أطعك عن قلّة وضعف، ولكن لما رأيت العالم العلوي مقبلاً عليك ممكناً لك من هو أقوى منك فأردت طاعته وطاعتك".

فقال الإسكندر: "ليس مثلك من شيم الذلّ ولا يؤدّي الجزية"، وودعه وانصرف عنه.

الالتفاف على العدو حيلة بعض الملوك.

كان أحد ملوك الفرس قد أنقذ قائداً من قواده في جيش عظيم إلى محاربة ملك الروم. فأجلاه الفارسي عن أكثر بلاده حتى فتح أنطاكية، وجاورها وأوغل في بلاد الروم. فصار يجمع ملك الروم رؤساء أهل مملكته ويشاورهم. فأشاروا عليه بأمور مختلفة، ولم يوافق شيء شيئاً لرأيه.

فقال لهم إن الفرس قد طمعت في بلادنا فلم يبقَ معهم منجد ولا دواري إلّا وجهّزوه إلينا. وقد ضعفنا عنهم وقد حملوا دواريهم إلى الشام والجزيرة. والرأي عندي أن أنفذ في البحر خمسة ألف فارس من ذوي النجدة والبأس. يخزّنون من خلفهم ويلزمون عليهم مضائق الطرق وصعاب العقاب. فإن بلغهم ذلك فتت في أعضادهم، وطلبوا دواريهم وعيالهم وأموالهم متقطعين، فلا يمرّون بموضع إلّا وفيه من رجالي، وأطلبهم أنا من أمامهم وأصرهم.

فاستصوبوا رأيه وفعلوا ذلك.

ولمّا سمعت الفرس بذلك، وأنّ الروم قد خلفتهم في أموالهم ودواريهم، خرج أكثرهم على وجوههم متقطعين، لا يلوون على شيء، ومرّوا بمضائق الطرق فقتل أكثرهم. وخرج ملك الروم على من بقي منهم فاستأصلهم.

غضب والٍ حيلة ملك الأرمن من تجارب الأمم .

ذلك أن ملك الأرمن كان بينه وبين الأشكري مصافات كثيرة وحروب، وعرف سرعة غضبه وحركاته، وأنّه لا يبالي بالأشياء، ولا ينظر في عاقبة أمرٍ. فكمن له كمينًا على جبلين بالقرب من موضعه الذي هو معسكر فيه، وبينهما مسلك ضيّق.

ثم دسّ إلى المواشي التي توجد مع الأشكري، جماعة من الأرمن فقتلوا الرعاة، وقتلوا الماشية في ذلك المضيق، وأفلتوا بعض الرعاة.

هرب إلى الأشكري فصادفه خارجاً من باب الحمام في سوق دوران فأخبره بالخبر. سار في ستة نفر من أصحابه، وأخذ الراعي معه ليدلّه على الطريق. فما هو إلّا أن وصل إلى نصف الطريق، وكان قد أنفذ إلى عسكره أن يلحقوه، فوصل قبل أن يلحقه عسكره. ولمّا وصل طلع عليه الكمين وعلى من معه، فقتلوهم وأخذوا رؤوسهم وأسلابهم وتركوا جثثهم.

وكان قد تخلّف عنهم شخص لعجز دابته، فلمّا وصل العسكر أخبرهم بالقصة، وعقدوا الرئاسة لابنه شكرستان.

اجتياز النهر حيلة معزّ الدولة.

ذلك أنه أراد أن يعبر إلى الجانب الشرقي فمنعه أعداؤه. وكان قد صنع زوارق في الصراط، وأخذوها إلى الدجلة في الليل، موضع سوق التمارين لأنه أطيب موضع فيه. وأوقف وزيره الضميري واصفهدشت وخواص دولته على العبور. ثمّ إنه بعد ذلك أحضر ابنيه ومن يثق إليهم وأمرهم العبور، وأظهر أنه يعبر من قطربل.

فمضى بالليل في وقت مواعدتهم وضرب الطبول والأبواق وسار بالمشاعل، وحمل بعض تلك المعابر بالدهونية على الظهر. فلمّا رأى أعداؤك ذلك ساروا بإزائه لممانعته. فتمكّن الضميري ومن معه من العبور. وكان الضميري أول من بذل نفسه لأن أصحابه تهيبوا للعبور، فلمّا سبقهم أنفروا وتبعوه.

ثم عاد معزّ الدولة إلى موضعه وقد عبر أصحابه كلهم.

الوليمة حيلة قتيبة بن مسلم الباهلي.

ذلك أنه حاصر سمرقند فلم يقدر عليها. ولمّا عجز عن ذلك أظهر أنه قد زوّج ابنه ويريد أن يعمل دعوة عظيمة، فأنفذ من اشترى من سمرقند ألف حمل خمر لأجل الدعوة حتى تشرب الناس.

ودسّ قوماً من عنده إلى سمرقند يُعلِم أهلها أنه حيلة معزّ الدولة "قد عمل قتيبة كذا وكذا في الليلة الفلانية، فإذا سكروا ناموا فاخرجوا إليهم وخذوهم قبضاً باليد"، فطمعوا في ذلك. لمّا علم قتيبة طمعهم عمل وليمة عظيمة وجمع أصحاب الملاهي من رستاق سمرقند فصحّ ذلك عندهم.

خرج قتيبة في ألف فارس من عسكره وهم أجلاد شجعان، فكمن على طريق العدو. ولمّا كان نصف الليل طلع من سمرقند ألف فارس في طلب قتيبة. ولمّا جاؤوا الكمين خرج عليهم من خلفهم وباقي العسكر من قدامهم، ولم يفلت منهم أحد.

أخذوا أثواب المقتولين وأعلامهم وسلاحهم، وألبسه عسكره، وطلب قتيبة سمرقند. فظنّوا أنهم عسكرهم الذي خرج من عندهم قد رجع إليهم ففتحوا لهم الباب، ودخل قتيبة البلد ولاحقه عسكره، وملك البلد.

الحرب الأهلية والعرب حيلة لملك الروم.

ذلك لمّا تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا له: "قد مكنتك الفرصة من العرب بتشاغلهم في بعض ووضع بأسهم بينهم. والرأي أن تغمروهم في بلادهم، فإنك إن فعلت أذللتهم ونلت حاجتك. ولا ينبغي لك أن تدعهم حتى تنقضي الحرب بينهم فيجتمعوا عليك".

فنهاهم عن ذلك وخطّأهم فأبوا عليه إلّا أن يغزوا العرب في بلادهم.

فلمّا رأى ذلك منهم دعا كلبين وحرش بينهم فاقتتلا قتالاً شديداً. ثم دعا ثعلبًا فسببه بينهما. ولمّا رأى الكلبان الثعلب تركا القتال وأقبلا على الثعلب حتى قتلاه.

فقال ملك الروم: "هكذا العرب تقتتل بينهم فإذا جاءهم الخَصم تركوا ما بينهم واجتمعوا عليه".

التثبت حيلة بعض الأكاسرة.

يحكى أن بعض الأكاسرة كان يحبّ عِمَارَة البلاد فبالغ في ذلك. فأحبّ أن يعرف صدق ما يرجع إليه من العمارة. تمارض وقال: "قد رأيت في منامي أنه لا دواء لي إلّا لبنة من بيت خراب لتسحق وتجبل بخمر ويُطلى به جسدي ثلاثة أيام". فأمر بطلب اللبنة، فلم يقدر عليها لعمارة البلاد. فقيل له: "إنها لم توجد في جميع مملكتك". فقال: "الآن طابت نفسي وعلمت أن العدل قد عمّ".

الصناديق حيلة لقتيبة.

ذلك أنّه كان قد حاصر بخارى بعد أخذه سمرقند، فأرسل إليه صاحبها: "لو أقمت على مدينتنا الدهر الأطول لم تظفر، لأننا وجدنا في كتبنا أن هذه المدينة لا يفتحها إلّا رجل اسمه يالان". فقال قتيبة: "الله أكبر أنا صاحبها"، وكان اسمه بالفارسية يالان.

فلما آسوا من فتحها صنع صناديق وجعل أبوابها تنفتحُ من الداخل، وجعل فيها رجالاً متأكين بالسلاح. وأرسل إليهم: "إني أرحل عنكم شريطة أن تجعلوا هذه الأموال والسلاح عندكم وديعة إلى

حين عودي من موضع كذا وكذا". فواقعهم الطمع في أخذ الأموال وقالوا: "نعم". وعاهدهم على الوفاء بردّها.

حمل الصناديق إلى البلد، وكان موعدهم نصف الليل. فتحوا الصناديق وطلعوا ووقف قتيبة على الباب، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفتحوا الأبواب، ودخل قتيبة وملك البلد.

الوثيقة المزيفة حيلة عضد الدولة.

حكي أنه حفر أساساً لبنية يريد رفعها، فوجد فيها جرات فيها دراهم دقيانوسية، وعليها صورة الملك والمسيح. أخذها وختم عليها بالرصاص وأخذ منها وردها، واستحضر الجاثليق وقال له: "أفترى ما على هذا الدرهم؟"، فقرأه وقرأ تاريخه وحسبوا زمانه، وإذا به من زمن المسيح عيسى – عليه السلام –. فأحضر عضد الدولة نروقاً جيداً أوحداً، وأمره أن يصور صورة الملك دقيانوس قائماً بين يديه المسيح، وهو يحدثه بحديث يأتي ذكره. فلما فرغ من تصويره حبسه، ثم استدعى الجاثليق وقال له:

اكتب بالسريانية أو بالرومية أنه يظهر في سنة كذا وكذا – وذكر عصره وزمانه – رجل صورته كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وسيرته كذا وكذا، ويملك كذا وكذا، من أطاعه حفظ دينه وماله ونفسه وملكه وأولاده، ومن عصاه وخالفه أو سلّ في وجهه سيفاً أباده وقلع شأفته واستأصل ملكه. فمن أدركه من ملوك النصرانية فلا يخالفه فيما يحكم به عليه، والسلام.

فلما كتب ما أمره به أمر بحبسه ودسّ عليه وعلى المصور من قتلهما وأنسى ذكرهما.

أخذ السلطة بطيبة نفس حيلة أخرى لعضد الدولة على بختيار[14] وذلك لما كسر الطلائع والأتراك، وهربوا منه إلى تكرمت طالبين بلاد الشام والطلائع معهم، لم يشكّ أحد أن عضد الدولة متولٍ على مملكة بغداد ويضيفها إلى ملكه، لضعف بختيار عنها واشتغاله بصنوف اللذات، وتجاسر الديلم والأتراك عليه.

ففكر في حديث الناس وعلم أنّ أباه ركن الدولة لا يصبر على ذلك ولا يحتمله. فاتّخذ عضد الدولة دعوة عظيمة ودعا إليها بختيار وإخوته ومحرز بن بقية وسائر عسكر بغداد. وخلع عليهم الخلع على مقدار مراتبهم وجعل ذلك كالوداع. وأظهر الرحيل إلى فارس وأمر بإعادة الميرة في المنازل. وأوقف رؤساء الجند في السوق يثورون على بختيار، ويشعثون عليه، ويطلبون معايشهم، ويشكون تغير أحوالهم، ففعلوا ذلك وبالغوا فيما أمرهم به. وبختيار صفر اليدين لا يملك حيلة.

ثم إنّ عضد الدولة راسل بختيار بالتشديد والغلظة أن يصرف المال ولا يعدهم بما لا يقدر عليه، فلجوا عليه. واستعفى من الرئاسة ووعده عضد الدولة أن يتوسط الحال بينهم. فأبت الجند وكروا

على بختيار بالمطالبة. فلم يجد عدولاً عن الصدق وأنه لا يقدر لهم على شيء. فأعفاه عضد الدولة وغلق بابه وصرف ديوانه. وقال:

"لست أميركم اعقدوا لمن شئتم".

ثم أنفذ إلى عضد الدولة بما سكن إليه، وأمر الجند بالتفرق، واستدعى بختيار إلى داره بسبب الشفقة عليه وعلى إخوته وقد كان خائفاً. ثم جمع الجند وأخبرهم أن بختيار قد استعفى وعزل نفسه من الأمارة وأنه يخلطهم بعسكره ويشملهم بإحسانه وأن بختيار كان نائباً عنه وعن ركن الدولة، فسكتوا وتفرقوا بقول عضد الدولة. ثم قبض على بختيار وإخوته.

سرقة لا شهود عليها حيلة أخرى له مما حكاه أبو الفرج بن الجوزي في كتابه حيل الأذكياء .

إنّ رجلاً قدم للحج مرّ ببغداد، وكان معه عقد حب قيمته ألف دينار فاجتهد في بيعه ولم يتفق له بيعه. فجاء إلى رجل عطار موصوف بالخير أودعه العقد ومضى.

فحج وعاد معه هدية حسنة.

فقال له العطار: "من أنت وما هذه الهدية؟"، قال له: "يا مولاي أنا صاحب عقد الحب الذي أودعتك إياه قبل الحج". فما كلمه العطار حتى رفسه وقلبه من على الدكة، وقال له: "أي عيار أي نصاب؟". واجتمع الناس وشهدوا للعطار بالخير، فتحيّر الحاجي وتردد إليه فما زاده إلا ضرباً وشتماً.

فقيل له: "لو ذهبت إلى عضد الدولة فله في هذه القصة الأشياء الخاصة". فكتب قصته وجعلها على قصبة ورفعها لعضد الدولة، فصاح به وأحضر بين يديه فسأله عن حاله ثم أخبره بالقصة.

فقال له:

اذهب إلى العطار واجلس على دكته فإن منعك فاجلس مقابله من بكرة إلى المغرب ولا تكلمه، وافعل ذلك ثلاثة أيام فإني أمرّ عليك في اليوم الرابع وأقف أسلم عليك، فلا تقم لي ولا ترد عليّ رداً جيداً، وإذا سألتك عن مجيئك وعن حاجتك فلا تخاطبني مخاطبة طويلة، فإذا انصرفت عنك فأعد على العطار ذكر العقد ثم أعلمني بما يكون منكما.

فجاء الحاجي إلى العطار ليجلس فمنعه من الجلوس، فجلس مقابله ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع جاز عضد الدولة في موكب عظيم. ولما رأى الحاجي وقف عليه وقال: "سلام عليكم". قال له الحاجي ولم يتحرك: "وعليك السلام". فقال له: "يا أخي تقدم إلى ها هنا ولم تأت إلينا ولا تعرض حوائجك علينا". فقال له الحاجي كما اتفق ولم يتبعه كلاماً، وعضد الدولة واقف يسأله والعسكر واقفون، والعطار قد أغمي عليه من الخوف.

فلما انصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الحاجي وقال: "متى أودعتني هذا العقد وفي أي شيء هو ملفوف؟ ذكّرني لعلي أذكر". فقال له: "من صفته كذا وكذا وهو ملفوف في كذا". فقام العطار وفتش ثم أطلع برنية ونفضها، فوقع العقد. قال: "كنت قد نسيت ولو لم تذكرني ما ذكرت"، وأخذ الحاجي العقد ومضى.

وقال في نفسه: "أي فائدة في إعلام عضد الدولة!"، ثم قال: "ولعله يشتريه". فمضى إلى عضد الدولة وأراه العقد. فبعث إلى العطار وصلبه وكتب رقعة وعلقها في خلفه: "هذا جزاء من خاف من مخلوق مثله ولم يخف من الخالق".

العبد المقتول حيلة أخرى له.

يحكى أنه كان له مملوك تركي، وكان يقف مقابل روزنة ينظر إلى امرأة فيها. فشكت المرأة إلى زوجها، دنا إليه وزجره. فلم ينزجر ولا رجع عما هو عليه. فقال الرجل لزوجته: "اكتبي له في رقعة: لا معنى لوقوفك تحت الروزنة، بل تعالَ بعد العتمة فإني أنتظرك خلف الباب".

ثم إن زوجها حفر خلف الباب جباً غميقاً عمقه عشرون ذراعاً وضع عليه باريّة. فلما كتبت إليه الرقعة جاءها العتمة ووقف له زوجها. فإذا به قد أقبل ففتحت الباب فوضع رجله على الباريّة، فنزل إلى الجب. ثم طمّ عليه التراب ووطي موضعه كما كان وبقي أياماً يدور خبره كيف هو.

فسأل عنه عضد الدولة فقيل له من أيام ما رأيناه. فسأل بيته قالوا: "له أسبوع لم نره". فأنفذ عضد الدولة إلى المؤذن الموجود في المسجد الذي في محلة التركي، فأخذه أخذاً عنيفاً رسيلاً. فلما حضر بين يديه قال له: "لا تخف وهذه مئة دينار. أريد إذا رجعت إلى بيتك، فأذن الليلة بوقت، فأول من يدخل عليك وسألك عن سبب إنفادي خلفك عرفني به". قال: "نعم". ثم فعل ذلك، فكان أول من دخل عليه الذي قتل المملوك، قال له: "قلبي عليك أي شيء أراد منك عضد الدولة؟".

قال: "ما أراد إلا خيراً".

فلما أصبح خبر عضد الدولة بالرجل، أنفذ خلفه وأحضره. ثم قال له: "ماذا فعل فلان؟". قال: "أصدقك". قال: "لي امرأة تعرض بها فنهيناه مراراً فلم ينته وفضحها بين أهلها ففعلت به كذا وكذا"، وأخبره بالجب. فقال له: "اذهب لا بأس عليك".

التخلص من الحرامية حيلة أخرى له.

ذكر محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه أنه بلغ عضد الدولة خبر قوم أكراد يقطعون الطريق ويقيمون في جبال شاهقة لا يقدر عليهم. فاستدعى أحد التجار ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان، فيهما حلوى قد سممت بالسم، وهي كثيرة الطيب، أعطاه إياها وأمره أن يسير مع القفل، ويظهر أن هذه هدية لبعض أمراء الطريق.

ففعل التاجر ذلك وسار أياماً. نزل الأكراد عليه وأخذوا القفل والأمتعة والصناديق. انفرد أحدهم بالبغل وتسيّب به مع جماعة إلى الجبل وبقي أصحاب القفل عراة.

فلما فتحوا الصناديق وجدوا الحلوى تفوح طيباً. دهشوا وحضروا جميعهم عليها، فرأوا ما لم يروه قط، فأمعنوا في الأكل، واتفق أنهم كانوا جياعاً. فما هو إلّا أن حصل في أمعائهم حتى تصرعوا إلى الأرض جميعهم. فتبادر أهل القفل مع التاجر، صعدوا الجبل وأخذوا جميع مالهم وسلاح الأكراد وثيابهم وقتلوهم جميعاً.

الرجل الذي سرقته الأرض حيلة أخرى له.

يقال إنّ بعض التجار أراد أن يحجّ وكان معه ذهب. فأخذ منه ألف دينار، وأتى إلى أصل شجرة الخروع، وقيل شجرة كركم بقرب بستان، فحفر حيث لم يرَه أحد وطمّ الذهب ومضى إلى الحج. ثم عاد يطلب الذهب، فلم يجده ولا أثر للشجرة.

جعل يبكي ويلطم وإذا سُئل عن حاله يقول: "الأرض سرقت مالي". فلما أكثر ذلك رفع إلى عضد الدولة فقصّ عليه قصته.

فكر ثم أمر أن تجمع الأطباء بين يديه. قال: "من فيكم داوى أحداً بورق الخروع؟"، قال بعضهم: "أنا داويت فلاناً وهو من خواص الملك". قال: "عليّ به". فلما حضر قال: "هل تداويت السنة بعروق الخروع". قال: "نعم". قال: "من جاءك بها؟". قال: "فلان السائس". قال: "عليّ به". فأحضر بين يديه، قال: "من أين أخذت عروق الخروع؟". قال: "من الموضع الفلاني". قال: "اذهب بهذا وأره الموضع". فذهب بصاحب الذهب إلى الموضع بعينه، فقال: "من ها هنا أخذت". قال الرجل في نفسه: "وها هنا دفنت المال".

ثم رجعا إلى عضد الدولة وقصا عليه القصة. فلزم السائس بالذهب ووعده وتوعده، فأحضر الذهب بحاله لم ينقص منه شيء. فذهب له من ماله شيء وأخذ الحاجي ماله وانصرف.

حساب صعب حيلة لبعض الملوك.

قال بعض التجار: دخلت إلى باب الأبواب ومعي متاع يصلح للملوك. فأحضروني عند ملكها، عرضت عليه ما كان معي. فاستحسن منه ثوباً، وكان الثوب مدنّراً فساومني فيه فاستمت مالاً كثيراً. قال: "ذهب ما عندنا ولا فضة وإنما عندنا أمتعة فخذ منها". قلت: "لا يصلح لي شيء". قال: "فغنم عندنا كثيرة خذ ما شئت".

فقلت: "أريد بعدد كل نقطة رأس غنم"، قال: "اشتريت".

فأخذت أعدّ النقط فلم تنضبط لي، وجهد جميع من كان عنده، فتعذّر عليهم عدها. قال لي: "كيف نعمل قد بعتنا واشترينا؟". فطويت الثوب لأخرج، قال:

"ردوه"، فردوني.

قال: "ابسط الثوب" – كل هذا يجري على لسان الرحمن – فبسطت الثوب. فقال الملك: "هاتم حمصاً". فلما حضر الحمص قال: "دعوا على كل نقطة حمصة".

ففعلوا ذلك حتى لم يبقَ شيء إلا وعليه حمصة. قال: "اجمعوا الحمص وسلموه إليه، وكلما أعطيتموه رأساً من الغنم خذوا منه حمصة". فبلغ ذلك مبلغاً عظيماً وانصرفت متعجباً من ذكائه.

البستان المخفي حيلة لملك الإسماعيلية.

كان إذا أراد أن ينفذ شخصاً ليقتل أحداً يسقيه خمراً مبنجاً، فإذا سكر حمله إلى بستان له قد أعده لهذا الأمر فيه كل شيء خلقه الله. وفيه من الحوار والمماليك الصغار والذي لا يمكن أن يكون أحسن منهم، والآلات التي لا يكون في الدنيا أحسن منها، والمآكل التي لا يكون أطيب منها ولا ألذ.

فإذا أفاق الرجل من سكرته رأى روحه في ذلك الموضع. يتعجب منه ويقول: "أين أنا؟". فيقول له الجوار: "أنت في الجنة أنفذك الملك إلينا ونحن الحور العين وهؤلاء الولدان". ثم إنهنّ يخدمنه غاية الخدمة، ويكرّمنه غاية الكرامة، فيبقى في ذلك الموضع أسبوعاً كاملاً ويشرب ويستمتع ويلتذ.

ثم إنهم يسقونه خمراً مبنّجاً فينام، يحملونه إلى منزله، فإذا أفاق رأى زوجته في منزله فيقصد الملك ويسأله العَوْد إلى الجنة. فيقول له: "اذهب اقتل فلاناً فإن قتلت ذهبت إلى موضع رأيت. وإن سلمت حملتك أنا إليها. فيعقد الجاهل ذلك حقاً ويرمي نفسه في المهالك.

الرأس الذي يتكلم حيلة أخرى له.

كان يقول: "إذا مات أحد أو قتل أنا أحييه". وكان له قطع مقور على قدر رقبة الإنسان وطشت لذلك. وكان قد حفر بين يديه موضع مجلسه حفيرة بطول قامة الإنسان. وكان يأخذ الرجل منهم ليذبحه ويبيته في تلك الحفرة ويضع القطع والطشت على رقبته بهندام مليح. فكل من يراه يعتقد الرأس مقطوع في الطشت، ثمّ يصبّ في الطشت ماءً أحمر ويغطيه بمنديل.

ثم يحضر من يريد يحيره عليه ويقول له: "هذا رأس فلان في الطشت". ثم يرفع المنديل ويريه رأسه والدم في الطشت، فلا يشك أنه مقطوع. ثم يرفعه إلى البستان الذي له فيبقى أياماً ثمّ يحمله بعد أن يفيق إلى منزله ويقول: "الملك قد أحياني ووهبني لكم". فيحدث الناس بما رأى في الجنّة من الخيرات ويخدمه أولئك بما رأوا منه فيحصل ذلك في قلوبهم فيفعل بهم ما يريد.

فصْل في حِيَل السَّلاطينْ حتى لا يخالف يمين حيلة أبرهة لما قتل أرباط نائب ملك الحبشة.

كان ذو نواس قد أحرق أهل نجران، فهرب رجل من عظمائهم، يُقال له ثعلبان، على فرس له وقصد ملك الروم. واستنصر بعدما أخبره أن ذا نواس قد خرب البيع، وقتل القسوس، وأحرق الإنجيل، واستأصل أهل دين عيسى.

فقال له ملك الروم: "إن أرضي تبعد عن ملك الناحية، لكنني أكتب معك كتاباً إلى ملك الحبشة فهو على ديننا أيضاً وقريب منك". كتب معه كتاباً إلى ملك الحبشة وسأله الانتصار لدين المسيح، وأخبره بما فعل ذو نواس من هدم البيع وقتل النصارى وتحريق الإنجيل.

أخذه الثعلبان وأتى به إلى النجاشي. فلمّا وقف عليه غضب غضباً شديداً، ثم اختار من عسكره سبعين ألفاً فاستعمل عليهم ابن عم له يُقال له أرباط وتقدم إليه أن "اظفر بذي نواس ولا تدع أحداً على دين اليهود إلّا تقتله".

ركب أرباط البحر إلى أن وصل إلى ملك ذي نواس، ووصل إليه الخبر، فاستعد للحرب. حاربه أرباط وظفر به وقتل كل أصحابه وملك جميع أرض اليمن.

ثم أساء إلى أصحابه فتركوه وطلبوا أبرهة، ووقع بينه وبين أرباط حرب فقتل أبرَهَة أرباطاً وملك موضعه. بلغ الخبر إلى النجاشي أن أبرهة قتل أرباط وملك موضعه، فغضب عليه غاية ما يكون، وحلف ليطأنّ بلاده سهلها وجبلها ويجزّ ناصيته ويهرق دمه.

بلغ ذلك أبرهة ففكر في أمره. فتحت له الفكرة أن أخذ جراباً وملأه من تراب السهل والجبل وجزّ ناصيته ضفيراً، وفصد روحه في قارورة، ولفّ الناصية في خرقة حرير، وختم القارورة والجراب، وأنفذ الجميع إلى النجاشي. وقال: "هذا تراب أرضي سهلها وجبلها، وهذه ناصيتي يجزّها الملك بيده، وهذا دمي ليهرقه الملك ولا يحنث في يمينه".

فأعجب الملك ذلك وقال: "من فطنته هذه جدير أن لا يغيّر عليه شيئاً"، وأنفذ سلطانه وأمره على موضعه.

اكتشاف قاتل حيلة زهير بن خذيمة العبسي.

ذلك أنّ ابنه شاس لما رجع من عند النعمان بن المنذر، بعد دخوله بأخته المتجردة، ما زال يسير حتى وصل إلى ماءٍ من مياه يحيى بن عامر. وكان على الماء صياد قد نصب شباكه، يُقال له ثعلبة بن الأعرج الغنوي. نزل عليه شاس ونام. فلمّا رأى الصياد ما معه، حسنت له نفسه قتله، وهو لا يعرفُه. وقيل في رواية أخرى إن شاس خرج على الصياد بالكلام، فرماه بسهم قتله وقتل الجواد، وأخفاه وأخذ ما كان أعطاه النعمان بن المنذر، ونقل الكل إلى بيته وحدّث زوجته وأسكتها بسرّه.

أبطأ خبره على أبيه فأنفذ إلى النعمان بطلبه. قال له النعمان: "إنه فارقنا من يوم كذا وكذا وأخباره معنا إلى ماء بني كلاب وانقطع خبره عنّا". فعلم زهير أن بني غنيّ قتلوه فأنفذ إليهم يسألهم عنه. قالوا: "ما لنا منه علم"، وحلفوا على ذلك. فسكت عنهم، ثم عمد إلى عشر عجائز وأعطى كل واحدة ناقة محملة شحماً وليّة وبُرّاً وأمرهن أن يقصدنَ حلل العرب، وأوصى كل واحدة أن تقول: "أنا من قبيلة فلان" (غير بني عبس)، وتنتسب إلى أعداء بني عبس، وأن لي ابنة قد زوجتها وأريد طيباً وبيعي بما قدرت عليه، "وعُدْنَ إليّ".

واتفق أن عجوزاً منهم جازت ببني غني وعرضت الشحم والأليّة والبرّ، وباعت عليهم حتى انتهت إلى بيت ثعلبة بن الأعرج الصيّاد. فعرضت عليه الشحم والأليّة والبرّ، فقالت لها زوجته: "من أي الناس أنت العجوز؟". فقالت: "أنا من اليمن من بني محارب، وقد زوجت ابنتي وأنا أطلب لها عطراً". فقالت لها: "يا عجوز لقد لقيت حاجتك عندي وأدركت بغيتك. وحق اللات والعزى عندي طيبُ ما اقتنته إلّا الملوك". ففرحت العجوز وابتاعت منها، وأعطتها مسكاً وعنبراً وأكثرت لها منه حتى تكثر لها من الشحم والأليّة والبرّ، وكان بعلها غائباً.

فقالت العجوز: "من أين هذا الطيب؟" قالت لها: "إن بعلي قتل بعض العرب ومعه ناقة محمّلة طيباً وملبوساً وذهباً".

ثمّ أخذته العجوز ورحلت عنها وقصدت زهير وقالت له: "يا ملك اصنع ما أنت صانع". قال لها: "ومن له؟". قالت: "ثعلبة بن الأعرج الغنوي قتل ولدك"، وأخبرته بالقصة وأعطته الطيب. فركب من وقته وساعته وسار إلى غني وكلاب بحدّه وحديده.

فوصل إليهم واجتمع به المقدم، وكان يومئذٍ خالد بن جعفر وأخوه الأخوص وفارسهم ملاعب الأسنة والربيع بن عقيل وجندب بن البكار والطفيل بن مالك.

فقال لهم زهير: "إن ولدي شاس قتله ثعلبة بن الأعرج الغنوي الصياد". وعرفهم ما صنع من الحيلة حتى عرف قاتل ولده، فطلبوا ثعلبة. قالوا لهم إنه هرب فتحقّقوا ذلك. فقال: "أريد زوجته". فجاءوا بها، فتهدّدها بالضرب والقتل، أقرّت بالأمر على وجهه. قال زهير: "علمتم ذلك حقاً". قالوا: "نعم".

قال: "أنا مطالبكم بدمه". قالوا: "اختر ما تريد". قال: "أريد أحد ثلاث خصال". قالوا: "وما هي؟"، قال: "تعيدون شاساً حيّاً أو تملأون حجري من كواكب السماء أو تعطوني غنوياً حتى أقتله".

قالوا: "أيُّها الملك تروم منّا ما لا نقدر عليه، ولكن نحن نسلم إليك القاتل ونحمل إليك عشر ديات ونطلب بذلك رضاك"، فرضي بذلك بعد الإمالة.

التوق وصغارها حيلة أخرى له.

ذلك لما حاصر لقيط بن زرارة زهير وقومه في جبل الروم وطبق عليهم الأرض. طال ذلك عليهم ونالهم من الحصار أمر عظيم.

ففكر زهير في نفسه، ففتحت له الفكر أن يفرّق بين الفصلان وأمهاتهم ويعطش الإبل خمسة أيام وما فيهم من يعلم مراده ما هو. ثمّ أمر العبيد فأخرجت الفصلان كلها عن بكرة أبيها. خرجت مثل السيل الذي لا يدفع، ولم يشعر العساكر التي مع لقيط إلّا والفصلان بينهم، فأخذوها كلها ونحروها وأكلوها.

فالتفت لقيط إلى سنان بن حارثة وقال له: "أنت داهية العرب وقد بلوت الحروب وما يخفى عليك شيء. أتدري لم أخرج زهير الفصلان حتى سُوّيت عليها الأرض".

قال: "فاصبر عليهم فإنك تأخذهم قبضاً باليد". قال له لقيط: "لم لا أدخل الشعب فأجريه من دمائهم ولا أبقي منهم أحداً؟". قال له سنان: "ما أشير عليك هذا ولكن خذهم بالمطاولة".

فلم يلتفت إلى قول سنان، وكان عنده تجبّر وتمرّد. فلمّا رأى سنان منه الجد تركه ومضى إلى أهله. وقال: "إن دخل لقيط الشعب فكونوا آخر من يدخل. فإن كانت لنا فما يضرّنا وإن كانت علينا كنّا إلى النجاة أقرب". وهذا ما جرى.

أمّا زهير، فإنه أقام على سعي الجبل عبدين ومعهما غلمان وقال: "إذا دخلت العساكر إلى الشعب ولم يبقَ منهم أحد واكتملوا كلهم في الشعب ارفعوا الأعلام".

لمّا دخلت عساكر لقيط جميعها وسنان وقومه في آخر العساكر مستيقظين لأنفسهم رفع العبيد الأعلام. فعلم زهير أنه لم يبقَ من العساكر أحد خارج الشعب.

ونظر إلى الشعب فرآه مملوءاً خيلاً ورماحاً وهم في مضيقة. فأمر العبيد أن يحلّوا النوق والجمال. فحلّت عنها وهامت في وجوهها. وما ظنّك في إبل عطاش خمسة أيام وقد فقدت فصلانها وزجرتها العبيد بلهاذم الأسنة.

فخرجت على العساكر مثل السحاب المتكاثف يتلو بعضها بعضاً والرجال في أعقابها تحثّها. فصدمت الإبل الفرسان وطحطحت الخيل وكردست الفرسان ومزقتهم شذر مذر.

وكان أشدّ الناس قتالاً في ذلك اليوم عنترة ووقع السيف في عسكر لقيط فحصدوهم حصداً وامتلأ الشعب منهم قتلاً. وعلم سنان بالحيلة فنجا هو وقومُه وهو يقول: "كيف رأي المجرب؟".

وأمّا لقيط بن زرارة فالتقاه الربيع بن زياد وقال له: "يا لقيط هذا يوم العناء لكم لا لنا"، وحمل عليه ضربة بالسيف فلق رأسه وخرّ صريعاً.

وأمّا سنان تبعه عنترة وأخذه أسيراً، فأتى به إلى زهير فقتله ومن معه. وهذه أعظم وقعة للعرب وهي عديلة يوم جفر الهَبَاءة.

حمل البطيخ أو الحاجب حيلة السلطان جلال الدولة ذكرها الصابي في تاريخه يقول:

حدثني بعض التجار قال: كنت في معسكر جلال الدولة واتفق أنه ركب يوماً إلى الصيد على عادته. فلقيه سوادي يبكي فقال له: "ما بالك تبكي؟". قال: "لقيني ثلاثة غلمان أخذوا مني حمل بطيخ كان معي وهو بضاعتي كلها".

قال له: "امضِ إلى العسكر. هناك قبّة حمراء، اجلس عندها ولا تبرح حتى أجيء وأعطيك ما يغنيك"، فمضى السوادي كما أمره.

فلمّا عاد السلطان قال لمرافقته: "قد اشتهيت بطيخاً، ففتشوا العسكر والخيم والسوق على بطيخة". فعلوا ذلك وأحضروا بطيخاً. قال: "هذا من أين؟". قيل له:

"من خيمة فلان الحاجب". قال: "أحضروه". فلمّا حضر قال له: "من أين لك هذا البطيخ؟". قال: "الغلمان جاؤوا به". قال: "أريدهم الساعة". فمضى وقد فطن لما يريد السلطان فهرّب الغلمان خوفاً من أن يقتلهم السلطان. وعاد قال: "هربوا لمّا علموا بطلب السلطان لهم". قال: "أحضروا السوادي"، فأُحضر. قال له: "هذا بطيخك الذي أخذ منك". قال: "نعم". قال السلطان: "وهذا الحاجب مملوكي قد وهبته لك حين لم يحضر الذين أخذوا بطيخك، والله لئن خليته لأصلبنك وإلّا فبعه وخذ ثمنه".

فأخذ السوادي بيد الحاجب وخرج، فاشترى الحاجب نفسه منه بثلاثمئة دينار. وعاد السوادي إلى السلطان وقال: "يا مولاي قد اشترى نفسه بثلاثمئة دينار".

قال: "ورضيت؟". قال: "نعم". قال: "اقبضها"، قال: "فقبضتها"، قال: "خذها وانصرف".

اغتصاب حيلة أخرى له.

ممّا حكاه الصابي أيضاً قال: حكى لي هذه الحكاية من كان حاضرها بأصفهان. قال: جاء رجل تركماني ومعه رجل آخر وهو متعلق به إلى جلال الدولة وقال: "هذا ابتغى ابنتي وأريد أقتله بعد إعلامك".

قال له السلطان: "يجب عليه القتل، وإنما تزوجه بها وأعطيك المهر من عندي". قال: "لا أقنع إلا بقتله".

قال جلال الدولة: "هاتم سيفاً"، فجاؤوا بسيف، وقال لأبي الصبية: "تعالَ". فلمّا دنا منه أعطاه السيف ولزم الغمد وأمره أن يعيده للغمد. فلمّا رام الرجل ذلك صار السلطان يقلب الغمد يميناً وشمالاً ولم يمكّنه من إدخال السيف.

فلمّا ضجر الرجل قال: "يا سلطان ما تمكنني؟"، قال له السلطان: "كذلك ابنتك. لو لم ترد الفعل ما مكنته من نفسها. فإن كنت تريد قتله كيف فعل فابنتك فعلت، يقتلان كلاهما". قال: "قد سلمت الأمر إليك". فأحضر القاضي وزوج الرجل بالصبية ووزن المهر من عنده.

الشعير المسموم حيلة لبعض السلاطين.

جاء ببعض الأخبار أن ملكاً قدم جيش على محاصرته، فأخذ شعيراً وطبخه بالماء وقضبان الدفلة، ثم جفّفه وخرج بعسكره ناحيته، ثمّ جعل الشعير في المخالي.

فلمّا أتت طلائع ذلك العسكر انهزم وترك المخالي بحالها. ولمّا نزل العسكر الآخر موضعه وجدوا المخالي مملوءة شعيراً فعلقوها على خيلهم. فما هو إلّا أن استوفتها فوقعت كلها موتى. وخرج السلطان من البلد إليهم فأخذهم قبضاً باليد.

سبائك النحاس حيلة لبعض السلاطين.

يحكى عن بعض السلاطين أنه اتخذ سبائك نحاس فطلاها بالذهب وتركها في خزانته فلمّا ثقب عليه جنده ليأخذوا أرزاقهم أظهر السبائك وقال: "أملهونا حتى نضرب هذا الذهب ونعطيكم أرزاقكم". فصبروا عليه وجاء خراج الرجل وأوفاهم.

جيش الإسناد حيلة نوح على عمّه إبراهيم حتى تمكّن منه.

ذلك لما زحف نوح على عمّه إبراهيم وكان مدبراً من داوود البلخي، فاحتال على تقوية قلوب أصحابه أن أعلمهم أن مدداً كبيراً قد أقبل إليهم وهم يلحقون بهم في الليل. وكانت الحرب قد وقعت في ذلك اليوم عليه.

فلمّا كان في الليل أنفذ طائفة من عسكره مع مواليه وأمرهم بالإبعاد. وإذا كان الثلث الأخير ضربوا طبولهم وبوقاتهم، ودخلوا العسكر على هيئة النجدة. فلمّا أصبحوا ووقعت الحرب وقد قويت قلوب عسكره بالنجدة انهزم عمّه فاستأسره وسلّمه إلى جماعة من أصحابه.

علامات أسرار حيلة ابن سنبر.

كان ابن سنبر معادياً لأبي حفص الشريك، فاحتال في استمالة أبي طاهر بأن أتاه رجل من أصفهان كشف له أسراراً كان أبو سعيد الجنابي قد كشفها له ولم يعلم بها عنده، ولم يعلم أبو طاهر أن أباه

كشفها لابن سنبر.

قال ابن سنبر لهذا الأصفهاني: "انفر إلى أبي طاهر وعرّفه أني الرجل الذي كان أبوه يدعو إليه. فإن سألك عن العلامات والدلائل أظهر له هذه الأسرار". ونثرها عليه ابن سنبر، وإنه إذا تمكن من الأمر قتل أبي حفص الشريك.

فضمن الأصفهاني له ذلك ومضى إلى أبي طاهر وأعطاه العلامات وحدثه بالأسرار فلم يشكّ في صحة قوله. فوثب أبو طاهر، وقام بين يديه وسلم الأمر إليه، وقال لأصحابه: "هذا الذي كنت أدعوكم إليه والأمر له".

فتمكن الأمر وثبت ووفى بما ضمنه لابن السنبر، وقتل أبا حفص الشريك. ثم كان يأمر أبا طاهر وإخوته بقتل من يريد، فقتل رؤساء القرامطة جميعهم وأكثر أمرائهم وذلك بما أراد ابن سنبر.

هروب سجين حيلة للمرزبان كيف تخلص من قلعة سمير.

فلا يقع من الطعام والشراب وخاصة اللحوم وما أشبهها، واقتصر على القوت اليسير من الحنطة. فبلغ ذلك إلى ركن الدولة. وأنفذ إليه طبّاخه الذي يثق به ليتولى ما كان يتولاه من المآكل والمشارب، فحصل الطبّاخ عنده في القلعة وأخذ المرزبان في تدبير الخلاص على يده.

كان الطبّاخ خفيفاً أحمق، وظهر منه ما في نفسه. عرف صاحب القلعة فقتله وضيّق على المرزبان.

وكانت والدة المرزبان تحتال في خلاصه، وكان شخص يعرف بابن الصابي كان شاطراً جلداً. فضمن لأمّ المرزبان خلاصه وأطلقت له مالاً كثيراً. كان معه شخص آخر يعرف بيونان، وكان أيضاً جلداً شاطراً. فضمن أيضاً لها خلاص ولدها، فجمعت بينهما وأعطتهما مالاً عظيماً.

فلبسا زيّ التجّار وأظهرا الورع والدين ولزما فناء القلعة، وراسلا أميرها وعرّفاه أنهما تاجران، وأنهما كانا فيما مضى يعاملان المرزبان، وأنه أخذ بضاعتهما ومتاعهما. وسألاه أن يجمع بينهما وبين المرزبان لينجز كتبه وعلاماته بإزاحة الغلبة عن أموالهما وما تستحق التجار عليه. وأرسلا الدعاء له والدعاء على المرزبان، وأكثرا لعنته وشتمه وقالا: "الحمد لله الذي كفى الناس شرّه"، وأنه لا يعرف الله ورسوله.

وما زالا بمثل هذا وشبهه حتى رقّ لهما صاحب القلعة وأوصلهما واحداً واحداً إليه للاجتماع. فقال المرزبان: "لا أعرفهما"، وأقسما زوراً أنهما يقولان الصحيح وخوفاه الله ورسوله وسوء العاقبة. فقال: "إني لا أعرف حسابهما ولكنني أكتب بأن يحاسبا".

وكثر تردّدهما إليه، وضمّت أمّه إليهما وصيف الديلمي المشطب وأبا الحسن ابن الحيني وجماعة غيرهم. وحملوا ألطافاً إلى صاحب القلعة. وكانوا يشترون الحوائج ويشكون من ظلم المرزبان وعدوانه، ويوصلون إلى المرزبان الكتب ويأخذون الجواب، ويدينون إليه الذهب الكثير فيصرفه في مصالحه وفيما يحتاج إليه.

وكان لصاحب القلعة غلام أمرد حسن الوجه مليح الشمائل كان يحمل ترساً وطبراً. فأظهر المرزبان عشقه ومحبته ويعطيه ويصب له حتى أعطاه شيئاً كثيراً. وعلم أنه لا يخرج ولا تتم الحيلة إلّا بذلك. وصار يعطيه أشياء كثيرة لها خطر ويقول له: "إذا خرجت من ها هنا ولّيتك الولايات الكثار وتصير أميراً"، وتصبّره حتى تهور الصبي وأطاعه في كل ما أراده وطلبه منه.

طلب منه درعاً فجاءه به في زنبيل وغطّاه بتراب وسكاكين عدة، وأوصل إليه مبارد من شمع، واجتمع معه على الحيل حتى توافق المرزبان والصبي والتجار على يوم معلوم يقتلون صاحب القلعة.

صار التجار يجوزون واحداً واحداً والبواب يوصلهم إلى المرزبان بموافقة الغلام. فدخل صاحب القلعة على المرزبان على عادته ليتفقده وينظر أحواله. كان المرزبان بموافقة الغلام وقد برد قيوده وتركها في رجليه زوراً ولبس الدرع والتفّ فوقه بكسائه. فما هو إلّا أن حصل صاحب القلعة عنده قريباً منه وثب عليه المرزبان ووضعه تحته وأخرج سكيناً وجاءه بها وضربه الغلام بالطبر فقتله. ووثبت التجار على البوابين والذين معه قتلوهم وطلع المرزبان ملك القلعة ومعه الصبي والتجار. وصل إليه عسكره، من وعده بينهم، وخرج من القلعة ولحق بأنصاره.

الغنيمة المخبأة حيلة لِلجِبَاني.

كان يوهم أنه يعلم أسرار أصحابه وباطن أمرهم، وأنه مطلع على ما في ضمائرهم. وكان قد غزا قوماً وغنم مالاً عظيماً، فوقع بيد أصحابه منه طرف كثير وحبسوه عنه. أخذ عقود حب وجواهر نفيسة من جملة تلك الغنائم ودفنها في موضع غائص من الصحراء.

واستدعى بأخوين من أصحابه بمحضر من جميع جنده. وقال: "ما جزاء من خان هؤلاء في ماله ونفسه وارتدّ عن دينه؟". وقال الواحد من الأخوين: "يجب عليه القتل". فقال لأخيه: "اقتله لأنه منافق وخائن ومرتدّ وهو حق لله عليّ لا أقدر على تركه وقد طهرته بالقتل".

ثم قال: "امض أنت مع جماعة إلى الموضع الفلاني فاحفره وهات ما خبأه أخوك، ودلّهم على الموضع بعينه". فمضوا واستخرجوا ما كان مدفوناً. وأخذه بمحضر من أصحابه وقال:

إنما استحق القتل بشكّه فيّ وظنّه أني لا أعلم سرّه وأني لا أعرف موضع دفنه، وهذه سنتي فيمن شك فيّ منكم، وكل من ارتاب بإمامه فهذا جزاؤه. فأما من تاب وأظهر التوبة ورد ما معه فهو

مغفور له إذا استغفر وإذا أتى بما حبس، فأتت الأموال تنهال عليه من كل جانب مع إنابة واستغفار وتمّ له ما أراد.

اكتساب الصيت الحسن حيلة لأمير الزنج.

ذلك أنه صعد إلى سرّ من رأى، فأظهر الصلاح ومشى في زيّ النسّاك، وذلك في زمان المعتزّ. وأظهر أنه ينصح المسلمين ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويرشد إلى الخير. فرفع رقعة إلى المعتمد يقول فيها: "إنني اجتزت بالبصرة فرأيت العبيد بما يسامون الخدمة والكدّ نهاراً فإذا كان الليل قيدوا. وما بهذا أمِرنا وقد أوصى رسول الله – صلَّى الله عليه وآله – فقال: الكتاب بما ملكت إيمانكم. وأمر بحسن العشرة معهم. وطلب كتّاباً إلى البصرة يوصونهم بالعبيد". وكانت البصرة لقربها من البحر يقيدون مماليكهم بالليل حذراً أن يهربوا إلى المراكب فلا يكون لساداتهم عليهم سبيل، وينهيهم عن الإساءة إليهم ويمنعهم من تقييدهم. فكتب له السلطان: "هذا رغبة في الخير وظنّ خير". فلمّا ورد البصرة وأحضر الناس وألزمهم العلم بما في الكتاب فأجابوا إليه واستحسنوه ورضوا وقبلوا. وشاع ذلك الخبر في الزنج، وسألوا عمّن كان السبب فيه فقيل: "رجل صالح يلبس الصوف ويأكل الحلال ويعمل الخوص ويأكل من كسبه ويرفع الشوك من الطرقات ويأكل الشعير مع الرماد وينام على المزابل مع الكلاب لكنه لله في غيرته ينشد الرهبة". ونظروا إليه بعين التعظيم ودعوا له واجتمعوا عليه فكلمهم عن الريح[15] وباح إليهم بما في نفسه. فبلغ كيده في الإسلام كل مبلغ وهتك الحرم وقتل الأطفال وسبى العلويات وبلغ من هذا ما لا تبلغه الروم ولا تفعله الترك.

الوزير المغضوب عليه من كتاب فرح المهج .

يُحكى أنّه كان بعض السلاطين وكان له وزير، كما كان يكثر الأعداء لكونه يصدع بالحق ولا تأخذه في الله لومة لائم. فما يزالون يبعثون إلى السلطان ويكذبون عليه حتى أمر السلطان بقتله. وكان للسلطان كلاب ضوار إذا أراد هلاك أحد كتّفه وألقاه إليها فتُمزّقه كل ممزق. أمر السلطان أن يطرح الوزير بين أيدي الكلاب. فقال للسلطان: "أريد منك أن تؤخرني عشرة أيام حتى أوفي ما عليّ من ديون وأستوفي مالي وأعطي الناس ودائعهم وأقسّم مالي بين أهلي وأولادي وأوصي عليهم أحداً"، فأخره عشرة أيام بعد أن ضمنه أرباب الدولة.

فأتى إلى منزله وأخذ مئة دينار، وطلب بين الكلابزي الذي يربي الكلاب العشرة وقال له: "خلني أخدم الكلاب عشرة أيام".

فأخذوا منه وصار يخدم الكلاب أوفى خدمة ويُحسن إليها، ويطعمها من يده حتى ألفته الكلاب وأنست به أوفى بشيء يكون.

ولما كان اليوم الحادي عشر ذكّر به أعداؤه السلطان. فأحضره بين يديه وأمر به فكتَّفه وألقاه بين يدي الكلاب. ولمّا رأته الكلاب دارت حوله وتركت أذانها وبصبصت بأعينها، وقرصت كتفه وصارت تلعب معه. فلمّا نظر السلطان إلى ذلك بقي حائراً معجباً، فأحضره بين يديه وقال له:

"أصدقني حديثك كيف هو"، قال: "خدمت هذه الكلاب عشرة أيام فكان منها ما رأى السلطان، وخدمتك ثلاثين سنة وكان آخرها هلاكي بقول الأعداء"، فاستحى السلطان وخلع عليه، وطيّب قلبه وسلّم إليه الذين سعوا فيه، فأحسن إليهم وصرفهم.

المخطوطة القديمة حيلة أخرى من تجارب الأمم حكى أبو السمر بزنجي عن توصيل الحسين بن القاسم[16] إلى الوزارة خبراً لطيفاً. كان أبو علي الحسين بن القاسم يُعرف بابن الجمال، وكان لي صديقاً، يسكن إليّ، ويستدعيني إلى المواضع التي يستتر فيها ويشاورني فأكرمني بذلك حقاً وحرمةً، فاجتهدت في السعي له والتوصل بكل سبب وحيلة أن يتقلّد الوزارة.

كان من أحسن ما عملته أن رجلاً في مدينة السلام يعرف بالدنيالي، كان يلازمني ويبيت عندي ويخرج إليّ مرة، ويحدثني أنه يظهر كتباً ينسبها إلى دانيال بخط قديم، ويودع ذلك أسماء قوم من أرباب الدولة على حروف مقطعة فإذا جمعت فهمت.

استولى له بذلك جاهاً وقام له به سوق، ووصلت إليه بذلك جملة هدايا من القاضي أبي عمر وابنه أبي الحسين ووجوه الدولة، وغلب على مفلح واختص به لأنه زعم أنه وجد في الكتب القديمة أنه

من ولد جعفر بن أبي طالب. فجاز ذلك عليه ووصل منه بر كثير.

وانفتح لي أن سألته فصلاً في كتاب يكتبه ويشرح فيه ما أسأله، فأجابني إلى ذلك، ووصفت له الحسين بن القاسم، فاختصرت منه وصفه على ذكر قامته وآثار الجدري في وجهه، والعلامة الموجودة في شفته العليا، وخفة الشعر هناك. وأنه إن وزَّر على الثامن عشر من الخلفاء العباسيين[17] استقامت أموره كلها وعلي على أعدائه وفتحت البلاد على يديه وعمرت الدنيا في أيامه. ودفعت النسخة إلى الدنيالي فأتقن في عمل دفتر يذكر فيه أشياء ويجعل هذا الباب في تصانيفه.

وسألته تقديم ذلك، ولم أزل أطالبه حتى أعلمني أنه لا يستوي حتى لا يشكّ فيه أقل من عشرين يوماً، وأن يحتاج أن يجعله في التبن أياماً، ثم يجعله في الخف، ويمشي عليه أياماً، فإنه يصفر ويعتق. فلما بلغ المبلغ صار إليّ وهو معه فأرانيه، فوقفت على الفصل ورأيت دفتراً لولا علمي به لحلفت يميناً أنه قديم لا شك فيه.

ومضى به إلى مفلح يقرؤه عليه في جملة أشياء. فقال له مفلح: "أعِدْ عليّ هذا الفصل"، فأعاد. ومضى مفلح إلى المقتدر بالله فذكر له ذلك، وطلب الدفتر فأحضره بين يديه وقال له: "من تعرف بهذه الصفة؟". وأقبل المقتدر يكررها فذكر مفلح أنه لا يعرف أحداً بهذه، وحرص المقتدر على أن يعرف أحداً يوافق هذه الصفة.

فقال مفلح: "لا أعرف إنساناً يوافق هذه الصفة إلاّ الحسين بن القاسم الذي يقال له ابن الجمال".

فقال له المقتدر: "إن جاءك صاحب له برقعة فخذها منه، وإن جاءتك رسالة فعرفنيها وقف عليّ ما يجري في أمره ولا يعلم أحد به".

وخرج مفلح إلى الدنيالي فقال له: "هل تعرف أحداً بهذه الصفة؟"، فأنكر ذلك وقال له: "إنما قرأت عليكم كتب دانيال ولا علم لي بغير ذلك".

فانصرف إليّ وحدثني بهذا الحديث. فقمت من وقتي إلى الحسين بن القاسم وأعدت عليه الحديث. فسره ذلك غاية السرور وابتهج غاية الابتهاج، وظهر في وجهه استبشار عظيم وقال: "سوف ترى ما أصنع معكما". فما كان إلاّ أياماً قليلة حتى استوزره المقتدر.

الأسقف والطبيب حيلة لوزير سابور[18] .

من كتاب سلوان المطاع حكى فيه يقول: إن سابور ذا الأكتاف (وإنما سمي ذا الأكتاف لأنه كان من جنى جناية خلع أكتافه) عزم على الدخول إلى بلاد الروم متنكراً متجسماً، فنهاه نصحاؤه وأصدقاؤه عن ذلك، وحذَّروه التغرير بنفسه فيما يمكن الاستبانة فيه. فعصاه وأمرهم بكتمان أمره

ومضى لوجهه. استصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله، وكان شيخاً ذا دهاء وحزم وسداد رأي وحيلة وبصيرة بالديانات واللغات، وتبحر في العلوم وخبرة المكائد. فسلم إليه جميع ما يحتاج إليه، وأمره أن يتجاوز عنه ويكون قريباً منه ويرعاه في جميع أحواله في ليله ونهاره، وتوجهاً قِبَل الروم.

تظاهر الوزير بالرهبانية وتكلم بلسان الحمالقة وانتهى إليهم، وتحرّف بصناعة الطبيب ومعالجة الجرائح، وكان معه الدهن الصيني الذي اندهنت به الجراح وبرئت لوقتها. وكان ذلك الوزير في مسيره يعالج الجراح بالأدوية فيضيف إليها قليلاً من الدهن فتهدأ الجراح بسرعة. ولا يأخذ على مداواتها أجرة فانتشر له ذكر بالعلم والزهد. وانطلق سابور منفرداً ووزيره برعاية في سائر أحواله.

ولم يزالا على ذلك حتى دخلا قسطنطينية، وقصد الوزير البطرك. فلما دخل عليه أخبره أنه قصده من أرض الخلافة ليستر بخدمته، وأهدى إليه هدية حسنة نفسية، فقبل هديته وقربه واختبره بالنصيحة، فوجده لبيباً، أعجب به عجباً عظيماً. وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك ويمتحنها ليصحبه بما يتفق عليه ويحسن موضعه. فوجده مائلاً إلى الفكاهات معجباً بالأخبار، وجعل يتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة. فلم تطل المدة حتى حلي بعينه وقلبه وصار ألسق به من أنفه. وجعل الوزير يعالج الجرحى ولا يأخذ أجرة فحيق أثره وعظم قدره وأحبته القلوب. ومع هذا كله يفتقد أحوال سابور في كل وقت، إلى أن صنع قيصر وليمة جمع فيها الناس كافة على طبقاتهم وتهدد المتخلفين عنها.

همّ سابور بحضورها، فنهاه الوزير عن ذلك، عند ذلك خالفه وتزيّا بزي ظنّ أنه ساتر لأمره. وحضر مجلس قيصر ليفتقد هيئته وهمته وطريقته في قصره. كان قد استأثر من الذخيرة، وقيصر لما بلغه ما ظهر على سابور من لطف الفطنة وعظم الهمة وشدة البأس في حال صبائه وحذره حذراً عظيماً. فبعث إلى حضرته مصوراً ماهراً، حكى صورته حال جلوسه وركوبه ومنامه وغير ذلك من صروف أحواله. وقدم تلك الصورة إلى قيصر، فأمر قيصر بتصوريها على فرشه وستوره ودوره وقصوره وآنية مأكوله ومشروبه فصنع ذلك عليها.

ولما استقر سابور في مجلس قيصر وأكل مع من حضر أتوا بالشراب في كؤوس البلور والفضة والذهب والزجاج. كان في المجلس رجل من حكماء الروم ودهائهم، ذو فراسة صادقة وفطنة ثاقبة. أنكر نقمة سابور حين شاهده واستلوح من صورته ونظره وإشارته، فخايل الرئاسة وجعل يستشفه ولا يصرف طرفه عنه. وإلى جانب ذلك الحكيم الرومي كأس عليه صورة سابور، فتأمله ورآه مشاكلاً لشكل سابور، فغلب ظنه أنه سابور. أمسك بيده طويلاً، ثم نادى رافعاً صورته: "إن هذه الصورة تخبرني خبراً عجيباً".

فقيل له: "ما الذي تخبر؟"، قال: "تخبرني أن الذي هي على مثاله في مجلسنا هذا".

نظر إلى سابور وتفطن لغيره وتحقق باطنه وأعاد القول، فبلغ ذلك قيصر، أحضره وسأله فأخبره أن سابور معه في مجلسه وأشار إليه. فقبض على سابور وأدناه إلى قيصر وسأله عن نفسه، فتعلل بضروب من العلل.

فقال لهم المفترس: "لا تقبلوا منه فهو سابور لا محالة". وأمر قيصر بقتله إن لم يقرّ، فاعترف أنه سابور.

أمر به قيصر فحبس، وحشد جنوده وأعد عدته مجمعاً على غزو الفرس وتعفية أثر ملكهم. ثم أمر فعملت له صورة بقرة من جلود البقر العظيمة، وطبق عليها الجلود سبع طبقات وصنع لها باباً في أعلاها وروزنة في أسفلها، وأمر بسابور فأُدخل فيها بعد أن جمعت يداه إلى عنقه بسلسلة من ذهب طويلة لكي يأكل بيديه ويشرب، ووكل بتلك الصورة مئة رجل من ذوي البأس يحفظونه، وسار بها بينهم وجعل كل خمسة رجال رئيساً يضبط أمورهم، وجعل أمر جميعهم إلى المطران وهو متولي البلد ولاية دينية، وهو خليفة البطرك. كانت تلك الصورة تحمل بين تلك الجيوش وصحبتها المطران. فإذا نزلت الجنود أنزلت تلك الصورة في وسطهم، وضربت عليها قبة تسترها، وتضرب إلى جانبها قبة للمطران، وتضرب حولها عشرون قبة مستديرة بها في كل قبة خمسة من الحرس، وتضرب خارج ذلك كله قبة كبيرة يصنع فيها الطعام للمطران ولجميع حرس سابور. سار قيصر محتملاً مجمعاً على خراب بلاد فارس لعلمه أنه لا مانع له عنها ومعه سابور على الهيئة المذكورة.

فبلغ وزير سابور ذلك، عندئذ جدّ فيه وجعل يدبر الحيلة في خلاص سابور. انقدح له من الحيلة ما نحن ذاكروه. وإنّ الوزير لما تحقق القبض على سابور قام ودخل البطرك وسجد له، وقال له: "أيها الأب المعظّم إن ما اقتبسته من شكر الرعية من صالح العمل، وأنه لا عمل أفضل من تنفيس كربة من محبوس وخير يقع إلى مضطهد. وقد عملت أيها الأب اشتغالي بمعاناة الجراح، وأن نفسي تنازعني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا، فعسى الله أن يستنفذ بي نفساً صالحة يترحّم عليّ من أجلها ويقدس قلبي بخدمتها ويحفظني".

فكره البطرك ذلك كراهية شديدة ضناً به وحرصاً عليه. ولم يزل يتضرع إليه ويتملقه ويقرب إليه العود إلى أن سمح له بالسفر، وزوده وكتب له كتاباً إلى المطران يخبره به، وأنه قد أنفذه بسواد قلبه وسواد عينيه، فليجعله من نفسه بأعلى المراتب" وتستعين برأيه فيما أشكل عليك".

قدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله معه في قبته، وجعل زمام أمره بيده. ثم إنّ الوزير نفق عند المطران بما يعجبه واستماله بالملاطفة، وجعل كل ليلة يسامره بالأسمار الحسنة رافعاً بها صوته ليسلي سابور، وبذلك يؤنسه ويرمي له بالأحاديث والمعنى بما يريد أن يطلع عليه سابور من الأمور. فكان سابور يجد بذلك راحة. وكان الوزير قد أعد من المكائد لتخليص سابور أنواعاً وتهيأ محازينها واستأهب عنه ما قدم عليه.

كان مما أعده الوزير من حيلة ومكيدة أنه امتنع من مؤاكلة المطران، وزعم أن البطرك أعطاه طعاماً وأمره ألا يأكل سواه. فكان إذا حضر الطعام أخرج هو من ذلك الزاد فأكل وأطعم المطران منه. ولم يزل قيصر يسير في جنوده حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتل والسبي والخراب. وساء أثره في البلاد وأهلها، وهو مع ذلك يواصل المسير ليستولي على دار ملك سابور، ويقبض على رؤساء القرى قبل أن تنتظرهم مخافة إلى أن يملكوا عليهم رجلاً يجمع كلمتهم ويندب عنهم. ولم يكن للفرس همّ إلاّ الاعتصام والفرار إلى المعاقل. وسار قيصر حتى بلغ حدى سابور، وهي إذ ذاك دار مملكته هانيسابور. وأحاط بها هو وجنوده ونصب عليها المنجنيقات، ولم يكن للفرس قوة أكثر من ضبط سور المدينة والقتال عليها.

كل ذلك قد عرفه سابور من أمور وزيره بمسامرة المطران كل ليلة. كان سابور فيما ذُكر عنه أنه لم ينطق بكلمة منذ سجنه قيصر في تلك الصورة. فلمّا علم أن قيصر قد ثقلت وطأته على دار مملكته وثلم أسوارها واستضعف حماتها، عيل صبره وساء ظنّه بوزيره وداخله اليأس من النجاة. فلمّا جاءه الموكلون بطعامه وشرابه قال: "إن هذه السلسة التي في عنقي قد أضرّت بي ضراً شديداً. فقل لمولاك: يقول لك سابور لعلك أن تحسن أن توسعها عليّ أو يحول بينها وبين عنقي بحرز من الحرير، فإن ذلك يعينكم على سلامة نفسي إن كنتم تريدون بقاءها".

وكان وزير سابور حاضراً، فعلم أنه قد عيل صبره وساء ظنّه فيه. وكان قصده بهذا إطلاع الوزير على ذلك. لمّا سمع الوزير بذلك دخل المطبخ الذي يصنع فيه طعام المطران وأصحابه وجميع الموكلين بسابور خاصتهم وعامتهم. فألقى في جميع الأطعمة مُرَقِّداً قوي الفعل. ولمّا حضر طعام المطران وأصحابه وجميع الموكلين بسابور تفرّد الوزير، فأكل طعامه كعادته التي رتّبها من الأول. فما إن استقرّ الطعام في أجوافهم حتى استولى عليهم النوم وناموا كلهم على أماكنهم موضع كانوا. لما علم الوزير بذلك قام وفتح باب الصورة عن سابور وأخرجه منها وأزال القيد عنه. وأخذا من السلاح واللباس كفايتهما وتنقلا بزي العسس من حمية إلى حمية حتى خرجا من العسكر وتوجها نحو المدينة حتى أتيا سورها.

فصاح بهم الحرس، تقدم إليهم الوزير وزجرهم عن ترفع الأصوات، وأسر إلى بعضهم سلامة الملك وأرسله إلى زعماء الفرس بما يريد. فأقبلوا وكشفوا ما أرسل به إليهم فعملوا صحته. فتحوا الباب ودخل سابور والوزير، واجتمع إليهم أهل المملكة. فبذل سابور الرغائب للمقاتلة، وأمرهم بأخذ الأهبة وإصلاح العدّة والخروج من المدينة أول ما يضرب الروم الناقوس في آخر الليل. ففعلوا ثم خرج في جماعته وخواصه ورتّبهم ودبرهم وأوصى أمراءهم الاقتراب من عسكر الروم.

فما إن قرع الناقوس من ضربه حتى حمل عليه الفرس وعظماء الأساورة. قام هو معهم وأعلمهم أنه يقصد خيمة قيصر، ونهى عن قتله إن ظفر به. والروم غير متأهبين ولا حذرين لأنهم على يقين من ضعف عدوهم وكسر شوكتهم، وأنهم بلا سلطان، وقد سدّدوا الأبواب بالصخر خوفاً من هجمة الروم عليهم.

فما شعرت الروم حتى هجم عليهم سابور بجنوده، وتحكموا في نفوسهم وكسبوا أشدّ كسب يكون، فأسر سابور القيصر وأكثر خاصته، واحتوى على خزائنه ولم ينج من الروم إلاّ الأفراد. وغنم الفرس الغنيمة العظيمة الكبرى.

عاد سابور إلى دست مملكته وأحضر خواصها وفوّض أمرهم إلى الوزير. ثم أحضر سابور قيصر ولاطفه وقال له: "إني مستبقيك كما أبقيت عليّ وغير مضايقك بما ضيقت علي في حبسي وقيدي. ولكن آخذك بإصلاح ما أفسدت من جميع ملكي وتبني ما هدمت وتغرس موضع كل نخلة قطعتها وشجرة وتطلق من في بلادك من الأسراء الذين أخذت من بلادي". فضمن قيصر له ذلك كله ووفى به. وقال له: "أريد أن تبني سور مدينتي من تراب بلدك". قام قيصر ورعيته بحمل التراب من بلادهم إلى بلاد سابور، وعمّر به ما هدمه من السور، وأحسن سابور إلى قيصر وأطلقه وقال له: "خذ أهبتك وأعد عدّتك وأكثر جيوشك فإني قاصدك ومحاصر لك".

باري الأقواس حيلة.

حُكي عن نوادارج الفارسي أنه كان له وزير يُقال له نموجهر. كان ديّناً عاقلاً يعرف الله، وكان الملك جباراً عاتياً متكبّراً حدث السن شديد البأس متحكِّم العزّة، وكان إذا ركب لا يرفع أحد صوته، لا مظلوم ولا ظالم ولا يدعى. وكان الوزير كثيراً ما يدعو الملك إلى الله تعالى وقد أدرك الحواريين.

فركب الملك ذات يوم وسمع شيخاً رافعاً صوته، فقال السلطان للشرطية: "خذوه"، فلمّا أخذ الشيخ قال: "ربي الله". قال الوزير: "خلوه"، فخلوه. اشتدّ غضب السلطان على وزيره ولم يمكنه الإنكار عليه في ذلك الوقت، فسكت ليوهم الناس أنه أطلقه بأمر من الملك. ولمّا عاد الملك إلى مستقرّه أحضر الوزير وقاله له: "ما دعاك إلى مناقضة أمري بمشهد من رغبتي؟". قال الوزير: "إن لم يجعل الملك عليَّ أريته وجه نصحي وشفقتي وحوطتي عليه فيما أتيته". قال الملك: "أرني ذلك فإني لا أجعل عليك". فقال الوزير: "اسأل الملك أن يحتجب في مجلسه هذا بحيث يرى ويسمع".

فعل الملك ذلك. ثم أحضر الوزير قوساً جيدة الصنعة مُحكمة المؤنة صنعها للملك بعض صناعه، وعليها اسم صانعها. فأعطى القوس غلاماً له وقال له: "إذا حضر فلان صانع هذا القوس وحادثته فاقرأ اسمه حتى أسمعك ثم أكسرها".

أحضر القوس وفعل الغلام ما أمر به الوزير، فلمّا كسر القوس لم يتمالك صانعها دون أن وثب إلى الغلام وضربه فشجّ وجهه وكاد أن يأتي عليه.

قال له الوزير: "أتضرب غلامي بحضرتي؟". قال: "لِمَ كسر هذا وهي صنعتي وهي في غاية الجودة والكمال؟ ولأي أمر كسرها وهو يعلم أنها صنعتي؟". قال الوزير:

"لعله ما علم أنها صنعتك". قال: "قد أخبرته القوس أنها صنعتي". قال الوزير: "كيف نخبر القوس أنها صنعتك". قال: "اسمي عليها"، وقرأه وأنا أسمع. فصرف الوزير القواس ثم قال للملك: "قد أوضحت لك نصحي وإشفاقي وحياطتي عليك، وذلك لما أردت البطش بالشيخ أخبرك أن الله عزَّ وجلَّ ربّه، فخفت عليك من ربّه أن يغضب عليك كما غضب القواس لقوسه".

فقال الملك: "وهل للشيخ ربّ غيري؟". قال الوزير: "نعم". قال: "من هو؟". قال: "الله الذي لا إله إلا هو خالق السماوات والأرض وما بينهما والليل والنهار".

فرجع الملك إلى عبادة الله، وزال عمّا كان عليه ورجع إلى الله – عزَّ وجلَّ –.

فضول امرأة حيلة.

حكى ابن المقفع في كتاب تاريخ الملوك أنّ الإسكندر لما نزل على الجزيرة الفرَّا أعطي خبر بملكتها أن ما في الأرض أحسن منهما صورة ولا في الجنّ ولا في الإنس أظرف منها. فوقع في قلب الإسكندر منها موقعًا عظيمًا، وقال للخضر: "إنني قد عزمت على المسير إلى هذه الملكة بنفسي في زي رسول". قال له الخضر: "لا تفعل أيّها الملك فلا تخاطر بنفسك، فإن هلكت والعياذ بالله هلك العالم بأسره. لكن أرسلني أنا إليها، فإذا هلكت أنا كنت المقيم بالعالم". قال الإسكندر: "لا بدّ لي من ذلك"، فكفّ عنه الخضر. قام الإسكندر وتنكّر ونزل في زورق صغير وأخذ معه من التحف والهدايا ما يصلح للملوك. ثم سار حتى وصل الجزيرة، وكانت الملكة في طارمة لها تشرف على البحر. فلمّا رأته قالت لغلمانها: "عليّ بهذا القاصد إلينا". فأسرعوا إليه وأحضروه بين يديها، فقالت له: "من أنت؟". قال: "أنا رسول الإسكندر إليك". فتأملته ساعة زمانية ثم نهضت وأخذت بيده. وكان لها عشر مقاصير لمنامها خاصة. وقد صورت في كل مقصورة صورة الإسكندر، وكلمّا دخلت به إلى مقصورة تقول له: "انظر إلى هذه الصورة وتأمّلها هي صورته ولك صورة لون وحال من أحواله". فلمّا أرته جميع أحواله رجعت به إلى القصر وخلعته جميع ما كان عليه من الملبوس وقيّدت رجليه وألقته تحت سريرها وأهانته غاية الإهانة وهي تقول له: "كيف وقعت وأنت أخبث الأضيار. فأبشر بما يسوؤك من شدّة الانتقام لمن انتقمت منه".

ثم إن الإسكندر أبطأ خبره على الخضر فعلم أنه قد دهي. نهض الخضر وحضر مراكب وحطّ فيها من الأمتعة والتحف ما يصلح للملوك. ثم طلى وجهه بالزيت وجلس مقابل الشمس كل يوم حتى اسمرّ وجهه. وسار في المراكب حتى وصل إلى الجزيرة، فأخبرت الملكة بخبره، وأمرت به فأحضر بين يديها. قالت له: "بأي شيء أتحفتنا؟". قال لها: "بما يصلح للملوك". قالت: "علي بإحضاره". فنهض إلى المراكب وأحضر من أجود المتاع، ثم جعل يصف لها الأمتعة التي تجلب منها، فأعجبها كلامه وقالت: "ائتني بكل ما معك".

قال لها: "اعلمي أيتها الملكة أن المتاع كثير وهو في عشرة مراكب، ولا أعلم ما يصلح للملكة". فإن تردّدت طال الأمر، فإن رأت الملكة أن تنعم وتتفضل وتأتي المراكب لتنظر ما يصلح لها

تأخذه ويحمله الغلمان. فاستصوبت رأيه ونهضت معه وأخذت معها بعض خواصها ممن تثق بجلادته ونجابته.

ثم إن الخضر التفت فرأى الإسكندر مكبّلاً بالحديد ملقىً. قال الخضر: "أيتها الملكة أسألك في حال هذا العبد لأني ضيف والضيف له حق". قالت: "ما هو عبد وإنما هو الإسكندر الذي قد أخذ الملوك الجبابرة".

قال لها: "وكيف يكون هذا الإسكندر والإسكندر سمعنا عنه أن معه ألف ألف وستمئة ألف مقاتل، وأنا أرى هذا وحده، فأين جنده؟"، قالت له: "اعلم أن صورته عندي في كل حالة يكون فيها وهذا هو بلا محالة". قال لها الخضر: "وكيف قدرت عليه من بين مماليكه وخواصه وجنده". قالت: "جاء في زي رسول حيلة منه فعرفته أنا".

قال: "يا ملكة معي في المراكب مئة وعشرون تاجراً منهم، كأنه هو لا يزيدون ولا ينقصون، فكلهم الإسكندر". قالت: "لا ولكنه هو بعينه لا محالة". فقال الخضر:

"إن كان عما تزعمين فمعي في هذه المراكب أربعون وخمسون وستون وسبعون يعرفون الإسكندر وحضروا بين يديه مراراً عدة، تابعوه وشاوروه فاحمليه معنا إليهم فإن عرفوه اقتليه وارميه البحر وأريحي الناس منه، وإن لم يكن الإسكندر فأطلقيه". قالت: "هذا هو الرأي".

كان الخضر قد أوصى الملاحين والغلمان أن إذا دخلت الملكة ونحن في المراكب أقلعوا الأناجد وابسطوا الشراعات وشوروا المقاذيف.

أخذت الملكة الإسكندر معها وسلّمته إلى اثنين من خواصها، وسارت إلى أن أتت المراكب. نظرت ما فيها من الأمتعة والقماش فأبهرها وأنساها روحها، ونزلت فتركت معها الخضر والإسكندر. ثم إنّ الخضر صار يقلب عليها ألوان الأمتعة وأصناف الأقمشة وهي مشتغلة بالقماش عن نفسها، ولم تزل تقلب والمراكب سائرة إلى العصر.

فلمّا علمت بسير المراكب التفتت إلى الخضر وقالت: "كنت أظن في نفسي أنه ليس أحد أحيل مني، وقد عبرت حيلتك عليّ". فقال: "أنا الخضر وهذا الإسكندر"، فلم تُحر جواباً.

ثم وصل الإسكندر والخضر إلى عسكرهما. جلس الإسكندر على سريره وأحضر الملكة بين يديه. وقال لها: "أيما أحبّ إليك الإيمان بالله والزواج بك أم الكفر والقتل؟". قالت: "الإيمان". فآمنت بالله وتزوّجها وأضافت ملكها إلى ملكه.

ولاية العهد حيلة من كتاب نسب البرامكة ممّا حكاه الحسن بن عيسى الكاتب.

قال: أراد المنصور أن يخلع علي بن موسى[19] من ولاية العهد ويقدم المهدي[20] عليه. فأبى علي أن يجبيه إلى ذلك وأعياه الأمر. بعث إلى خالد بن برمك وقال له: "يا خالد عندك حيلة في هذا الرجل فقد عيل فيه أمري". قال: "نعم يا أمير المؤمنين، ضم إليّ ثلاثين رجلاً من الشيعة وأكفيك هذا الأمر"، ففعل.

ركب خالد إلى علي وركبت معه الشيعة العباسية، فلمّا صاروا إليه أبلغوه رسالة أمير المؤمنين. فقال عليّ: "ما كنت لأخلع نفسي وقد جعل الله الأمر إلي". فخرج خالد من عنده ومعه الشيعة.

فقال لهم خالد: "ما عندكم في أمره؟"، قالوا: "نبلغ أمير المؤمنين رسالته ونذكر امتناعه". فقال خالد: "لا ولكن نبلغ أمير المؤمنين أنه قد أجاب ونشهد عليه إن أنكر ونستغفر الله من هذه الكذبة"، ففعلوا ذلك. جعل أبو جعفر المنصور ولاية العهد إلى المهدي وكتبوا بذلك كتاباً. فأتى به علي بن موسى وأنكر ذلك، فدعا المنصور خالداً والشيعة، سألهم فقالوا: "نشهد عليه بأنه أجاب وليس له أن يتراجع".

فأمضى المنصور الأمر وشكر خالد على ذلك وقال: "لقد كفيتني أمراً مهماً"، وكان المهدي يعرف خالد ذلك ويجعلها من أياديه الجسام.

فقدان الهيبة والشهرة حيلة.

حدّث علي بن محمد المارداني قال: شكا منصور إلى خالد اغتمامه لسيبة الجند لأبي مسلم وهيبته في صدروهم وفي صدور أهل خراسان، ومحبتهم له، وأعلمه أنه أعيته الحيلة في إزالة ذلك من صدورهم.

فقال خالد: "يا أمير المؤمنين دواء ذلك عندي". قال: "وما ذلك؟". قال: "تأمر أبا مسلم بعرض الجند وإثبات أهل خراسان وتركهم على أسمائهم وإسقاط الدخلاء منهم". فكتب المنصور إليه بذلك وجلس أبو مسلم للجند جلوساً عاماً وعرضهم فأسقط منهم. ثم فعل ذلك في اليوم الثاني. ولما كان في اليوم الثالث نادى منادياً فلم يجبه أحد. قام إليه رجل من القوم فقال: "أصلح الله الأمير إن أولى الناس بالإنصاف من نفسه من جلس مجلسك. هذا نصحاً له ولسلطانه".

قال: "لعمري إن ذلك موجود عندي فما تقول؟". قال: "لِمَ أسقطت من لم يكن من أبناء خراسان؟". قال: "طاعةً مني للسلطان". قال: "فقد ينبغي أن تسقط نفسك إذ كنت في عداد أهل خراسان وأنت رجل من أصفهان". ففطن أبو مُسْلِمْ وَوَثَبَ من مجلسِهِ وقال: "هذا تدبير دبّروه عليّ" وعلم أنهم أرادوا بذلك إزالة هيبته. فبلغ ذلك أمير المؤمنين ما كان من أمر أبي مُسلم، وحسّن بهذا الرأي موقع خالد عنده.

براعة الجواب حيلة.

يُحكى أن فرعون كان له وزير يقال له عاصم بن مالك بن الريان. كان قد آمن على يد موسى بن عمران – عليه السلام – سراً وكتم إيمانه وتعبّد مدة، وعلم به شخص من حاشية فرعون وخواصه، وكان يحسده على قربه من فرعون. فقال يوماً لفرعون: "إن عاصم يعبد إله السماء إله موسى وهارون ويكفر بنعمتك ويعبد غيرك".

كان فرعون، مع كفره وعتوّه، لا يقبل قول أحد في أحد حتى يشهد له أربعون شخصاً ثقاتٍ أتقياء فيصل قولهم. قال فرعون للرجل الذي سعى بالوزير: "ألك شاهد؟"، قال: "نعم". وأحضر أربعين رجلاً فشهدوا كلهم أن عاصماً يعبد إله السماء ويكفر بفرعون. فأحضره فرعون وقال له: "ما تقول فيما ذكره هؤلاء عنك؟"، قال: "وما يقولون؟"، قال: "يقولون إنك تعبد إله موسى وهارون وتكفر بي وتجحد بنعمتي".

فقال له عاصم: "سلهم من خلقهم ورزقهم وأحياهم ويميتهم؟". قال لهم فرعون، فقالوا: "أنت أيها الملك". فقال الوزير: "اشهدوا عليّ واشهد أيها الملك أن الذي خلقهم خلقني والذي رزقهم رزقني والذي أحياهم أحياني والذي يميتهم يميتني". فالتفت فرعون إلى الذي سعى به فقال: "ما تقول؟"، قال: "إلا الرأفة والعفو أشتهي أيها الملك لأجلي تعفو عنه"، وكثرت منزلته عند فرعون.

عملية مربحة حيلة.

حكى إبراهيم بن إسحاق الموصلي قال: حدثني أبي قال: أتيت يحيى بن خالد بن برمك فشكوت إليه ضيقة اليد. قال:

ويحك ما أصنع بك؟ ما عندي في هذا الوقت شيء. ولكن أحتال لك في أمر فكن فيه رجلاً. فقد جاءني رسول صاحب مصر يسألني أن أستهدي صاحبه شيئاً. وقد ألح عليّ وأنا أكره وهو مصمم على ذلك، وقد بلغني أنك أعطيت في جاريتك ثلاثة ألف دينار وما بعتها لمحبتك لها. فأنا أطلبها منه وأخبره أنها قد أعجبتني فإياك أن ينقصها من ثلاثة ألف دينار، فإذا اشتراها وجاء بها رددتها إليك فانظر كيف يكون.

قال: فمضيت إلى داري فما كان إلاّ العصر وإذا بالرجل قد أقبل وساومني في الجارية. فقلت له: "ما أبيعها إلا بثلاثين ألف دينار". فلم يزل يساومني حتى بذل عشرين ألف دينار. فلما سمعت صفق قلبي عن تركها فبعتها وقبضت المال. ثم صرت إلى خالد فقال: "كيف صنعت في بيعك الجارية؟"، أخبرته وقلت: "والله ما ملكت نفسي أن أرد المال حين سمعت ذكره". قال: "يا خسيس اذهب وخذ الجارية، وهذا رسول صاحب فارس قد جاءني في مثل ذلك، فإذا ساومك فيها لا تنقصها من خمسة ألف دينار فإنه لا بد من شرائها بذلك".

فتركته وانصرفت إلى منزلي. جاءني الرجل فاستمت عليه خمسين ألف دينار، فلم يزل يراودني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار. ضعف قلبي من ردها ولم أصدق بها فأوجبتها له. ثم صرت إلى

خالد فقال لي: "بكم الجارية؟"، فأجبته فقال: "ويحك ألم يؤدك الأولى عن الثانية". قلت: "ضعف قلبي والله عن ردها". فقال: "خذ جاريتك إليك". قلت: "جاريتي حرة لوجه الله تعالى وإني قد تزوجتها"، فخلع عليّ.

تهرّب من دفع الخراج حيلة لحامد بن العباس قال لمّا حبسني الوزير علي بن الجهم وجعلني في يد بواب كان يخدمه فأحسنت إليه وبدرته. كان البواب يدخل على الوزير بغير إذن لطول خدمته له، فجاءني في بعض الليالي وقال لي: "إن الوزير قد جرد علي بن الفرات وقال له ما يكثر المال على حامد غيرك ولا بد من الحد في مطالبته بباقي مصادريه، وسيدعوك الوزير غداً إلى حضرته وذلك يذكر فانظر في أمرك".

قال: فتفتحت لي فكرتي أن أكتب رقعة إلى بعض أصدقائي أقترض منه ألف درهم لعيالي حتى أبصر ما يكون من أمري. فكتب في ظهرها معتذراً أنه قد سبق مني يمين أني لا أُخرج درهماً إلا برهن. فأخذت الورقة وجعلتها في رأسي. ولما كان من الغد أنفذ خلفي الوزير وطالبني. فأخرجت الرقعة، قرأها واستحى ووهبني كل ما كان عليّ من البقية.

رسالة مزيفة حيلة المهلبي الوزير.

شكا إليه أصحابه من سهام سابور، وقالوا: "لا طاقة لنا بسهام مسمومة ترمينا بها الخوارج". فقال: "هل تعلمون من يصنعها؟". قالوا: "رجل عنده يقال له أيوب"، قال: "كفيتم ذلك إن شاء الله". ثم كتب إليه: "من المهلب بن أبي صفرة قد وجهت إلينا كتابك وحسن عندنا موقعه وما ذكرته من عقلك عن سابور. فقد شكرناك على ذلك وعلينا فيه مهلة إلى حيث ما نأمرك به. وقد أعددنا لك أشياء كثيرة برسم الخدمة".

وأعطى الكتاب لرجل وقال له: "تعرض لعسكر سابور". أخذه ومضى إلى عسكر سابور، فاستنطقوه وأخذوا منه الكتاب وسلموه إلى سابور. ولما قرأه أمر بقتل أيوب وقال: "ما أصفح عمن يصافح المهلب على دمي"، وكان هذا سبب هلاك عسكر سابور.

اهتمام وزير حيلة مادويه الوزير كان من شياطين الإنس وأخبثهم، دخل على ملك الزنج وقال: "السلام عليك أيها الإمام، جئتك من أهل القيدم". وهم قوم ما كانوا لله بدين قط، ولا تمسكوا بشريعة، ويستحقون خراب بيوتهم وسفك دمائهم وسبي أطفالهم ونسائهم، وإنما احتلت في الخلاص منهم. فوقع كلامه في قلبه موضعاً عظيماً.

وبينما هو مفكر فيمن ينفذ إليهم قال: "أيها الإمام إلا أنني أنزل شيئاً". قال: "وما هو؟"، قال: "هذه قرية كثيرة الغلّات وأهلها كالأنعام، إذا جنحوا للسلم كان سبيلهم سبيلاً أكره لك من ضيعتك. فاستعمل عليهم من يطالبهم بالعمارة ويشاطرهم الغلّة ويحملونها إليك على بقرهم وحميرهم"، فقال:

"إني أستعملك عليهم". فأخذ منه كتابه بالتولية عليهم، وجبا منهم عشرين ألف دينار. فأخذها وانصرف إلى الأهواز فأقام بها إلى أن مات.

المجلود بالسوط حيلة نعيم بن الفرج وزير مسرور صاحب جيش المعتمد [21] .

قال أبو عيسى الديناري الكاتب: لما عجز مسرور عن قتال تكين البخاري – وكان سبب قتاله أنه تغير عن الطاعة وتواترت الأخبار أنه عزم على السير إلى صاحب الزنج – استدعى مسرور نعيماً وقال له: "أعلم أن الأخبار تواترت إليّ بأن تكين البخاري قد عزم على المسير إلى صاحب الزنج، ومتى فعل ذلك فُتَّ في عضد السلطان، وليس إلى صرفه سبيل وهو بهذه الصورة، وأريد أن تعرف أمره بالحقيقة وتقف لي على نيته".

فقال: "نعم هذا يمكن، على أن تفعل بي ما أذكره". قال: "وما هو؟". قال: "تجردني ثيابي وتضربني بالسياط وتحبسني في موضع يمكنني الهرب منه، واتركني والرجل وسوف آتيك من قبله بما يمكنني مما تحتاج إليه"، فقال مسرور: "وكيف يطيب قلبي بضربك ومحلك مني ما تعرفه؟". فقال: "لا يعينني الوصول إلى مرادك إلا بما قلت لك، وإن أردت شيئاً فعجّله قبل أن يتم ما تتخوفه فيقع ذلك عند سلطانك أقبح موقع".

أظهر مسرور السخط على نعيم، وأمر به فضرب أربعين سوطاً مؤلمة وحبسه في اصطبله. هرب منه ليلاً وجعل يسير منقاداً إلى تكين البخاري ليستتر عنده. ولما دخل عليه نعيم ورآه في تلك الحالة قال له: "ويحك ما خبرك؟". قال له: "تخلي لنا المجلس"، فأخلاه وقال له:

مسرور لم يرع حقي ولا حفظ مودتي وانتهك حرمتي، وذلك أنه عتب عليّ في شيء لا ذنب لي فيه، فضربني بالسياط كما ترى (وأراه الضرب) وقبض مالي وشتت شملي وحبسني في اصطبله، فلم أزل أعمل الحيلة حتى هربت وجئتك، وأشهد في تصلب مسرور.

فخلع عليه تكين وأنزله في داره وأجاره، وكان لا يفارقه. ثم أبدى له ما في نفسه من العصيان والتقرب إلى صاحب الزنج. فقال له: "أما مسرور فلا تراه ولا يراك لأنه مشغول بنفسه. وقد تقلد مدن خراسان والجبل، والصواب أن تغلبه على هذه البلاد. فإن الزنج لا يعدون على انتشار إلى أن تنظر الغلبة لمن تكون". فقبل رأيه وهمذ بأن يخلع الطاعة.

ثم إنّ نعيماً قال له: "أنعمت علي وتفضلت ولي أولاد وأطفال، فإن أذنت لي في الخروج متخبئاً حتى أحملهم وأكون معك وتحت ركابك". ففعل تكين ذلك، وكتب إلى صاحبه بالحضرة أن يكتب لعياله ما يحتاجون إليه. وصار إلى مسرور فقال له: "ما وراءك؟". قال: "الحق الرجل قبل أن يشتد أمره وتقوى شوكته فإنه قد تعرض للأكراد وتجيش ويستعين به". فرحل مسرور من تحت الليل وطوى المنازل فلم يشعر تكين إلاّ مسرور قد وافى السَوس. وكان يصف تكين ويمدحه ويحمد أمره. فكتب إليه صاحب له عنده بما يسمع منه فخرج يتلقاه قبل أن يتم تدبيره وسار إليه إلى وادي

تستر[22] ويخص ليسلم عليه. فلما توسط مجلسه رأى نعيماً قائماً على رأسه. فعلم أنه قد وقع أخبث موقع. فقال له مسرور: "يا تكين أردت أن تعصي مولاك وتشق العصا وتلحق بالعدو؟". وأمر به فأخذ سيفه ومنطقته، فوقعت الصيحة في عسكره. لحق بعضهم بالمهلبي ونادى فيهم مسرور بالأمان، وحوى مسرور كل أمواله وودائعه، ثم قتله في وادي تستر ورجع إلى موضعه.

تعيين قائد من دون كفاءة حيلة لذي الرياستين[23] عملها حتى اختار محمد[24] لحربه علي بن عيسى دون غيره.

كانت نية ذي الرياستين ترد إلى دسيسة بالذي كان الفضل بن الربيع يشاوره في أمره: "إن أبى القوم الأغزة وأنا أقول علي بن عيسى. وإنما خصّ علي بذلك لتواتره في أهل خراسان واجتماع رأيهم على كرهه، وإن العامة ترى حربه". وكان قصد ذي الرياستين قتل علي بن عيسى. فلما شاور الفضل في ذلك الذي كان يشاوره قال:

"علي بن عيسى إن فعل لم يوهم مثله في بعد صيته وسخائه ومكافأته في بلاد خراسان في طول ولايته عليهم وكثرة صنائعه فيهم". ثم تبع الدعوة فاجتمعوا على توجيهه وكان من أمره ما أراد ذو الرياستين.

الخبر ليس كالعيان حيلة لأبي الخير بن الفراتي[25] 25 .

ذلك أنه أرسل المقتدر بالله يوماً على يد زيدان القهرمانة يلتمس من اثني عشر ألف دينار عيناً لشيء من أمره، فحملها إليه ثم سأل أن يدخل إليه إذا اجتاز بموضع يُلقى إليه شيء لا تحتمله المكاتبة ولا المراسلة. ففعل وكان المقتدر كثيراً ما يدخل على ابن الفرات ويجاريه ويحادثه ويشاوره في أموره. فاجتاز به يوماً، ولما دخل وجلس ابن الفرات بين يديه قام وأخذ كيساً في أحد عشر ألف دينار، ففتحه وفرغه بين يديه وقال له: "يا أمير المؤمنين قد عرفت أن أموالك تنتهب وتضيع وتقضي بها الحقوق والذمامات. ما تقول في رجل واحد يصله في كل شهر من الشهور الهلالية هذا المقدار من المال وهو اثنا عشر ألف دينار؟"، فاستعظم المقتدر ذلك واستهوله.

وقال: "ويحك من هذا". قال له: "علي بن محمد الحواري". وكان قصد ابن الفرات خلعه وخراب بيته فقال: "وهذا سوى ما يصل إليه من المنافع والهدايا والتحف وارتفاع ضياعه والمرافق التي تصل إليه من الأعمال التي يتولاها وسوى أشياء كثيرة". فقام المقتدر في وقته وقد كمن في نفسه لابن الحواري ما يكره. وردّ ابن الفرات المال إلى بيته، وكان قصده بذلك أن يشاهد المقتدر المال لأن ليس الخبر كالعيان. فما مضى عشرة أيام إلاّ وقد قبض على ابن الحواري واستوزر ابن الفرات.

إضعاف الجيش حيلة قيثم بن العباس.

ذلك أن المنصور شغب عليه جنده وحاربوه على باب الذهب. فدخل عليه قيثم بن العباس بن عبد الله بن العباس، وهو يومئذٍ شيخهم والمقدم عنده وله الحرمة.

فقال له المنصور: "أما ترى ما نحن فيه من اتفاق الجند علينا، وقد خفت أن يجمع أحد كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا، فما ترى؟".

قال: "يا أمير المؤمنين عندي رأي إن أظهرته لك فسد جنودك وإن تركتني أمضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك". قال له: "فيضمن في خلافتي شيئاً". قال: "لا أعلمه"، قال له المنصور: "فامضه".

انصرف إلى منزله ودعا بغلام له وقال:

إذا كان غداً فتقدمني واجلس في دار أمير المؤمنين. فإذا رأيتني قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلتي واستحلفني بحق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبحق العباس، وبحق أمير المؤمنين المنصور ألا أخبرتني عما أسألك عنه. فإني أنهرك وأعنّف عليك فلا تخف وعاود المسألة. فإني سأضربك، فعاود المسألة، وقل لي: أي النسب أشرف اليمين أم مضر. فإذا أخبرتك، فاترك البغلة وامض وأنت حر لوجه الله تعالى.

ففعل الغلام ما أمره به وفعل قيثم ما قاله. ثم قال قيثم: "مضر أشرف لأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منها، وكتاب الله – عزّ وجل – أنزل فيها وبيت الله لها وخليفة الله منهما". فامتعضت لذلك اليمن إذ لم يذكر لها شيئاً، وقال بعض قوادهم: "ليس الأمر كما ذكر مطلقاً بغير فضيلة اليمن". ثم قال للغلام:

"قم إلى بغلة الشيخ فابعجها". ففعل ذلك وغضب عرب مضر وقالوا: "يفعل هذا بشيخنا"، فأمر بعضهم غلاماً آخر فضرب يد الغلام وقطعها.

فتفرّق الحيان ووقعت الحرب بينهم وافترقت الجند. وصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة. دخل قيثم على المنصور وأخبره بما جرى وقال: "قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزاباً كل حزب منهم يخاف أن يحدث به أمر"، وقويت شوكة المنصور وثبتت عليه الخلافة.

خطأ في تقرير التموين حيلة وزير ملك الصين.

ذلك أن شِمر أبو ركب بن افريقس بن أبرهة ملك[26] في زمان يُستأنف[27] وقهر العباد وخرب البلاد وسار إلى العراق، فأعطاه يستأسف الطاعة. وسار نحو الصين حتى نزل بلاد الصيفند. واجتمع أهل تلك الأرض في مدينة سمرقند. أحاط بها شمر، فلحقها بغير أمان وأشرف وخرب المدينة سمركند أي خربها شمر، ثم عمرت فسميت سمرقند.

وسار إلى الصين فأيقن ملكها بالبوار والهلاك، فأخضر وزيره واستشاره فقال له: "احتل في هلاكه وهلاك جنده"، قال له: "أمرك". فبخش أنفه وشنج وجهه وأتى إلى شمر وهو في مفازة بينها وبين الماء عشرة أيام. وعرّفه أن ملك الصين فعل به هذا الفعال لمخالفته رأيه في محاربته. فسأله شمر عن الطريق والماء فقال له: بينك وبين الماء ثلاث مراحل. فترددوا الماء لثلاث مراحل. ولما قطعها أعوزه الماء وطلب الرجل فلم يجده فعلم أنها كانت حيلة عليه ومات هو وأصحابه عطشاً.

فعل المداومة على شيء حيلة هرثمة[28] .

لما حاصر الكوفة ولم يطق عليها عدل إلى قرية يقال لها الحارثة على فرسخين من الكوفة. صار يترك من تحت السكرة ماءً قليلاً. فأمر العسكر أن لا يمر أحد إلا تحت السكرة، ففعلوا ذلك وصار لجة واحدة غائطة، فامتنع أهل الكوفة من شربه.

ثم جعل يركب كل يوم ويشارف الكوفة. فإذا لبسوا السلاح وطلعوا تركهم ومشى حتى آيسوا منه بهذا. فلما علم أنه إذا أشرف عليهم لم يحفلوا به خرج في يوم في أفضل عُدَدِهِ وعَدده وأوقع بهم وتنادوا بالسلاح فلم يحفلوا به لكثرة ما اعتادوا. فملك البلد وقتل أكثرهم.

بعثة عسكرية صعبة حيلة جعفر بن محمد الأشعث.

ذلك أنّ أهل أفريقيا عصوا في أيام الرشيد. فدعا بجعفر وجماعة من قواده فشاورهم. أشار أكثرهم بالإمساك عن أهل أفريقيا لبعد المشقة وعظم المؤونة، وجعفر ساكت لا يتكلم.

فقال الرشيد لجعفر: "ما عندك فيما أشاروا به؟". قال: "يا أمير المؤمنين الرأي عندي أن تنفذ إليها جيشًا كثيفاً ولا تستكثر شيئاً تنفقه عليه". فقال الرشيد: "كنت أنت الخارج إليها". قال جعفر: "نعم على أن تزاح علتي فيما أحتاج إليه". قال الرشيد: "وما تحتاج إليه؟". قال: "أحتاج إلى عشرة آلاف رجل من أهل خراسان يعطون أرزاقهم سنة كاملة". فأقر الرشيد بذلك وخرج جعفر حتى وافى تخوم أفريقيا.

وكان بين المدينة والماء برية عشرة فراسخ لا ماء فيها ولا منزل، ودون مكانها جبل فيه عين كثيرة الماء. وكان أهل أفريقيا كلما جاءهم جيش أخلوا له الطريق حتى إذا قطع هذه المسافة خرجوا إليه وهم مستريحون والجيش تعبان ظمآن فتعلقوا بهم ويهزمونهم ويهلكون في البرية عطشاً.

فلما وافى جعفر طرف هذه البرية أقام على العين وخندق على عسكره وأدخل العين في وسط العسكر. وأمر أصحابه بإزاحة دوابهم ورد عليهم أرزاقهم، وشنّ بهم الغارات في النواحي، وانتظر أهل أفريقيا أن يضجوا ويقطعوا المفازة فيقعوا مكسورين. حتى إذا اجتمع أصحابه جمع من تجار أفريقيا وأهل القرى ثمانين ألفاً وقسمهم ثلاثة أقسام.

ثم رحل متوجهاً نحو أفريقيا وأرسل الثلث الأول من أهلها إليها، فوافوا المدينة قليلاً وأعلموا أهل المدينة أنهم قد رحلوا إليهم، فساروا جميعاً بالسلاح من عند ذلك اليوم. ثم أرسل الثلث الثاني ضحوة نهارًا وقد استبعدوا أهل المدينة عنها نحو ثلاث فراسخ فأعلموهم أنهم قد أقبلوا إليهم فتقدموا قليلاً. ثم أطلق الثلث الثالث فوافوا أهل أفريقيا نصف النهار فأعلموهم أن جعفر خلفهم في جيشه وهو ريان مستريح وهم تعابى عطاشى ولا ماء خلفهم ولا معقل لهم. فطرح عليهم جعفر فقتل أكثرهم وأسر الباقين ووصل إلى المدينة وما بها أحد فمسكها لوقتها.

الفارّون إلى العدو حيلة محمد بن يوسف المعروف بأبي سعيد ذي القلمين.

يحكى عنه أن الحمراء لما انهزمت من الخيل مرت بأرمينيا ثم اجتازت إلى ملك الروم. فأكرمهم واصطنعهم فغلط ذلك على أهل الثغور. وكانت الحمراء التي وصلت إلى ملك الروم نحواً من عشرة آلاف رجل أكثرهم فرسان.

وكان على الثغور محمد بن يوسف المعروف بأبي سعيد ذي القلمين. فدسّ رجلاً من قبله من أهل الحيل بكتاب على لسان الحمراء إلى سعيد يسلمونه الأمان على أن يثبوا على ملك الروم في وقت الحرب من خلفه، وكان غرضه أن يقع في يد ملك الروم. فلما وقع الكتاب بيده حذر الحمراء تنكر لهم فحذروه. وكتب إليهم أبو سعيد كتاباً بالأمان فوقع أيضاً الكتاب في يد ملك الروم. فزادت وحشته منهم ولم يبدلهم ما في نفسه خوفاً من أن يحسبوا أنه قد خافهم. ثم طلب عليهم غرة وتجنى عليهم وحاربهم فقاتلهم وقتلهم جميعاً.

إخماد ثورة حيلة محمد بن موسى العباسي.

ذلك أنه لما ولي اليمامة والبحرين وطرق محمد[29] نزل عنده في ظهر البصرة وفرق الخيل في جباية الصدقات وبوادر السبلات، وبقي على ثلاثة آلاف رجل من غوغاء بغداد ومن الأنبار. رجاله معهم رماح طوال وتروس حصينة وسيوف وقواطع. فطغوا وتشعبوا في الغارة عليه وعلى من بقي معه من جنده.

ولما انتهى إليه ما يصنعون، وعلم أن لا طاقة له بهم أمر محمد بن موسى بعض ثقاته فأخرج من البصرة باعثاً بهم الأطعمة وغيرها وأسلفهم مالاً، وأمرهم أن لا يعطوا لأحد من الرجالة ما يريد إلاّ برهن سلاحه، وأن يرخصوا عليهم ويحملوا ما يسترهنونه يوماً إلى خزانته خاصته. فلما طلعت الباعة أقبل أولئك عليهم وجعلوا يرهنون أسلحتهم وهم في أكل وشرب حتى ارتهن كل أسلحتهم إلاّ اليسير منها.

وأمروا الباعة فدخلوا البصرة وانتبهوا من سكرهم ولا سلاح معهم فهاجوا في الشعب طمعاً في النهب. أخرج إليهم من بقي من جنده في غاية العدة والسلاح وهم لا سلاح لهم إلاّ الحجارة، فشردهم كل شرد وقتل أكثرهم ولم يجتمع منهم اثنان في موضع واحد.

تأثيم بالظن حيلة محمد بن إبراهيم الطاهري.

ذلك أن الأفشين لما انصرف المعتصم[30] بعد غزوة عموريا إلى سرّ من رأى تقدمت حال الأفشين عند المعتصم وأكرمه غاية الكرامة، فحمده وما كان من ملامه وحسن أثره في بابل وفي ملك الروم. فاستخف بأحمد بن أبي داوود ومحمد بن عبد الملك، فأعملا الفكر في أمره. ولم يريا شيئاً أبلغ في كيده من إيجاسه من المعتصم. وكان محمد بن إبراهيم بن الطاهري صديقاً ومديراً للأفشين. وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك أنسة. فاستمال محمد بن عبد الملك محمداً بن إبراهيم ووعده أن يوليه فارس والأهواز ويرفع عند السلطان قدره، على أن يلطف الإيجاس بين المعتصم والأفشين. وقال له: "أوحش الأفشين مع المعتصم ونحن نوحش المعتصم مع الأفشين".

دخل محمد بن إبراهيم يوماً على الأفشين فرآه كئيباً متغيراً، سأله عن حاله فكتمه، وعزم عليه الأفشين. فقال محمد بن إبراهيم: "أنا في حال ضيقة إن أبحت بها خبث السلطان وإن أمسكت خبث صديقي". فلم يزل الأفشين يقول لمحمد حتى قال له محمد: "تحلف إنك لا تبدي شيئاً مما ألقيه إليك؟"، فحلف له بأوكد الأيمان. وقال له محمد بن إبراهيم: "إن أمير المؤمنين قد تغير عليك وأخذ في التدبير عليك". قال له الأفشين: "هذا باطل لأني البركة عليه، قد فتحت له الفتوح الجليلة ولم يظهر له شيء مني". قال له محمد: "قد بحت لك بما في نفسي وستعلم ذلك عن قليل"، وحلف عما قال.

فاغتم الأفشين وكثر فكره وساء ظنّه، ودخل بعد ذلك على المعتصم فوافق أنه رأى من المعتصم ضجراً ببعض أموره وغيظاً على أحد خدمه. ورآه متغير البشرة عابس النظر. فظنّ الأفشين أن الذي رآه من المعتصم هو ما قاله محمد بن إبراهيم وتحقق قوله عنده. فجلد على نفسه وتحرز في بيته وتحفظ أبوابه. فبلغ ذلك المعتصم فأنكره. وقال له ابن أبي داوود: "يا أمير المؤمنين أنت منّا بمنزلة الروح من الجسد وهذه الأعاجم يدخلون عليك وأنت بثوب لا سلاح وفي أيديهم العمدة والسيوف والخناجر". فقال المعتصم: "لا تخف فما أصاب الخلافة من تظن به. فلا تعد في هذا شيئاً".

ونفر قلب المعتصم مع الأفشين، ونفذ الأفشين إلى منكجرد وخليف على أذربيجان يكتب في التدبير على المعتصم. فوقعت في يد السلطان وقتل الأفشين وقيل إنه وجد غير مختون ولم يكن على دين الإسلام.

مخبأ قطع الذهب حيلة من نشوار المحاضرة للتنوخي.

يقول التنوخي: حدثنا القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي قال: كان حامد بن العباس قد اتخذ حجرة وجعل فيها مرحاضاً. وكان ينقد إلى وكيله أن يبتاع له الدنانير الغمر ويوهمه أنها للصدقة. ويجمعها أكياساً فكلما حصَّل كيساً فيه ألف دينار عدداً أخذه تحت ثيابه، وقال كأنه يدخل إلى الطهارة. فيطرح الكيس في المستراح ويخرج من غير قضاء حاجة. فإذا خرج أقفل على

المستراح، ولم يدخله غيره على رسم المحتشمين. فإذا أراد الدخول فتحه الخادم بحضوره، وذلك الخادم لا يشعر. ولا يزال كذلك حتى تمتلئ قصبة المستراح ويطمّه ويفتح غيره، ولا يعمل بذلك أحد سواه.

غني من نوع خاص يقول التنوخي: حدثني أبو العباس عبد الله بن محمد بن المنجم عن أسلافه أن المأمون مكس غلاماً يقال له عمرو بن بهيري صهر موسى بن الفرج بن الضحاك من أهل السواد مأسوراً. أمر محمداً بن يزداد أن يتسلمه ويعاقبه ويعذبه حتى يأخذ منه حظه بعشرة ألف ألف ويستخرجها منه.

فسلم عمرو إلى محمد، فأكرمه وأمر بخدمته وترفيهه وأفرده في حجرة من داره وأخدمه فيها من الفرش والغلمان ما يليق بمثله لم يكلمه ثلاثة أيام، والمأمون يسأله عن الخبر. فبلغه ترفيهه، فيغتاظ ويسأله فيقول هو مطالب له.

ولما كان في اليوم الرابع استدعى عمرو محمداً فدخل عليه. قال له:

يا هذا قد عرفت ما قد تقدم به إليك الخليفة في أمري، والله ما رأيت هذا المال الذي يطلبه مني ولا نصفه ولا ثلثه قط ولا يحويه ملكي. ولعل الخليفة يريد دمي وقد جعل هذا إليه طريقاً. وقد تفضلت عليّ بما لا يسعني معه أن أدّخر جهداً في تجميلك عند صاحبك. وقد كتبت تذكرة بجميع ما تحويه يدي باطناً وظاهراً وهي هذه.

وسلّمها إلى محمد، وهي تشتمل على ثلاثة ألف ألف درهم. واحتلف بالطلاق والعتاق والأيمان المعظمة أن ما تركت لنفسي بعد هذا إلا ما عليّ من كسوة تستر عورتي، وهذا وسعي وجهدي. فإن أردت أن تأخذه وتسأل الخليفة الرياضة. فإن فعل فقد خلصني الله بك وخلصني من القتل على يديك. وإن أباه فإنه يسلمني إلى عدوي الفضل بن مروان وهو الفصل. والله لا أعطيته على الوجه درهماً واحداً ولا كنت ممن يجيء على الهوان دون الإكرام. وسأتلفه ولا يصل إلى الخليفة منه حبة واحدة ولكن المنة لك حاصلة. فإن عشت شكرتها لله ولك وهو مجازيك عني.

قال محمد: أخذت التذكرة ورحت إلى المأمون. فقال: "ما عملت في أمر عمرو؟"، قلت له: "إنه قد بدا لي ألفي ألف درهم". قال: "ولا ثمانية ألف ألف". وقال لي الفضل: "ما دمت ترفهه وتكرمه وتجلسه على الوثوق وتخدمه بنفسك وغلمانك كيف لا يتقاعس؟". فقلت: "تسلمه أنت لمن شئت".

وقال له المأمون: "خذه إليك"، فأخذه وطالبه بالعشرة ألف ألف. وأرهقه وضربه وهو لا ينحل بشيء. فنزل معه إلى خمسة ألف ألف، فلم يستجب له، وقنع منه بثلاثة ألف ألف فلم يجب.

فلما زاد عليه المكروه وخاف الفضل أن يتلف في العذاب فيجب المال عليه رفق به وداراه وخلع عليه ورفهه أياماً. وقال له: "إن محمداً بذل عنك ألفي ألف درهم وقد قنعت بها منك". فقال له: "ما ملكتها قط ولا بذلتها لمحمد". فجاء الفضل إلى المأمون فقص عليه قصته في ما فعله من إهانته

وإكرامه ورفقه به بعد ذلك وقنوعه منه بألفي ألف درهم، وأنه جحد وقال إنه لا يقدر على درهم واحد.

فانقطعت الحيل في المأمون، وكاد أن يهم بقتل الفضل. فقلت: "يا أمير المؤمنين الرجال لا تكال بالقفران وليس كيل أحد يجيء على الهوان، وإن الفضل استجهل رأيي فيما عاملت به عموراً". ثم صار إليه وعامله بمثله حيث لم ينفع بعد أن أهانه، ولو تركني في الأول معه استخرجت من ثلاثة ألف ألف عفواً. وهذه تذكرة بخطه وهي تحتوي على ثلاثة ألف ألف درهم.

وأخرجت تذكرته طرحتها بين يدي المأمون.

قلت: "لو كنت أعلم أن أمير المؤمنين يجيبني لذلك الوقت إلى ثلاثة ألف ألف لوزنتها عنه". فبذلت ألفي ألف حتى أن يقنع زدته ألف ألف حتى يرضى بثلاثة ألف ألف.

والآن فقد فسد هذا، والله لا أعطي عمرو للفضل درهماً واحداً على هذه الحالة، فإن استحلّ أمير المؤمنين دمه فذلك إليه وإلا فلا سبيل إلى استخراج شيء منه.

فاستحى المأمون وأطرق مفكراً ملياً ثم رفع رأسه وقال: "والله لا كان كاتباً من كتبتي ونبطي من عمالي أكرم وأوفى وأصح تدبيراً مني. وقد وهبت عمرو لك يا محمد وما عليه، فاصنع به ما تشاء، فتسلمته من الفضل وأطلقته وأخرجته مكرماً إلى بيته".

إقالة قاضٍ حيلة أبي القاسم الجهني على القاضي وكيع.

من نشوان المحاضرة، قال التنوخي: حدثني أبو القاسم الجهني – رحمه الله – قال: جرت بيني وبين محمد بن خلف القاضي مناجاة في شيء بحضرة أبي الحسن بن الفرات، فولدت بيننا عداوة. نفحت عن أمره إلى أن بلغني أن له أباً ساقطاً في أصحاب الصناديق بباب الطاق. فركبت حتى جئت ورأيته يعمل الصناديق بيده، فأنسته فإذا هو أسقط رجل فأجهلته وانصرفت.

وكاتبت جماعة من وجوه الشهود وأشرافهم في الجانبين، وأكابر التجار والعمال والثقات، وواعدتهم يحضرون محشداً هناك. حضر خلق كثير وركبت إليهم. فلما صرت عندهم قلت: "عليّ بخلف الصناديقي". فجاؤوا بالشيخ كما أقيم من العمل وعدته معه ويده ملوثة وثوبه بالشراس. التفتّ إلى الجماعة وقلت لهم:

"أعزكم الله إني سألتكم الحضور لأخاطب هذا الشيخ بحضرتكم بشيء آخذ خطوطكم به فاحفظوه".

ثم قلت: "يا شيخ من أنت؟"، فقال: "أنا خلف بن محمد". فقلت: "وكيع القاضي ما هو منك؟". فقال: "ولدي". فقلت لمن حضر من شيوخ المحلة: "هو كما قال؟" قالوا: "نعم". فقلت له: "يا شيخ تحفظ القرآن؟". قال: "أحفظ منه ما أصلي به". فقلت: "فتحفظ شيئاً من القراءات". قال: "لا". قلت: "من

كتب الحديث؟"، قال: "لا". فقلت: "تحسن النحو والعروض؟"، قال: "لا". قلت: "فتروي شيئاً من الأشعار والملح والمنادمة والآداب". قال: "لا والله". ولم أزل أعدد عليه العلوم وأصنافها هو يقول لا.

فقلت:

أعزكم الله، إن وكيعاً رجل كذاب متعاطٍ للعلم والأدب ولم آمنه في الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلَّم –. وله في الكذب طريق: متى مات هذا الشيخ فيقول: حدثني أبي، ويضع على لسانه كل كذب. فأردت أن تحفظوا على هذا الشيخ ما ذكره أنه ليس من هذا ولا إليه، بحيث لا يمكنه ادعاء ذلك عليه بعد موته.

وأن تعرفوا أيضاً فسقه بعقوقه لوالده، وسقوط مروته بتركه إياه على هذه الحالة.

ثم إني ما فارقتهم حتى أخذت خطوطهم مما جرى على أشنع شرح قدرت عليه وأجابوا إليه.

وحضرت مجلس الوزير والمحضر في حقي، وأجريت الحديث مع وكيع إلى مشاغبته في الكلام. وقلت له: "يا ابن الصناديقي الجاهل"، فأنكر ذلك. أخرجت المحضر وعرضته على الوزير، وسألته أن ينقذ خلف أبيه ويشاهده. فضحك الوزير وسقط وكيع من عين الوزير. وبعد أيام قلائل عزله من القضاء.

تهمة باطلة حيلة أبي العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن نظام العامل.

ذلك أن المكتفي[31] لما فتح آمد وملكها قلدها لوصيف. قال أبو إسحاق ابراهيم بن يعقوب: وكنت كاتباً معه، فورد أبو العباس أحمد بن محمد عاملاً على آمد وأرزن وميافارقين وأولئك العمال تزيّوا في زي الوزراء بأمر عظيم هائل.

ولما كان ذات يوم استدعاني إليه وقال: "لي إلى صاحبك حاجة ولست أريدها بلاش ولكني أعطيه عليها عشرة ألف دينار ولك ثلاثة ألف دينار". فقلت: "وما هي؟".

قال:

وردت عليّ ضائقة، وأنت تعرف أن اتساع المتصرف من مال السلطان. وها هنا غلّات لا تحصى، ولا يؤثر فيها ما نأخذه. وقد عزمت على بيع شيء منها وأخذه لنفسي وأنسب ذلك إلى نهب العرب حيث طلعنا إليهم. ويشهد لي صاحبك بهذا عند السلطان الذي لا بد أن يسأله في ذلك. فيقول: العرب فعلت ذلك، ويأخذ عشرة ألف دينار.

فقلت: "يا سيدي أنا أعرّفه ذلك وهو يتخالف ولا يجيب بطريق آفة السلطان"، فقال: "اذكر له الوجه، فإن أطاع وإلا فعلت ذلك بغير أمره".

فقمت من عنده وجئت إليه وذكرت له القصة. فغضب وأنكر غاية الإنكار. ولم أزل معه بكل وجه وحيلة وهو لا يجيب إلى ذلك. فعدت إلى أبي العباس وأخبرته بما جرى لي مع وصيف، وانصرفت.

ولما كان أن باع من أبي العباس حنطة وشعيراً وتبناً وغيره بأربعين ألف دينار. وكتب إلى الوزير يذكر أن العرب خربوا ونهبوا غلة وتبناً قيمته كذا وكذا، وأن وصيفاً قصر في الخدمة والحماية، وضعف عن المدافعة. وفشل عن القوم وأطبق عليه الدنيا.

فورد كتاب المكتفي بالإنكار على وصيف، وتهدده بأغلظ تهديد. فجمع وصيف أهل البلد والنساء والشيوخ والمزارعين، وكتب محضراً ليأخذ خطوطهم بما فعل أبو العباس. فما وضع أحد خطه حفظاً لقلب أبي العباس ولأجل انتفاعهم منه. وأخذ أبو العباس خطوطهم بأن العرب نهبت الحنطة والشعير والتبن، وأحرقوا إلى أن أدركهم العامل وأصحابه ومن معه من الجند.

وأنفذه إلى المكتفي فأقام عذره وأجراء على عمله وطيّب نفسه. فقامت على وصيف القيامة للزوم الحجة عليه، وألزم بدفع المال. فما برح يرفق بأبي العباس حتى خرج الذهب عنه في وجوه. وفاتته العشرة ألف دينار، وندم على ذلك، وأعطاني ثلاثة ألف دينار، وتمت له الحيلة.

المتاع المنقول حيلة أبي الحسين بن أبي البغل.

ذلك أنه كان متولي أصفهان، فبلغه الخبر أنه قد انعزل. أخرج قماشه من داره وأودعه في منازل إخوانه وثقاته، وكان شيئاً لم يسمع بمثله كثرة. وكان فيه سبعة ألف وثمانمئة قطعة من الصيني والعقد، ومن كل شيء ظريف وطريف وفاخر وحسن. وكان من جملة ذلك مثردة مشمشية قيمتها مئة دينار.

ورد الكرخي بعد أيام فتسلم منه العمل تسليماً جميلاً، وأوصل إليه كتاب الوزارة بتقليده. ثم كان غرضهم أن يخرج برحله وثقله، ثم يقبضون عليه في بعض الطريق ويأخذون كل ماله. وكان ذلك بحيلة فعمل هو هذه الحيلة وكأنه قد فطن لما يراد منه. وأمره أن يسير إلى القاسم. قال أبو الحسين خادم السلطان: "كنا بخياط يخيط ثوباً بمئة دينار وثوباً بدينار وأنا أسير إلى قاسم وأخشى أمر الوزير". ولما كان بعد أيام قلائل خرج ببغال عليها صناديق ورخت وآلات ليسير إلى قاسم.

فلما صار بظاهر البلد أخرج القاسم كتاباً إلى بدر الحامي، وكان أمير الناحية وفيه علي بابن أبي البغل، وأخذ رحله وسلمه إلى القاسم ليرى رأيه فيه. فأخذه بدر الحامي ورحله وسلمه وسلم ما معه إلى القاسم كما أمر. ففتش الرحل والصناديق، وإذا بأكثرها فارغاً والباقي فيه خبز وحطب وخزف وفرش ومخاد وستور وزلالي وشيء لا قدر له، وكانت ستين صندوقاً. فجمع العدول وأحصى كل

ما كان معه فبلغت قيمته ستة آلاف درهم. ولم يظفروا إلاّ بالدواب وكان أكثرها عارياً فكاتبوا الوزير بذلك فأطلقه.

أما أمره تقليد قاسم فذلك لأنه رأى في كريمة[32] المتوكل شيئاً، فلم يمسه بيده ولا قال له شيئاً، لكنه طلب المرآة فجيء بها فقابل بها وجهه، وأخذ ذلك بيده واستحسن فعله.

ثم كان جالساً عند خالد بن عبد الله القري، وهما على شاطئ دجلة، وفي يد محمد خاتم. فخلعه ورمى به إلى دجلة. فقال له خالد: "ما صنعت؟". قال: "وما أصنع بالخاتم، إنما يتخذه ذو مال يختتم به عليه وذو عمل يختتم به حساب عمله ولست واحداً منهما". فقال له خالد، وقد فهم ما أراده محمد: "والله لأجعلنك أحدهما ألا بل كلاهما". ثم ولّاه عملاً استغنى فيه.

عقاب طريف حيلة.

قال القاضي التنوخي: حدثني أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم الكاتب المعروف بابن حاجب النعمان بحديث، قال: إن بعض المستخرجين عاقب رجلاً مصادراً.

فقال له: "ما تشتهي؟". قال: "تدخلني الحمام وتحلق رأسي وتلبسني قميصاً ليناً وتطعمني جدياً حاراً وسكباجاً حاراً، وقالوا: دجاجاً حاراً". ففعل كل ما أمر به، وجابه إلى داره. وأحضر ما طلب وجعله قباله، وأمر بنزع القميص عنه. وكسر رغيفاً وأصلح لقمة وأهوى بها نحو فمه، ففتح فاه وأكلها العامل. وجعل يفعل ذلك مراراً إلى أن اكتفى العامل حتى كادت روح الرجل تخرج. وفعل به ذلك مراراً حتى كاد الرجل يموت. وأعطاه حظه بكل ما أراد فأحضره وأطعمه معه.

تسليم مدينة حيلة محمد بن أحمد النعيمي للوزير علي بن ديسم.

ذلك بعد حصول ديسم باردبيل وهربه من تبريز وتحصنه فيها. ركب محمد الوزير، وسار بجيشه ومعظم العسكر إلى أردبيل، وأخذ في محاصرة ديسم. فطال عليه الأمر، راسل محمد بن أحمد النعيمي المرزبان، وتلطف له ووعده أن يسخو عليه فاستجاب له المرزبان، وقال له:

تنفذ إلى ديسم وجوه البلد وشيوخها وتخوّفه وتعده الخير وتخوفه من طول الحصار. وإن أهل البلد طال عليهم الحصار وانقطعت عنهم المؤونة، سلموا البلد وسلموك. ونحن نستوثق لك ونعاقد لك على ما تريده في الصلح وطيبة النفس وتدخل في الطاعة. وأعلمه أنك سمعت بذلك وسنظهر لك إن لم تبادر بالصلح.

فنظر ديسم ووجد الأمر قريباً مما خوّف منه، وذلك أن الحصار كان قد اشتد وانقطعت الطرق والمسيرة عنه وعن جنده، وإن أهل البلد في شدة. والأراجيف كثيرة والناس مستوحشون، وهم على يأس من الصلح، وخوف من زيادة المكروه، فأنفذ إليهم ديسم. وفعل القوم ذلك وتوثقوا له

نهاية التوثق. وكان قد أنفذ محمد بن أحمد إلى المرزبان يحبس القوم عنده ولا يردهم إلى البلد إلا بعد أن يطلع إليهم ديسم لأن أهل البلد إذا لم يرجعوا إليهم ساءت ظنونهم. فحسبهم وطلع ديسم إليه وسلم البلد واصطلحا على ما أراد الوزير.

تعيين والٍ حيلة عبد الله بن الأهثم حتى قلد يزيد بن المهلب خراسان.

ذلك أنه لما نزل يزيد بن المهلب واسطاً جاء إليه صالح وضايقه. وبلغ من يزيد كل جهد، فضجر من ذلك ودعا لعبد الله بن الأهثم وقال له: "إني أريدك لأمرٍ قد أهمني وإحسان تكفينه ولك مئة ألف درهم". قال: "مرني بما شئت".

قال: "أنا فيما ترى من المضايقة وقد أضجرني ذلك. وبلغني أن أمير المؤمنين ذكر خراسان لعبد الملك أخي. فاخرج واحتل حتى يسلمها إليّ". فقال: "اصبر حتى أحضر عند أمير المؤمنين في بعض الأمور، فإني أرجو أن آتيك بها". فكتب معه يزيد كتابين يذكر في أحدهما خراسان وفي الآخر العراق. وأثنى فيه على ابن الاهثم وعِلْمِهِ بها، ثم وجه على البريد. فسار حتى قدم على سليمان33 فباسطه سليمان وحادثه.

وقال له: "إن يزيد بن المهلب كتب إليّ يذكر علمك بخراسان والعراق فكيف علمك بها؟". قال: "يا أمير المؤمنين بها ولدت وفيها نشأت ولي بها خبرة وعلم". قال:

"ما أحوج أمير المؤمنين إلى مثلك، فأخبرني عن خراسان ومن أولي بها؟".

قال: "أمير المؤمنين أدرى بمن يريد أن يولي، فإن ذكر أحداً أخبرته برأيي فيه يصلح أم لا". فسمّى رجلاً من قريش. فقلت: "يا أمير المؤمنين ليس هو من رجال خراسان". فقال: "فعبد الملك بن المهلب"، قال: "لا". وعدّد له رجالاً كان في آخرهم وكيع بن الأسود. فقلت:

يا أمير المؤمنين ما أحد أوجب شكراً ولا أعظم عندي براً من وكيع. لقد أدرك ثأري وشفاني من عدوي. ولكن أمير المؤمنين أعظم حقاً عليّ، فإن النصيحة تلزمني له.

إن وكيعاً له ثلاثمئة عنان إلا حدّث نفسه بغدر، خامل في الجماعة تائه في الفتنة.

قال: "صدقت، ويحك، فمن لها؟". قال: "رجل أعلمه لم يسمِّه أمير المؤمنين". قال: "من هو؟". قال: "لا أبوح باسمه إلاّ أن يضمن لي أمير المؤمنين ستر ذلك عليّ، وأن يجبرني منه إن علم". قال: "نعم، سمّه لي من هو". قال: "يزيد بن المهلب". قال: "ويحك ذلك بالعراق والمقام له بها أحب إليه من المقام بخراسان". قال: "قد علمت يا أمير المؤمنين، وكذلك استجرت بك، ولكن تكرهه على ذلك واستخلف على العراق أخاه وسببه هو". قال: "أصبت". فكتب عهده إلى خراسان وأنفذ إليه على يد ابن الأهثم، فقدم عليه فأخذه وسار لوقته.

الجابي المحتال حيلة مستخرج.

قال القاضي التنوخي: حدثني ابن تميم المتسخرج من أهل مرو بأن قال: عاقبت رجلاً بعقوبة ما عاقب بها أحد أحداً. فقلنا له: "أخبرنا بها". قال: سلم أبو محمد الماقردحي وهو إذ ذاك عامل في البصرة أول ما تقلدها، أبا عبد الله البيمري الكاتب وأمرني باستخراج ما له منه.

وكنت أعرفه صابراً على سائر العقوبات متقاعداً بالمستخرجين، فحملته إلى داري وجربت معه ألف لون فلم يسمح بفلس واحد. وعلمت أني لو ضربته وعاقبته بأي شيء كان من العقوبات لا يعمل معه شيء.

فكرت في أمري وعلمت أنه لا يجيء منه شيء بالضرب والشقاء والعقوبة. فأقمته من مكانه وقيدته وألبسته جبة صوف وحبسته في بيت، وخرجت إلى كتّاب كان بقرب داري. انتقيت منه عشرة صبيان لا يمكن أن يكون أوحش منهم، وأعطيت كل واحد منهم درهماً وقلت: "تعالوا"، وكل واحد يمخط في يده ويلطخ به وجه البيمري ويصفعه.

فجاء الصبيان وداروا به. فظن لما يراد به وقال لي: "اصبر وارفق واضربني بالسياط واستطعني فأي شيء أردت افعل بي وكف عني هؤلاء الصبيان". فقلت: "لا والله أو تعطي خطاً بما أريده من المال". فلما عاين عينها أعطاني خطه بما أريده فأطلقته.

حيلة مشرف ذلك أن بعض السلاطين كان ينظر إلى بعض اصطبل دوابه من خوخة له، والساسة يضربون الدواب ويقولون أي ما لكذا وكذا، ويشتمون شتماً مؤلماً. فغضب السلطان وأمر بإحضار المشرف وقال له: "أما سمعت ما تقول الساسة؟". فقال: "ما قالوا أدام الله أيام السلطان".

فقال: "قالوا كذا وكذا، فاذهب واضرب كل واحد منهم مئة عصاً واحبسه سنة".

فقال: "يا مولانا كأن هذه الدواب والخيل لأحد فيها شيء، وها هم يخدمونها، إنما الدواب لأنفسهم والدليل عليه ما ينظره السلطان، الساعة يعود السلطان إلى موضعه وينظر ما يجري".

فعاد السلطان إلى موضعه وأتى المشرف إلى الاصطبل وحل جميع الدواب وشمرها في الاصطبل وخلطها الرجل ببعضها بعضاً. ثم قال: "يأخذ كل منكم ما يختصه". فصار كل واحد يقول: "هذا فرسي"، "هذا بغلي"، "هذا رحلي"، "هذا مقودي". ويتخاصمون عليه حتى كادوا يقتتلون، فضحك السلطان وزال عنه الغضب.

إنقاذ الملك حيلة السلطان محمود سكتكمين صاحب غزنة.

خرج يوماً متصيداً وكان وزيره الكوفي ذا رأي وبصيرة وهو معه في نفر. فقابله أعداء له في جمع وكان قد أخذ منهم بلاداً. فعرفوا الوزير ولم يعرفوا السلطان.

أحاطوا به وبمن معه وقال للوزير: "أنت في قبضتنا". وتوعده بالقتل. قال لهم: "ما ينفعكم قتلي إنما ينفعكم عود بلادكم"، فأصغوا إلى قوله. وقال: "أنا أرسل إليه".

وأوما إلى بعض من كان معه فقال له: "امض إلى الملك وقل له ما رأيت وسمعت"، وأعطاه علامة. فلما بعد عنه نفذ خلفه آخر وقال له: "ما أنت ممن لك معرفة". ثم أوما إلى الملك وقال له: "أنت رجل عاقل امض أنت وقل للملك كذا وكذا"، أكد عليه وانفصل عنهم.

فلما علم أن الملك صار في مأمنة، عرّفهم حينئذ حاله. وأن الذي أنقذه هو الملك وقد خلصه من أيديهم فسقط هو في أيديهم، وتوصل الوزير إلى أن خلص منهم وسلم الملك والوزير.

التظاهر بالفقر حيلة عمر بن عبيدة ذلك لما هرب من سجن خالد وأتى هشاماً فأمَّنه وقال له: "أما المال فلا بد منه". قال: "ليس عندي ولكن أسأل قومي إذا خرج عطاؤهم". ثم قال لقومه: "إن أمير المؤمنين قد حبسني على كذا وكذا فأدوا عني".

فجعل الرجل يجيء بعطائه بين يديه فيقول: "ليس هذا ما أردنا، دون هذا يكفينا، وإنما أردنا بذلك أن يسمع هشام فيسمع أنه ليس عندي". قال: "وجعل كلما أخذ من أحد شيئاً كتب اسمه عليه". فلما كان في الليل رده عليهم وأصبح فأدّى لهشام من ماله.

معاني وكلام حيلة عامل يُقال له جبر بن حبيب.

ذلك أن الحجاج أرسل إليه: "ائتني بفلان"، رجل أراد أن يعاقبه ولم يؤثر جبر ذلك. فقال: "أصلح الله الأمير تركته جسداً يحرك رأسه ويصب في حلقه الماء. وإن حمل على السرير ليكونن عليه عورة فأبعده الله". فأمر بتركه وذلك أن كل جسد يحرك رأسه، وإذا صار على السرير صارت عورة الرجل عليه.

برهان على الوفاء حيلة لوزير.

حُكِيَ أن بعض الملوك كان له وزير صالح فحسده خواص الملك. وقالوا له إنه يكاتب عليك الملوك ويسعى في زوال ملكك، حتى يحشوا قلبه.

فأراد أن يهلك الوزير، استدعاه ذات يوم وكان الوزير قد بلغه ما سعوا به إلى الملك. فقال: "إنني أريد أن أخلع نفسي من الملك وألبس المسوح وأسيح في الدنيا فما أنت صانع بعدي".

قال: "ما يراه الملك غداً إن شاء الله". ثم أتى الوزير إلى بيته فحلق رأسه ولبس مسحاً وجمجماً، وأخذ بيده عكازاً وركوة، وجاء من غلس إلى باب دار الملك، فأخبر به الملك وأحضره وهو على حالته.

فلما رآه قال له: "ما هذه الحالة؟"، قال: "هذه موافقة للحالة التي ذكرت بالأسس من عزل نفسك وأنك تسيح في الدنيا". قلت في نفسي: "إنما أنا مع الملك في الدنيا وفي أي شيء كان فيه". فأخبره الملك بما قيل فيه وأعاده إلى مكانه.

الحاكم الأمّي حيلة بعض العمال.

حُكِيَ عن عمرو بن هبيرة أنه كان أمياً، وكان إذا أتاه كتاب فتحه ونظر فيه فيوهم أنه يقرؤه. فإذا نهض له في داره جارية تكتب وتقرأ، فيأمرها تكتب بما يملي عليه ويخرج إلى الديوان.

فاستراب بعض الكتّاب، وكتب له كتاباً وطواه مقلوباً، وناوله إياه ففتحه ونظر فيه ولم ينكر عليه، فعلموا أنه أميّ.

إطلاق الأسرى حيلة عبد الله بن عامر الهمذاني يرويها ابن عباس.

قال: كنا عند عبد الملك بن مروان حين قدم عليه سبي عمان، فقام إليه عبد الله بن عامر الهمذاني وقال: "يا أمير المؤمنين بعني هذا السبي". قال: "وأنّى لك بالمال؟". قال: "أنا أكثر العرب مالاً". فقال: "ومني؟"، قال: "ومنك"، قال: "كم عليك"، قال: "خمسمئة ألف"، قال: "لا أبيع". قال: "ألف ألف". قال: "لا أبيع".

قال: "والله لا أزيدك الحبة". قال: "بعتك". قال: "اشهدوا عليه بالبيع واشهدوا عليّ أنهم أحرار".

فقال له بعد الملك: "المال؟". قال: "خذه من عطية قومهم". قال له: "خدعتن". قال: "كان ذلك"، فأجراه على خاصته.

امتحان صدق النية حيلة بعض الوزراء.

يحكى أن ملكاً من ملوك الهند زهد في الدنيا وفي الملك، وخرج هو زوجته وكانت أعز الخلق عليه. وخرج معه جماعة من أصحابه يشيعونه.

التفت إليه أحد وزرائه وقال: "أيها الملك إن كان قد تخليت عن الدنيا فأنت رجل شيخ كبير وأنا غلام شاب، وأنا أحوج إلى زوجتك منك إليها"، فأخذ القوم يكفونه.

فقال الملك: "خلوه، صدقت"، ونزل عن زوجته.

فلما رآه الوزير قد صدق في ترك زوجته وزهد فيها قال: "أيها الملك ليس لي في زوجتك حاجة، وإنما امتحنتك لأنظر هل بقي في قلبك شيء من الدنيا أم لا"، وما زال في صحبته إلى أن مات.

التموين المغشوش حيلة وزير.

يحكى أن بعض السلاطين حاصر سلطاناً آخر وضيَّق عليه فاستدعى وزيره وقال: "هل من حيلة تدفع بها العدو؟". قال: "نعم أيها السلطان"، فقال: "دونك ورأيك".

فمضى الوزير وأخذ مئة عدل وملأها دقيقاً وخلط فيها محمودة وحملها على الجمال، وأخرجها من البلد سراً. وقال لهم: "سيروا عن البلد يومين وعرّجوا عن المعسكر كأنكم قد جلبتموه ميرة".

ففعلوا ما أمرهم، ووقع بهم العسكر فأخذوا الأحمال والجمال وتقاسموا الدقيق وخبزوه وأكلوه، فأصابهم انحلال عظيم حتى هلك أكثرهم وضعف الباقون عن الحركة.

فخرج إليهم السلطان وأخذ جميع ما معهم ولم يفلت منهم إلا من لم يأخذ من الدقيق، وانتصر عليهم.

الباب الثامن في حيَل القضَاة والعُدول والوكلاء

أحيل من ثعلب قال خالد بن سعيد للشعبي[34] : "يُقال في المثل شريح[35] أحيل من الثعلب، فما هذا؟".

قال: إن شريحاً خرج أيام الطاعون إلى النجف[36] ، وكان إذا خرج يصلي يجيء ثعلب فيلعب بسجادته، وربما بال عليها فلا يقدر شريح أن يصلي.

وبقي على ذلك مدة، فطال ذلك على شريح، فنزع قميصه وجعله على قصبة وأسبل كميه وجعل قلنسوته على رأسه يشبهها به كأنه قائم يصلي، واختفى موضعاً يمكنه منه صيد الثعلب.

فبينما هو كذلك إذ أتى الثعلب مستمرغاً على السجادة والتف فيها، فوثب عليه شريح وقبضه.

فكذلك يقال: "شريح أحيل من الثعلب".

أوصاف ناقة حيلة أخرى له.

عرض ناقة للبيع، فقال له المشتري: "يا أبا أمية كيف لبنها؟"، قال: "احلب في أي إناء شئت". قال: "كيف الوطاء؟"، قال: "افرش وسم". قال: "كيف مشيها؟"، قال: "إذا رأيتها بين الإبل عرفت مكانها". قال: "كيف قوتها؟"، قال: "احمل على الحائط ما شئت". قال: "كم سنها؟"، قال: "أربع".

فاشتراها الرجل ولم يجد فيها مما قاله شريح. فعاد بها إليه وقال: "ما أرى فيها شيئاً مما ذكرته". فقال شريح: "والله ما كذبتك والله ما كذبتك"، فأخذها الأعرابي وانصرف.

حاميها حراميها حيلة روح بن أبي الحين القيسي.

قال: استودع رجلٌ مالاً وكان من أمناء القاضي ومضى صاحب المال إلى مكة. فلما رجع طلب ماله فجحده المستودع. أتى إلى القاضي فأخبره. قال له القاضي: "أعَلِمَ أنك أتيت إليّ؟"، قال: "لا". قال: "اذعنه على أحد"، قال: "لا، لم يعلم بهذا أحد". قال: "فانصرف واكتم أمرك ثم عد إليّ غداً وهو عندي فطالبه بمالك".

فمضى الرجل وأنفذ القاضي خلف أمينه. ولما حضر قال له: "اعلم أنّه قد حضر مال كثير نحو من عشرة ألف دينار وأثاث وقماش بمثلها نريد أن تتسلمه فدارك حصينة". قال: "نعم". قال له القاضي: "أعد موضعاً للقماش وجيء معك بقوم تعرفهم يحملونه"، فقال: "حباً وكرامةً".

فبينما هو في هذا الحديث إذ دخل صاحب الوديعة وطالبه، قال: "إي والله تعالَ إلى الدار خذها". فمضى الرجل معه وأخذ ماله وكان ألف دينار، فرجع الرجل إلى القاضي وعرفه أنه قبض ماله وانصرف.

وجاء الأمين إلى القاضي قال: "قد فعلت ما أمرتني به وقد جئت بالحاملين"، فقال له القاضي: "يا فلان الألف خلصناها بعشرين ألف، والعشرون ألف دينار بكم نخلصها؟"، فعزله.

شهادة الشجرة حيلة لأبي يوسف القاضي[37].

ذلك أن رجلاً أودع عند رجل مالاً ثم طلبه فجحده وخاصمه إلى أبي يوسف القاضي فادّعى عليه. قال القاضي: "ومن حرضكم؟"، قال: "لم يحرضنا أحد غير أنني دفعته إليه في موضع كذا وكذا تحت شجرة هناك ولا ثالث معنا".

فقال له القاضي: "فأتني بورقة من الشجرة حتى أستشهدها". فمضى الرجل وقال لخصمه: "اجلس أنت ها هنا حتى يجيء خصمك". فجلس واشتغل القاضي ساعة، ثم التفت إلى الخصم وقال: "قل لي يا هذا وصل خصمك إلى الشجرة". قال: "لا ولا إلى نصف الطريق"، فقال له: "أعطه ماله والله ماله معك إما الحبس أو تزن ما عليك"، فوزنه إياه.

زوجة القاضي حيلة لبعض القضاة.

سألته زوجته أن يشتري لها جارية، فتقدم إلى بعض النخاسين بذلك وحملوا إليه جواري عدة. فاستحسن منهن واحدة، وأشار على زوجته بشرائها.

وقال: "أبتاعها لك من مالي فما لي حاجة إلى مالك". قالت: "ولكن خذ هذه الدنانير اشترِ بها الجارية".

أخذها وعزلها ناحية واشترى الجارية من ماله لنفسه وكتب عهدتها باسمه وأعلم الجارية بذلك. كانت زوجته تستخدمها طمعاً أنها لها، فإذا أصاب القاضي خلوة من زوجته وطئ الجارية. فعثرت به في بعض الأيام وقالت له: "ما هذا يا شيخ النار يا شيخ السوء، يا زاني لا تستحي من الله، أما أنت قاضي المسلمين؟" قال: "أما شيخ فنعم وأما زاني فلا، والله معاذ الله". قالت: "فما هذه جاريتي كيف يحل لك وطؤها؟". قال: "ما هي إلا جاريتي". وأحضر عهدتها وذهبها بختمه كما عرفته. فاستحت منه واعتذرت إليه وما زالت تتطلف به حتى باعها.

تدخل سريع حيلة أبي داوود القاضي.

قال أبو بكر الصورمي: حدثني أبو العيناء[38] قال: كان الأفشين محيّد أبا دلف[39] ، ويبغضه للعربية والشجاعة والكرم. فما زال يحتال عليه حتى أشهد عليه أنه قتل وخان.

فأحضره وأحضر السياف. وبلغ القاضي ذلك فركب بمن حضر من عدوله ودخل على الأفشين وقال: "إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك أن لا تحدث في أبي دلف أمراً حتى تحمله إليه مسلماً". ثم التفت إلى عدوله فقال: "إني أدّيت رسالة أمير المؤمنين". فلما قدم الأفشين عليه وبلغ المعتصم ذلك صوّب رأيه وأنفذ طلب أبي دلف وأخلع عليه.

القاضي الماكر حيلة لبعض قضاة الطريق.

اختصم رجلان في شاة، كل واحد يدّعي أنها له. فجاء رجل وقالوا: "قد رضينا بهذا حكماً بيننا". قال: "إن رضيتم بحكمي"، قالوا: "رضينا". قال: "احلفا بالطلاق أن لا تخالفاني"، فحلفا له. قال: "خليّا عنها"، ولزم بأذنها وقال: "هذه لي"، ثم أخذها ومضى.

ابنة عم القاضي حيلة القاضي أبي الحسين بن عقبة.

قال: كانت لي ابنة عم موثرة، ولم تكن حسنة إلاّ أنني كنت أستعين بمالها، وأتزوج سراً عنها، فإذا فطنت لذلك هجرتني وضيّقت علي، ونكّدت عيشتي حتى أطلق الزوجة وتعيد إحسانها.

فتزوجت بعض المرات صبية كما في نفسي، موافقة لطباعي، مساعدة على اختياري، فبقيت معها مدة يسيرة. وسعى يوماً إلى ابنة عمي فأخذت في النكد والمناقرة والتضييق علي، ولم يسهل عليّ فراقها.

فقلت لها يوماً:

البسي أفخر ثيابك وأملحها وتبخري بعود وادخلي على زوجتي وابتكي بين يديها وتضرعي حتى تضجريها. فإذا سالتك عن حالك قولي لها: لي ابن عم كل وقت يتزوج عليَّ بمالي واحدة واحدة ويضيع مالي عليها وأريد أن تسألي القاضي معونتي عليه وإنصافي منه فإنني أريد إحضاره، فإنها ترفعك إلي.

ففعلت ما أمرتها به. ولما دخلت عليها وأعادت إليها ما علّمتها إياه قالت لها: "وسيدنا القاضي شرّ من زوجك وأدهى". ثم دخلت عليّ وهي غضبانة ويد الصبية في يدها وقالت: "هذه المرأة حالها مثل حالي فاسمع كلامها وانصفها من زوجها".

فقلت: "ما شأنها؟"، فذكرت ما علمتها إياه. فقلت لها: "هل شاهدت زوجته؟"، قالت: "لا والله". فقلت: "يا هذه اتق الله فإن الناس لهم كربون، بحيث يفسدون أحوال الناس، فلا تقبلي شيئاً ما سمعته، فإن الحساد كثيرون. وهذه زوجتي قد نقل لها أنني تزوجت".

فقالت لي ابنة عمي: "إي والله تزوجت". فقلت لها بجود: "وكل امرأة لي بغير هذه الدار طالقة ثلاث بثلاث فماذا تقولين؟". قالت: "صدقت والذي بلغني كذب"، ومضت الأخرى إلى بيتها وصفا عيشي معها كما أختار.

حكم سليم حيلة يونان القاضي.

كان لبني إسرائيل سوق يجتمعون فيه كل سنة يبيعون ويشترون. فدخل السوق رجل على حِجرة له وخلفها مهر، فسرقه رجل منه ورباه على بقرة له. ولما كان الموسم، عاد صاحب المهر إلى السوق فنظر المهر وعرفه. وقال: "هذا مهري ولد هذه الحجرة". فأنكر السارق ذلك وترافعا إلى يونان القاضي، والمهر يتبع البقرة والناس يتعجبون منه.

فقصّا عليه القصة، فقال لهما: "تعالا غداً حتى أحكم بينكما فإني اليوم حائض". فقال صاحب البقرة: "والرجال تحيض؟" قال: "نعم مدينة تلد فيها بقرة مهراً فليس عجيباً أن يحيض فيها الرجال الذكور". وردّ المهر إلى صاحبه فأخذه ومضى.

عمل متقن حيلة أبي يوسف العدل.

يحكيها ابن عباس القاضي قال: رأيت أبا يوسف العدل على بعض زوارق الجسر وقد عبر يده في حلقه من سلسلة الجسر وهو يكتب ورقة.

فقلت:

يا هذا هذا عجيب كيف تجعل يدك في حلقة الجسر وكيف تكتب؟". قال: "أريد أن أزوّر خط فلان، (وكان الذي سماه يده ترعش إذا كتب). فجعلت يدي كما ترى، لترعش ارتعاشاً طبيعياً، فأحكي خطه. فعجبت منه ومن حيلته وانصرفت.

بيع دون عقد حيلة لبعض الوكلاء.

حُكِيَ أن رجلاً من خراسان باع جِمالاً بثلاثين ألف درهم للمرزبان الجهودي وكيل أم جعفر 40 40 ، فمطاله بثمنها وحبسه عن السفر. فطال ذلك على الرجل وأتى بعض أصحاب حفص بن غيَّاث القاضي وشاوره في ذلك فقال له: "اذهب إليه وقل له أعطني ألف درهم حتى أتحوج بها وأخرج إلى خراسان، وأحيل عليك بالباقي إلى أن أعود. وليكن بمحضر من الناس، فإذا فعلت فالقني حتى أشير عليك".

فأتى الرجل إلى المرزبان وذكر له حاله وما علّمه الوكيل. فأعطاه ألف درهم بمحضر من جماعة مذكورين معروفين بالصدق والأمانة والصلاح، ورجع إلى الوكيل فأعلمه.

قال له: "عد إليه وقل له: إذا ركبت غداً فأجعل طريقك على دار القاضي حتى أوكل رجلاً يقبض منك المال وأخرج أنا من خراسان"، ففعل الرجل ذلك.

ولما حضر بين يدي القاضي ادعى عليه وأحضر الشهود أنه قبّضه أمس ألف درهم، فحبسه القاضي وما خرج حتى وزن ما عليه.

زواج وندم حيلة محمد بن عيسى الوكيل.

هي ما حكاها الراغب في المحاضرات. قال: تزوج رجل امرأة وكتب لها كتاباً بمئتي دينار. ثم ندم بعد ذلك ولم يعلم ما يصنع.

فأتى إلى محمد بن عيسى وشرح له قصته فقال له: "أعطني ديناراً"، فأعطاه. وقال له:

تمضي إلى بيت حماك وقل لهم: والله إن أهلي استجهلوني وسفهوا رأيي، وقالوا: كتبت عليك مئتي دينار وهذا جهل عظيم، وأنا لم أفعل ذلك إلا رغبةً فيكم ومحبة لكم فأريد منكم تعطوني نصف القدر ليطيب قلبي وقلب أهلي.

فإذا قالوا: لا نريد، فقل لهم: اكتبوا خلف الكتاب أن قبضتم مني مئة دينار ويبقى الباقي كما هو، وقد علم الناس كلهم أنها مئتي دينار.

فمضى الرجل وأعاد عليهم ما علّمه الوكيل، فأجابوه إلى ذلك وكتبوا خلف الكتاب أن قد قبضوا منه مئة دينار. وأتى الرجل إلى الوكيل يُعلمه ما صنع، فقال: "من الآن أعطهم براءة لأنهم أشهدوا عليهم أنهم قد قبضوا نصف الكتاب ولم يدخل"، ففعل الرجل ذلك وتخلص من المئتي دينار.

التخلص من الغرماء والدائنين حيلة الحسين وكيل أبي عمر القاضي.

من نشوار المحاضرة. قال القاضي التنوخي: حدثني أبو الحسين علي بن محمد بن أحمد بن إسحاق البهلول القاضي قال:

كان قد ارتكب الحسين بن القاسم بن عبد الله ديناً عظيماً مما قدره ألف ألف دينار. ودعاه غرماؤه إلى القاضي، فخافهم واستتر عنهم وجاء إلى الوكيل يشاوره في أمره.

وقال: "إن بعت ملكي كان بإزائي ديني وبقيت فقيراً مكذباً وقد رضيت أن أجوع وأعطي غلتي بأسرها للغرماء ولا يتبقون فكيف التدبير، فأريد أن تحتال في أمري".

كان منزل الحسين في الجانب الشرقي، والحكم فيه إلى أبي عمر، فقال:

اجعل استدانتك من غير حاجة كانت بك إليها وإنما بذّرت المال تبذيراً وهذا دليل على سفهك.

ونحتاج في ذلك إلى شهادة من يعرف حالك فيثبت عنده السفه، فيحتجز عليك ويمنعك من التصرف في مالك ويدخل في أيدي أمنائه ويحول بينك وبينه. وإذا ثبت عنده ما للغرماء من الدين، أمر أمناءه أن يصرفوا الغلات إليهم قضاءً للدين تبقى عليك الأصول.

فطرح نفسه على أبي عمر وفعل ذلك معه وظهر وحسنت حاله، وجرى من أمره مع الغرماء كما يجب.

مساوئ التفاصح حيلة محمد بن منصور قاضي الأهواز.

ذلك أنه كان بينه وبين فرج الدرحجي عداوة، وكان القاضي يسرّها والدرحجي يظهرها، وكل واحد يضمر هلاك صاحبه. فورد كتاب المتوكل على الدرحجي يأمره بأمر في معنى الخارج أن يحضر هو والقاضي ولا يتفرد عنه.

كان القاضي عند المتوكل أعلى منزلة، وورد الكتاب مع خادم كبير فأنفذ الدرحجي إلى القاضي وأعلمه الخبر فقال: "تصير إلى ديوان الخراج لنجتمع فيه على امتثال كتاب أمير المؤمنين". قال القاضي: "بل تصير أنت إلى الجامع لنجتمع فيه"، وتردد بينهما الكلام.

فقال الدرحجي للخادم: "ارجع إلى أمير المؤمنين أخبره أن القاضي تأخر عن الأمر ويريد إذهاب المال". فبلغ الخبر القاضي، ركب إلى الديوان ومعه شهود، فدخله والدرحجي فيه في دست وكتابه بين يديه. فلما بصروا به قاموا إليه الدرحجي. فعدل إلى موضع في الديوان وجلس في آخر البساط بعد أن طواه وجلس على البارئة وأحف به شهوده.

جاء الخادم فجلس عند القاضي وأوقفه على الكتاب، ولم يزالا يتخاطبان وبينهما مشقّة حتى فرغوا من الأمر.

ولما فرغوا قال الدرحجي للقاضي: "يا أبا جعفر ما هذه الحيرة؟ لا تزال تتواضع أو تتحكم بمناقرتي ومضاهاتي وتقرر أنك عند أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – مثلي ومحلك مساوٍ لمحلي". وأسرف في هذا الجنس من القول، وحمي في الخطاب والقاضي ساكت، إلى أن قال في جملة كلامه: "والخليفة – أعز الله أنصاره – يضرب على يدي في أمواله التي فيها قيام دولته. وقد أخذت من ماله ألف ألف دينار وألف ألف دينار وألف ألف دينار وما سألني عنها، وإنما إليك أوكل أمر من يحلف منكراً على حق ويفرض لامرأة على زوجها، أو ليحبس ممتنعاً لرد حق"، وأخذ بعدد هذا وشبهه.

ولما قال الدرحجي: ألف ألف وكرر العدد جعل القاضي يعدّ بأصابعه وقد كشفها ليراها الناس.

لما سكت الدرحجي عن القول نادى القاضي: "يا فلان الوكيل". قال: "لبيك أيها القاضي". قال: "سمعت ما جرى؟". قال: "نعم". قال وأشار بيده إلى الدحرجي في المطالبة بهذا المال.

فقال الوكيل: "إن رأى القاضي أن يحكم بالمال للمسلمين، والدرحجي ممسك والناس حضور وعلى طبقاتهم لا يدرون ما يريد يفعل".

وأخذ القاضي دواة وورقة وكتب بخطه في الورقة ذلك المال ورمى بها إلى الشهود وقال: "اشهدوا عليّ بإنفاذ الحكم بما في هذا الكتاب وإلزامي هذا فلان بن فلان – وأما إلى الدرحجي – بما أقر به من المال المذكور ومبلغه في هذا الكتاب للمسلمين".

وكتبوا خطوطهم بذلك وختموها، وأخذها القاضي وجعلها في كمّه، ونهض فأخذ الدرحجي يهزأ بالقاضي ويظهر التهاون بفعله ذلك.

وقال له: "يا أبا جعفر بالغت في عقوبتي وقتلتني". فقال له القاضي: "أي والله". فما سمع منه كلمة غيرها. ومضى إلى المتوكل وسلّم الشهادة إليه، فأنفذ في ساعته ووكل بالدرحجي لأجل المال، وكان هذا سبب هلاكه.

حسن استخدام الهدايا حيلة أبي عمر القاضي.

حدثني القاضي أبو الحسين محمد بن عبد الواحد الهاشمي قال:

ركبت مع القاضي أبي عمر في يوم الموكب في طيارة إلى دار المقتدر. صعد هو وابنه وجلست أنا والجماعة في الطيارة ننتظر رجوعه.

رأيت جماعة من الخدم وقد وقفوا يشتمونه بأقبح لفظ، ويقولون: "يا ظالم، يا مرتشي"، وهو مطرق الأرض يمشي إلى أن دخل الدار، فهالني إقدامهم عليه. ولما عاد خاطبه الخدم بما قالوه في الأول، فعلمت إنما لا شكاهم ولا قال في حقهم شيئاً. ثم نزل إلى الطيارة ومشى إلى بيته، ولم نجسر أن نقول له شيئاً.

فدخلت عليه بالعشاء وبين يديه تخوت ثياب وطبلات كافور وفرم عود وهميان فيه خمسمئة دينار وتحف وهدايا مثلها، فجمع الجميع ونفذه إلى الخادم المقدم على أولئك الخدم.

فلما كان من الغد ركب على عادته ودخل إلى المقتدر، وإذا بأولئك الخدم ومعهم أمثالهم قد وقفوا سماطين يقولون: "يا عفيف يا نظيف يا أمين يا مأمون يا ثقة يا جمال الإسلام يا بارع القضاء". وخدموه أحسن خدمة وهو ساكت على رسمه، وكذلك عند خروجه إلى أن نزل الطيارة، فتحيرت مما رأيت وبقيت حائراً.

قال القاضي: "كأنك تقول: القاضي يبرطل ويهدي ويعطي مصانعة على موضعه؟"، فقلت: "هو ذلك عينه".

فقال:

هذا الخادم له خلوات مع الخليفة لا يقدر أحد من العالم عليها وصاحب شره. وهو رأس هؤلاء الخدم وسائلي أن أحكم لشخص بما لا يجوز ولم أفعل. ولا شك كأنه كان قد أخذ منه شيئاً أو وعده. فلما لم أحكم أساء على فوات ما وعده الرجل. ولما فعل نفذت له أكثر مما كان قد ضمنه له فطاب قلبه وكان ما رأيت.

هاجس حسن العلاقات حيلة أخرى له.

ذلك لما جرى له مع الخادم ما جرى: أحضر رجلاً غريباً كان يخدمه وقال له:

امض وتوصل إلى فلان الخادم وابكِ بين يديه بكاءً شديداً، وقل له: إن أخي قد مات وخلف مالاً وطفلاً، وإن القاضي قدر ذلك إلى بعض أمنائه وفي هذا ذهاب جاهي. وإن كان قد فعل الحق في ذلك، فالله الله نسأله أن يرد إليّ المال والطفل، واحرص على ذلك وأعطه هذه المئة دينار، وناولني مئة دينار أخرى، ولا تقنع معه من دون أن يركب إليّ ويسألني.

ففعل الرجل ذلك، وقال له: "ويلك قد عاملت القاضي بكل قبيح فكيف أسأله حاجة". فلم يزل الرجل يرفق به إلى أن ركب وجاء معه إلى أبي عمر القاضي. فسأله في أمر الرجل وهو لا يشك أنها حاجة، فرفق به القاضي أبو عمر. وبعد فراق الخادم دفع مئة دينار وقال: "تمضي بها إلى الخادم". فصار الخادم يعيد القاضي عيادة متتالية واستقامت الحال بينهما.

خدعة مهر الزواج حيلة وكيل القاضي.

قال القاضي التنوخي: حدثني أبو طالب الحسن بن محمد بن الحسين الجوهري قال: حدثني الحصري الوكيل قال: كنت يوماً جالساً في بيتي وأريد آكل مع جماعة في دعوتي، فقال لي غلام: "بالباب امرأة تطلبك".

خرجت إليها، فقالت: "أنا فلانة بنت فلان وأريد التزوج برجل قد اخترته لنفسي وإخوتي يمنعوني". فقلت لها: "ومن الرجل؟"، قالت: "هذا"، وأشارت إلى نجار في جوارهم فقير إلا أنه حسن الوجه ولا شك أنها قد غويته.

فقلت لها: "غيّري حاله وألبسيه ثياباً فاخرة على زي التجار وأحضريه"، ففعلت ذلك به.

أخرج الوكيل من عنده ذهباً وجوهراً وفصوصاً وحبّاً وشد الكل في منديل، وجعل الكل في كمّه. وقال له: "إذا حضرت بحضرة القاضي وذكر فقل له أنت: كيف يكون فقيراً من هذا ماله، وأخرجه بين يدي القاضي وبسطه ليراه". ثم أخذ الوكيل والمرأة ومضى معهما. وكان القاضي أبو حازم، وكان أولياء المرأة قد وكلوا وكيلاً في منعها من الزواج. فلما تقدم ابن صالح والرجل معه والمرأة تقدم وكيل إخوتها. قال: "ليس بكفؤ وهو فقير ما له شيء". فأخرج الدنانير والجوهر فصبّه بحضرة القاضي. قال له القاضي: "هذا لك؟". قال: "نعم وأضعافه".

فأمر بتزويجهما، فما برحوا من الجلس حتى عقدوا نكاحها وكتبت كتابها، وارتجع الوكيل ماله وأخذ منهم خمسة دنانير، وأخذ الرجل المرأة وذهبا.

مزور الخطوط حيلة لأبي شبل الوكيل، يحكيها أيضاً القاضي التنوخي:

رأى عند أبي الحسين أحمد بن عمر الطالقاني كاتب الوزير بواسط رجلاً كهلاً يكنّى بأبي الحسين ويعرف بابن أبي شبل، أخبرني أبو الحسين أنه من أشد الناس حيلة وتزويراً على الخطوط، وتدقيقاً في الحيل في غير ذلك.

وسألته أن يخبرني بشيء من حيله، فامتنع طويلاً، وحاد عن ذلك حتى أقسمت عليه. فأخبرني أنه يكتب بمداد يعمله من أدوية يعرفها فيتعلق الخط. فإذا أخذ خطوطاً بمداد صحيح أو حبر قلع ذلك المداد الأول بدواء يعرفه، فينقلع كله حتى لا يبقى له أثر البتة. ثم يكتب في هذا الكتاب ما يريده من المحالاة وتبقى شهادات العدول بعينها. وأخذ بهذه الحيلة مالاً عظيماً.

فقلت له: "أخبرني بشيء مما تم لك من الحيل"، فأبى.

قال له أبو الحسن الطالقاني: "أخبره بحديثك مع امرأة تكين"، فامتنع طويلاً فحلّفه.

وقال: كنت أنزل ببغداد في حجرتين متلاصقتين، وكان يسكن جواري رجل كنت أعرفه قديماً بنعمة وحال حسن. فما زال يتلف ماله حتى افتقر وصار يبيع الكتب بأجر. فكنت أرقّ له وأعاونه بما يمكنني. فأجمع الجيران على تحويله، فأخذته إلى إحدى الحجرتين.

ولما كان بعد أيام قلت له: "إذا ورد إليك كتاب فاقرئنيه فإني أفيدك بذلك فوائد كثيرة". فكان يقربني الكتب وأعرف منها الأخبار والفوائد.

فورد يوماً كتاب من رجل بالموصل إلى أهله في بغداد، فقرأته فإذا فيه علامات بينه وبين زوجته، وذكر مالاً له عندهم وحلياً وجواهر وسلاحاً وأثاثاً. ورجل عظيم يقول لهم: "سلموا الكل إلى فلان بن فلان التاجر وسماه بالموصل. فهو يتسلم ذلك منكم ويحمله إليّ وإنني محتاج إليه. فإذا جاءكم بالكتاب فسلموا الكل إليه".

ومع الكتاب كتاب إلى التاجر.

فأخذت الكتابين وقلت للمكتبي: "إذا أعطيتك مئة دينار تخرج من بغداد إلى حيث شئت وموضع لا تعرف". قال: "نعم". قلت: "أعطني هذين الكتابين"، فأخذتهما منه.

وقلت: "هل تعرف الرجل؟"، فقال: "هذا كتاب تكين أحد القواد المقدمين عند عز الدولة وناصر الدول. وكتبه دائماً تجيئني فأوصلها إلى عياله وإنما أخفي اسمه احتياطاً لئلا يعرف خبره بعض من يسعى به إلى معز الدولة فيلحق عياله مكروه".

فغيرت الكتاب الأول بخط يشبه الخط، وجعلت بدل اسم التاجر الذي بالموصل اسم رجل كان بها صديق لي. وقلت: "احمله إلى بيته وخذ جوابه، فمضى وأوصله إليهم وجاء بالجواب يقولون فيه: "إذا وصل الرجل إليهم سلموا إليه كل ما ذكرت".

فخليتهم أياماً ثم مضيت إليهم، وسلمت إليهم الكتاب الثاني وقد غيرته أيضاً وجعلته باسمه. فلما قرأوه أذعنوا له بالسمع والطاعة، وأخرجوا إليه كل ما ذكره في الكتاب، ولم يمكنهم وزنه في الصيارف خوفاً على أنفسهم وأنهم على سبيل الاستئثار. فوزنا بميزان الخبز تسعة عشر رطلاً ذهباً، وسلموا إليّ من المراكب الذهب والفضة شيئاً قيمته كثير خمسة ألف دينار. وأما الجواهر والقماش والسلاح قلت لهم: "آخذها بالليل حتى لا يعرف عليها". فأخذت الذهب والمراكب والجوهر ومضيت وأنا أعيش فيه إلى الآن ولا أعلم ما حدث بعدي.

الزواج التعس حيلة بعض القضاة.

حضرت امرأة إلى بعض القضاة ومعها غلام شاب حسن الشباب، إلا أن عليه أطمارًا رثة وبزة خلقة. والنعمة تلوح من وجهه وهو فصيح أديب. والمرأة في غاية الحسن والجمال، عليها أثواب فاخرة وهي تطلب طلاقه. وألقت بين يدي القاضي كتابها.

أخذه القاضي وقرأه وفيه مبلغ من المال، فقال القاضي للغلام: "هذا الكتاب عليك؟"، قال: "نعم يا مولاي وهذه ابنة عمي كلحمي ودمي، ولما تزوجتها كنت أخرج زكاة مالي في مقدار كتابها، فلما افتقرت كرهتني، وطلبت طلاقي، وما معي شيء أعطيها". فقال لها: "تسمعين قوله؟"، قالت: "أنا أخيره في ثلاثة أسباب:

يطلقني وأبرئه من كل ما أستحقه عليه، أو يؤدي لي ما في كتابي، أو يحدد الحبس".

قال الغلام: "أما الطلاق فما أسمح به، وأما ذهب فما معي أعطيتها لأن لو كان معي شيء ما طلبت الطلاق". فقالت: "يا مولاي اسلك الواجب". فقال القاضي لبعض الغلمان: "خذه بيده إلى الحبس". فلما أخذ الغلام بيد الشباب بدرت دموعه وتجيّش.

ولما نظره القاضي علم ما وراء ذلك، فرحمه ورقّ له وقال: "يا غلام ما لك أحد من القرابة أبداً؟". وكان القاضي غمزه يقول: "لا والله"، قال: "لا والله". قال فما يجوز حبسك وتبقى هي مستمرة وكارهة لك أتسأل عدالتها حتى تحتال لها في كتابها؟". قال: "نعم". فقال لها القاضي: "اعلمي كما طلبت حقك، هو قد طلب حقه وتكونين في دار العدالة محبوسة إلى أن يتحمل مالك".

فقالت: "من أي يعطيني ذا فلس واحد، ما له مال ولا دار ولا سقف ولا عقار ولا فنط إلا الثياب التي عليه، ولي أسبوع أطعمه من عندي". فقال لها القاضي: "أنت خصمه وقد شهدت عليه بالفقر، حبسه حرام".

ثم كتب معه رقعة إلى كل قاهر بين يديه: "إن خصمه قد فلّسه فلا يجوز حبسه". وأخذ الورقة ومضى فقال أهل المجلس: "القاضي لا يظلم ولكن إذا غيّر نفع"، فضربت مثلاً بين الناس.

رفض شهادة حيلة إياس بن معاوية القاضي من كتاب المدائني . قال: أتى وكيع يشهد عند إياس بن معاوية القاضي بشهادة. فقال له: "ما لك والشهادة؟ إنما يشهد الموالي والتجار والسوقة". قال: "صدقت"، وانصرف. فقيل لوكيع: "خدعك لأنه لا يقبل شهادتك وردك بحيلته". قال: "لو علمت لضربته بقضيبي هذا".

أملاك الآخر حيلة لقاضٍ.

ذلك أن شخصاً عشق جارية لجار له، فجنت به وجن بها. وشكا إليها ما يلقاه وقال: "أشكو حالي إلى الله لا حيلة لي"، قالت: "بل اذهب إلى ابن بردة القاضي فعنده حيلة".

فأتى إليه، وكان القاضي يحكم بأن لو أن رجلاً أعتق مملوك غيره أو أمته صح العتق وألزم بالثمن". فأتى إليه وأحضر الجارية معه وقال: "هذه جارية فلان وأحبها وتحبني ولم أحب الفاحشة فانظر في أمرنا فليس لنا حيلة".

فقال القاضي: "أشهد الجماعة أنك قد أعتقتها". فقال: "اشهدوا عليّ أني أعتقت فلانة جارية فلان وهي حرة". فألقت الجارية ملحفتها عن رأسها وجلست إلى جانبه، فأتى موالوها ونازعوه فيها، فحكم القاضي بعتقها وألزمه بثمنها. فقال: "ما أملك بحبة".

فقالوا: "احبسه"، فقال: "إذا حبسته أخاف أن يعتق كل مملوك وجارية في المدينة"، فأيسوا منه وذهبت الجارية معه.

مشهد حسن حيلة يحيى بن أكثم.

حكي عن يحيى بن أكثم أنه كان في موكبه صبي مليح فاشتهى أن يتشبع من النظر إليه وخاف من أصحابه أن ينكروا عليه. فنزل عن برذونه وقال لغلامه:

”قبحك، شد الحزام شداً وثيقاً فقد كدت أن أقع“. ووقف فنظر إلى الغلام حتى شبع منه.

شهادة شعر الرأس حيلة لأياس بن معاوية.

اختصم إليه رجلان في مطرف خز وكساء رومي. فادعى كل واحد منهما أن المطرف له والكساء الرومي لصاحبه. فاستدعى أياس بماء ومشط، فبل رأس كل واحد وسرحه، وخرج من رأس أحدهما عفن المطرف ومن رأس الآخر عفن الكساء، فأعطى كل واحد منهما ماله.

المتهم الأخرس حيلة لبعض الوكلاء.

حكي أن شواكاً كان معه حمل شوك وهو مار في السوق، فعلق بإزار امرأة فشقه. وكان الإزار مثمناً، فلزمته. وترافعا إلى القاضي، وكان له قرابة وكيل بين يدي القاضي. وقال له: ”إذا ادعت عليك تخارس“.

فلما ادعت عليه المرأة أظهر أنه أخرس. فقال لها القاضي: ”هذا أخرس ما يجب عليه الحكم“. فقالت: ”وحياة رأسك ما هو أخرس الساعة“، والحمل معه كان يقول: ”الطريق الطريق“.

فقال القاضي: ”إن كان ما قلت حقاً فما يجب عليه شيء، لأنه قد حذر، وإن كان أخرس فقد سقط عنه الحد“، فمضت ولم تحصل منه شيئاً.

طلب الثأر حيلة القاضي ابن الدامغاني.

كان قد قتل بعض أولاد الأكابر والده، وطلب أقاربه قتله لأجل المال، فأجاز له الشرع قتله. وعُني القاضي بالصبي فلم يشتد بأن يقتله. فصانع لعمه على بعض المال فلم يفعل. وأعطاه حتى ثلاثة أرباع المال، فلم يفعل ولم يرد إلا القتل. فقال: ”خذه واقتله“.

ثم استدعى القاضي شخصًا من أمنائه وقال له: ”اذهب إلى هذا الصبي فإذا أراد عمه قتله فقل: لم يقتل هذا أباه وإنما أنا قتلته“. وكان قد أوحى الصبي أيضاً أنه:

”إذا قال الرجل هذا القول تقول أنت في حل من دم أبي صدقة عن السلطان“.

فلما أتى الشخص إلى عند الصبي، وقد كتفه عمه ليقتله قال: ”ما قتل هذا أباه، أنا قتلته“. فلزمه الناس وخلوا الصبي وقالوا له: ”قم اقتل قاتل أبيك“. فقال:

”هو في حل من دم أبي صدقة عن السلطان“. وأطلق سبيله وخلص الصبي وأخذ المال ولم يظفر عمه بشيء غير الخيبة.

الباب التاسع في حِيَل الفقَهاء

لم يحنث في اليمين حيلة أبي حنيفة[41] 41 :

يُحكى عنه أنه دخل اللصوص على رجل فأخذوا ماله وأرادوا قتله. فحلف لهم بالطلاق ثلاث ثبات أنه لا يعلم أحداً منهم.

ولما أصبح الرجل رأى اللصوص يبيعون قماشه ولا يقدر أن يتكلم لأجل يمينه. فقال لأبي حنيفة: "كيف القصة؟".

قال له: "اجمع جيرانك البري والشقي وأدخلهم بيتك وأوصِ رجلاً يخرجهم واحداً واحداً ويقول: هذا لصك. الذي هو بري فقل: لا، والذي هو لصك اسكت واعلمه قبل ذلك بسكوتك عن اللص إقراراً عليه".

ففعل الرجل ذلك وخلص ماله وما حنث في يمينه.

استعادة الحق حيلة أخرى له.

حكاها أبو حنيفة قال: احتجت إلى ماء وإناء في البداية. فأتى أعرابي ومعه قربة ماء، فأبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم. دفعت إليه خمسة دراهم وقبضت القربة وقلت له: "يا أخا العرب ما رأيك في السويق؟"، قال: "رأي حسن". فأعطيته سويقاً متلوثاً بزيت، وجعل يأكل حتى امتلأ.

ثم بعد ساعة عطش عطشاً شديداً فطلب شربة من الماء، فقلت: "بخمسة دراهم"، وكان الماء عنا بعيداً. فلما رأى أنه يتلف عطشاً أدى الخمسة دراهم وأسقيته شربة من القربة، وبقي الباقي عليّ من القربة بلا ثمن.

كيف يستعيد ماله حيلة أخرى له.

كان في جوار أبي حنيفة فتى يغشى عليه مجلسه. فقال يوماً لأبي حنيفة: "إني أريد أن أتزوج فلانة وقد غلّى والدها علي المهر وقلبي متعلق بابنته وأخاف الفضيحة". قال أبو حنيفة: "استجر الله وأعطه ما يطلب". قال: "ما معي شيء". قال: "أنا أقرضك"، فعاود الفتى القوم وأرغبهم وأخذ من أبي حنيفة وأعطاهم.

ولما دخل على زوجته وبقي شهراً طالبه أبو حنيفة. قال: "ما معي شيء"، قال أبو حنيفة: "قل لبيت حماك إني أريد أن أمضي إلى خراسان وأريد زوجتي، فإذا سألوني أقول لهم إن له يسافر بها حيث يشاء".

فذكر لهم ذلك فأتوا أبا حنيفة وسألوه. قال: "نعم"، قالوا له: "خذ ما وزنته من المهر". قال: "ما آخذ إلا ضعفيه". قال أبو حنيفة: "أيما أحب إليك أن تأخذ أو أقول لها أن تقر أن عليها ديناً فلا يمكنونك السفر بها حتى توفي الدَّين عنه"، وأخذ ما أعطاهم وأوفى لأبي حنيفة دينه.

معلومات مفيدة حيلة أخرى له.

حكي أن رجلاً من أصحاب أبي حنيفة أراد أن يتزوج إلى قوم قالوا: "حتى نسأل عنك أبا حنيفة". فأتاه وأخبره بخبره.

أوصاه أبو حنيفة وقال له: "إذا دخلت عليّ فضع يدك على رأسك". ففعل الرجل ذلك، فقال له أبو حنيفة: "تبيعني ما تحت يدك بعشرة آلاف درهم"، قال: "لا والله".

فلما سألوا أبا حنيفة قال: "رأيته اليوم ومع شيء هو له وملكه أعطيته فيه عشرة آلاف درهم ما باعني. وهو بعض ما يملكه"، فزوجوه وبلغ غرضه.

البطل المجهول حيلة ابن عون.

حدثني مثني أن ابن عون الفقيه كان في جيش، فخرج رجل من المشركين وفتك بالمسلمين. فجنحوا عنه وطلب البراز. خرج إليه ابن عون وهو ملثم، فقتل المشرك ثم اندبر في الناس. وجهد السلطان أن يعرفه فلم يقروا عليه. فنادى مناديه: "أعزم عليكم بالله أن من قتل المشرك إلا جاءني". فجاءه ابن عون وقال: "ما عليّ رجل، أنا قتلته"، وتركه ومضى.

يمين متعجّل حيلة لأبي يوسف الفقيه.

من نشوار المحاضرة عن علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: حدثني أبي قال: كان عند الرشيد جارية وبحضرته عقد حب. ففقد العقد واتهمها به فأنكرت. حلف بالعتاق والطلاق والحج لتصدقنه، فأقامت على الإنكار وهو متهِم لها. وخاف أن يكون قد حنث في يمينه واستدعى أبا يوسف الفقيه وقص عليه القصة.

فقال له أبو يوسف: "تخليني مع الجارية ومعي خادم حتى أخرج من يمينك"، ففعل ذلك. فقال لها أبو يوسف: "إذا سألك أمير المؤمنين ثلاث متوالياً عن العقد اعترفي مرة وانكري في الثانية واعترفي في الثالثة وانكري".

ثم خرج وقال: "يا أمير المؤمنين سلها فإنها تصدقك". فدخل الرشيد فسألها، فاعترفت، ثم سألها فأنكرت، ثم سألها فاعترفت ثم أنكرت.

قال: "ماذا تقولين؟"، قالت: "هكذا علمني أبو يوسف". فخرج إليه قال له: "ما هذا يا أبا يوسف؟". قال: "يا أمير المؤمنين قد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك بالصحيح، ولا يخلو إما أن تكون أخذته أو ما أخذته. فقد صدقت في الوجهين وخرجت أنت من اليمين"، ففرح بذلك وخلع عليه.

كل ولا تأكل حيلة للشافعي.

من كتاب فرح المهج . سأله رجل قال: "حلفت بالطلاق ثلاث إن أكلت هذه الثمرة أو رميت بها". قال له الشافعي: "تأكل نصفها وترمي بالباقي فلا تكون قد أكلتها ولا رميت بها".

وجملة هذا الحيل كثيرة، وأما ذكرها ليُستعان بها على أمور كثيرة.

المرأة في الماء منها حيلة رجل قال لامرأته وهي في الماء:

"أنت طالق إن أقمت في هذا الماء أو خرجت منه".

الحيلة فيه: أن ينظر إن كان الماء جارياً لم تطلق إن خرجت منه أو أقامت، ويخرجها أحد بقوته وهي كارهة.

الزوجة على السلم حيلة رجل حلف بالطلاق وزوجته على سلم: "إن نزلت أو صعدت أو حطك أحد". خلاصها أن ينصب لها سلماً آخر تعبر إليه، وإن تشأ تصعد وإن تشأ تنزل.

عدد الجوز حيلة رجل قال لزوجته وهو يأكل جوزاً: "أنت طالق إن لم تخبريني بعدد ما أكلت"، فخلاصها أن تعد من واحد إلى عدد يتحقق إنما أكله داخل فيه.

المتهمة بالسرقة حيلة رجل قال لزوجته: "أنت طالق إن لم تصدقيني سرقت مني شيئاً أم لا"، فخلاصها أن تقول: "والله سرقت والله ما سرقت"، فإنها تصدق في أحد الوجهين.

كأس الماء حيلة رجل رأى مع زوجته قدحاً فيه ماء قال: "اسقيني"، فامتنعت عليه. قال: "أنت طالق إن شربت الماء أو دونه أو تركته في الإناء ولا يفعل ذلك غيرها". خلاصها أن تطرح فيه ثوباً فيشرب الماء جميعه، ثم تبسطه في الشمس فيجف.

الزوج على الدرج حيلة.

كان لرجل امرأتان، إحداهما في الغرفة والأخرى في الدار. فصعد إلى نصف الدرج، قالت كل واحدة منهما: "إلي". فحلف بالطلاق: "أن لا أصعد إليك ولا أنزل إلى الأخرى ولا أقمت مكاني". خلاصها أن تصعد التي في الدار وتنزل التي في الغرفة، وإن شاء صَعِدَ وإن شاء نزل.

الرجل البازي حيلة.

حلف على زوجته أن لا يدخل داره يأويه، ولا يجامعها إلاّ على بازية. خلاصها أن يأتي إلى داره بقصب وينسجه بازية.

وعد للنصراني حيلة للضحاك بن مزاحم.

كان له صديق نصراني يختلف إليه، فقال له يوماً: "لم لا تسلم؟"، قال: "إني أحب الخمر ولا أصبر عنه". قال: "أسلم واشربها"، فأسلم وقال له: "إن شربت حددناك ثمانين جلدة وإن ارتددت قتلناك". فانثنى عن شرب الخمر.

في أحد اليومين حيلة لابن سيرين، يحكيها عن الأصمعي في كتاب النوادر .

كان إذا تقاضاه أحد بديْن يقول: "أعطيتك أحد اليومين إن شاء الله"، يعني في الدنيا أو في الأخرة.

تشابه الكلام حيلة أسامة، وقيل للطبري. رجل حلف على زوجته بالطلاق أنه يرد عليها مثل قولها، فقالت بسرعة: "أنت طالق ثلاث ثباتاً". فلبث الرجل ولم يدرِ ما يقول. فأتى أبا جعفر الطبري أو أسامة وأخبره بالقضية. فقال له: "امض إليها وقل لها: أنت طالق ثلاث ثباتاً إن طلقتك"، فتكون قد خاطبتها بمثل خطابها ولا يقع بك الطلاق.

بملح وغير مالح حيلة لأبي حنيفة.

جاءت إليه امرأة وقالت: "إن زوجي حلف بالطلاق إن لم أطبخ له قدراً وأجعل فيها مكوكاً من الملح ولا يبين طعم الملح". فقال: "خذي قدراً واجعلي فيها مكوك ملح واطرفيها بيضاً واسلقيه، فإنه ينطبخ ولا يبين فيه طعم الملح"، ففعلت وأخرجت زوجها من يمينه.

الباب العاشر في حيل العباد والمتزهدين العكازة والسلسلة حيلة صاحب العكازة.

ذلك مما حكاه في تاريخ الأمم أنّ داوود – عليه السلام – جعل في بيت المقدس سلسلة من ذهب (وقيل إن سليمان عملها) مما يلي المحراب. وكان يأتيها الخصمان، فمن كان على الحق نال السلسلة ومن كان على الباطل قصرت عنه فلا ينالها، فمكثت على ذلك زماناً طويلاً.

ثم إن رجلاً من بني اسرائيل أودع رجلاً وديعة جوهراً مثمناً، فلما طالبه نكره. قال صاحب الجوهر: "بيننا السلسلة"، وقال المودع: "إلى غد". ثم عمد إلى عصا فجوّفها وجعل الجوهر فيها. ثم انطلق معه وهو يتوكأ على العصا كهيئة العكازة.

دنا صاحب الجوهر من السلسلة وقال: "اللهم إن كنت تعلم أني استودعه جوهراً فسهّل تناول السلسلة". ثم مد يده وتناولها، فقال له الزاهد: "أمسك عكازي حتى أدنو من السلسلة ليعلم الناس براءتي"، فتناول العكازة.

ودنا الزاهد من السلسلة وقال: "اللهم إن كنت تعلم أنني سلمت مال هذا إليه فسهّل لي تناول السلسلة". ومد يده فتناولها، وأخذ العكازة، فرفعت السلسلة منذ ذلك الحادث نهائياً.

الفأرة حيلة ذي النون المصري[42] .

قال يوسف بن الحسين: سمعت أن ذا النون المصري يعرف اسم الله الأعظم. فدخلت مصراً وخدمته سنة. ثم قلت له: "يا شيخ إني خدمتك سنة وقد وجب حقي عليك، وأريد أن تعلّمني اسم الله الأعظم". قال: "كرامة وعزازة". ثم تركني أياماً وأخرج طبقاً ومكبة مشدودين في منديل وقال لي: "تعرف فلاناً"، قلت: "نعم"، قال: "احمل هذا إليه"، فأخذته.

ومضيت إليه قليلاً، قلت في نفسي: "ذو النون المصري يوجه إلى صديق له هدية ما يريد يكون في الدنيا مثلها. والله لأبصرتها". ثم قال: "إني طلت المنديل فدفعت المكبة فأرة صغيرة فأردت قبضها فعجزت عنها".

وانغظت غيظاً شديداً، وقلت: "ذو النون يسخر بي بعد سنة وينفذ معي فأرة"، فرجعت إليه والغيظ في وجهي. فلما رآني مقبلاً نحوه قال: "أي مسكين من لا أمان له على فأرة يؤتمن على اسم الله الأعظم"، وتركني ومضى.

ضد اللصوص حيلة لبعض الصوفية.

أخبرني من أثق بقوله أنه خرج في طريق الشام مسافراً في جماعة من الصوفية نحواً من ثلاثين رجلاً، وقال: "وصحبنا في بعض الطريق رجل صوفي حسن الهيئة معه حمار، تارة يركبه ومعه

بغلان عليهما رحل وقماش ومتاع".

قلنا له: "يا هذا نحن ما نفكر في خروج الحرامية إنما ما معنا شيء، وأنت ما تخاف على رحلك ومالك؟". قال: "الله يحفظ ويستر".

وكان إذا نزل استدعى أكثرنا فيُطعمهم ويسقيهم، وإذا تعب أحدنا نزل وأركبه.

وبينما هو ونحن سائرون إذ طلعت علينا الحرامية. فتفرقنا عليهم ومانعناهم، فقال الشيخ: "لا تفعلوا"، فتركنا القتال ونزل وقدم سفرته وجلس يأكل، وأطلقنا الخيل.

فلما رأوا الطعام مالوا إليه، ودعا بهم الشيخ فجلسوا يأكلون. ثم حل رحله فأخرج منها بقلاء حلواً كثيرة، فتركها بين أيديهم.

ولما أكلوا منها وشبعوا ما كان إلا لحظة حتى خدرت أيديهم وأرجلهم وبقوا باهتين، وشخصت أعينهم فبقينا متعجبين.

فقال لنا: "إن الحلوى مبنجة وقد عملتها لمثل هؤلاء، في هذا الوقت، وقد تمت الحيلة عليهم". فأخذنا خيلهم وسلاحهم وركبنا سالمين آمنين ولم ندر ما كان منهم.

انتقام يونس حيلة أخرى.

كان رجل من اليهود متزهداً وكان اسمه يونس، كان يكثر مساءة النصارى ويعاديهم. فلما شاخ قال: "لا ينبغي أن أموت وينقطع شري عنهم".

فجاء يوماً إلى جماعة من النصارى وقال: "أتعرفوني؟"، قالوا: "نعم أنت يونس شر خلق الله في أرضه".

فأظهر أن إحدى عينيه قلعت، وقال لهم: "اعلموا أن عيسى المسيح جاءني في النوم ولطم عيني وقلعها. وقال: إلى متى تؤذي أمتي، والآن فقد جئت إليكم تائباً مما كان مني، وأدخل في دينكم، وتذلل وبكى وتخضع فصدقوه وقبلوه".

ودخل بعض البيع وأقبل على الرهبان، وكان يصوم النهار ويقوم الليل جميعاً حتى افتتن به جميع النصارى.

ولما علم أن حبه قد تمكن من قلوبهم دعا نفراً من علمائهم وقال: "ألم تعلموا أن الجند تأتي من عند الملك؟". قالوا: "بلى"، قال: "فإن ندائي الشمس والقمر والنجوم كلها تأتي من المشرق فينبغي أن

يكون الله هناك". قالوا: "كذلك هو"، قال: "فالأولى أن نستقبل الشرق بالصلاة"، فحولهم من بيت المقدس إلى المشرق.

ثم دعا بنفر منهم يوماً آخر وقال: "أليس الله خلق هذه الأشياء كلها لمنافع الخلق؟"، قالوا: "بلى"، قال: "فما بال البقر أولى بالأكل من لحم الخنزير وهو أنفع وأطيب"، فأطعمهم لحم الخنزير وأحلّه لهم.

ثم دعا نفراً منهم وقال: "أليس عيسى أحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص وخلق من الطين طيراً وهذا شبيه بأفعال الله، ولا يقدر عليها أحد إلا الله، فهذا المسيح لا بد من ربوبيته، فاتخذوه إلهاً".

ثم جمعهم يوماً آخر وقال لهم: "إني رأيت المسيح في منامي يقول لي: الآن رضيت عنك. ومسح على عيني فرعت. وقد أرسلني إليكم برسالة وأمرني أن أبلغها إليكم. فاختاروا من علمائكم من يفهمها عني". فاختاروا له ثلاثة من علمائهم. فقال: "لا يأتي كل واحد منكم إلا وحده".

فجاء أحدهم وقال له: "إن المسيح قال: ما بالكم تسموني عبداً وقد علمتم أني أحييت الميت وأبرأت الأكمه والأبرص وخلقت من الطين كهيئة الطير فطار، لا بل الله هكذا قولوا أنتم"، فقبل ذلك الرجل منه وخرج من عنده.

ثم دعا الآخر وقال له: "قال المسيح: قد علمتم ما فعلت من الأفعال التي لا يقدر عليها إلا الله". ففعلتها عن أمره وإذنه فشاركته وأنا شريكه في ربوبيته، فلذلك قدرت على ما قدرت، فقبل الرجل منه خرج.

ثم دعا بالثالث فقال له: "قال لي المسيح: قل لقومي: أنا ابن الله وقد عرفتم ما فعلت من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله. فأنا ابنه وقد تقرأون ذلك في الإنجيل"، فقبل الرجل ذلك منه وخرج.

فاجتمع الناس إليهم وسألوهم عن الرسالة، فكل واحد ذكر ما قاله يونس فاختلفوا في مقالاتهم. وقالوا: "ترجع إلى يونس يخبرنا رأيه بالصحيح".

وأما يونس فإنه لما خرجوا عنه قتل روحه لئلا يدخلوا عليه ويسألوه لما ذكر لكل شخص خلاف الآخر.

وكان اسم أحدهم نصطور والآخر يعقوب والثالث ملك، فلذلك تفرقوا ثلاث فرق يعقوبية ونصطوية وملكية.

صيام متزهد حيلة الحلاج[43] ، وما كان يصنع من التمويهات منقولة من نشوار المحاضرة للقاضي.

قال: حدثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق قال: بلغني أن الحسين بن منصور الحلاج كان لا يأكل شيئاً شهراً أو نحو ذلك. لكن أبا الحسن كان يظن أنّ في الأمر لعبة. وكان بين أبي الفرج وبين درجان الصوفي احترام متبادل، فقد كان صالحاً من أصحاب الحديث ديّناً، وكان القصري من أصحاب الحلاج زوج أخته.

فسأله عن ذلك.

قال: "أما ما كان الحلاج يفعله فلا أعلم كيف كان يتم له، لكن صهري القصري علامة وقد أخذ نفسه سنين لقلة الأكل حتى يمكن أن يبقى ثمانية عشر يوماً ونحو ذلك وأكثر من ذلك.

وكان يتم له ذلك بحيلة كان يخفيها عليّ، فلما حبس مع الحلاج كشفها لي".

وقال لي: إن الرصد إذا وقع الإنسان وطال، فلم يتكشف معه حيلة ضعف عنه الرصد، ثم لا يزال بتضعيف ما لم ينكشف حتى يبطل أصلاً. فيمكن حينئذ من فعل ما يريد. وقد رصدني هؤلاء مدة خمسة عشر يوماً، فلما رأوني لا أكل شيئاً نُسيت.

وهذه نهاية صبري عن هذا الفعل. فإن لم آكل شيئاً تلفت، فخذ لي رطلاً من الزبيب الأحمر الخراساني ورطلاً من اللوز السمين، ورطلاً من السكر، ورطل حمص مُقلّي ورطل كبود مقلية. ودق الكل حتى يصير مثل اللسب واعمله على هيئة العذرة واجعله في خرقة من بيت المستراح. فأدخل أنا أتناول منه كفايتي فإن توضأت شربته بماء التمضمض. فهو يكفيني خمسة عشر يوماً آخر إلى أن تجيني ثانياً على هذا السبيل.

ومتى رصدني هؤلاء في هذه الخمسة عشر يوماً ولم يجدوني آكل شيئاً على الحقيقة خففوا عني، فكنت أعمل ذلك لكل خمسة عشر يوماً مع طول حبسه.

السمك العجيب من طريق مخاريقه.

فأخذت به أبو بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الشاهد الأهوازي قال: أخبرني فلان المنجم أسماه لي ووصفه بالحذق والفراسة وقد نسيت اسمه. قال: "بلغني خبر الحلاج وما كان يفعله من إظهار الخرافات التي يدعي أنها معجزات". فقلت: "امضِ فانظر من أي جنس هي من المخاريق". فجئت كأني مسترشد من الدين فخاطبني وخاطبته.

ثم قال: "ثمن الساعة ما شئت حتى أجيئك به". وكنا في بعض بلدان الجبل التي لا يكون فيها سمك ولا شط ولا نهر، فقلت: "أريد الساعة سمكاً طرياً في الحياة".

قال: "اقعد اجلس مكانك"، فجلست وقام فقال: "ادخل البيت وادعُ الله أن يبعث لك به". ودخل بيتاً خالياً وغلق بابه وأبطأ عني ساعة، ثم جاءني وقد خاض وحلاً إلى ركبتيه ومعه سمكة تضطرب

كبيرة.

فقلت له: "ما هذا؟". قال: "دعوت الله فأمرني أن أقصد البطائح فأمسك لك هذه السمكة وقد خضت الأهوال وهذا الطين حتى أخذت هذه السمكة، فعلمت أن هذه حيلة".

فقلت له: "دعني أدخل البيت فإن لم تنكشف لي حيلة آمنت بك". دخلت البيت وغلقته على نفسي، فلم أجد فيه طريقاً ولا حيلة. ندمت وقلت: "إن وجدت فيه حيلة فكشفتها لم آمن أن يقتلني في الدار وإن لم أجدها لبنى عليّ باتباعه.

وبقيت متحيراً وفكرت في البيت فدققت تأزيره وكان مؤزراً بالسلاح، فإذا بعض التأزير فارغاً فحركتها قد تشوشت.

فقلعتها وخلفها باب صغير يسع رجلاً بداخله مزاحمة. فولجت فيه إلى دار كبيرة فيها بستان كبير عظيم، وفيه صنوف الشجر والثمر والريحان وأشياء ما هو زمانها قد احتيل في حفظها. وخزائن فيها أنواع الأطعمة المفروغة بالحوائج الطيبة.

وفي وسط البستان بركة عظيمة وهي مملوءة سمكاً كباراً وصغاراً، فاصطدت واحدةً كبيرةً وخرجت وقد لوثت رجلي كما فعل.

وقلت: "الآن إن خرجت ومعي السمك قتلني، لكن أحتال عليه الخروج". وصحت من داخل البيت: "آمنت بك وصدقت". فقال: "ما بالك؟". قلت: "ليس ها هنا حيلة وليس إلا التصديق بك". قال: "اخرج". فخرجت وقد تموه قولي، وخرجت جاداً عادياً طالباً الباب الآخر. وخرجت أعدو والسمكة بيدي إلى أن وصلت في وسط السوق.

فعلم أنني قد ظهرت على أمره وحيله، فتبعني فضربت بالسمكة وجهه وقلت: "اتبعني حتى مضيت البطائح فجئت لك بهذه السمكة". قال: "اشتغل بوجهه وحمش السمكة". وتطرحت نفسي مستلقياً لما لحقني من الفزع والجزع.

فوصل إليّ وصالحني وقال: "قم إلى البيت". قلت: "لا والله لا دخلته أبداً". فقال لي في أذني: "والله لئن قلت لأحد لأقتلتك على فراشك، وإن سمعت هذه الحكاية من أحد قتلتك، ولو كنت في تخوم الأرض، فما دام خبرها مستوراً أنت آمن على نفسك. امض الأن حيث شئت" وتركني ودخل إلى داره فعلمت أنه يقدر على ذلك فما بحث حتى صلب.

شفاء مريد ومن حيله أيضاً.

قال القاضي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة: أخبرني أبو الحسين أحمد بن يوسف التنوخي قال: حدثني غير واحد قال: كان الحسين بن منصور الحلاج قد أنقذ أحد أصحابه الذي يكشفهم على

أسراره إلى بعض البلاد، ووافقه على حيلة يعملها. خرج الرجل وأقام عندهم سنين، فظهر منه النسك والعبادة وقراءة القرآن والصوم والصلاة، فغلب على أهل البلد حتى إذا علم أنه قد تمكن معهم أظهر أنه قد عمي وعاد إلى مسجده وتعامى على كل أحد، ثم أظهر أنه قد زمن فكان يحبو ويحمل إلى المسجد حتى مضى على ذلك سنة، وتقدر في نفوس الناس حاله.

ثم قال لهم بعد ذلك: "رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في النوم وهو يقول لي إنّه يطرق هذه البلاد عبد صفته ونعته"، ووصف لهم صفة الحلاج، وهو رجل صالح مجاب الدعوة تكون عافيتك على يديه، وبدعائه تبرأ مما أنت فيه، ويعود عليك نظرك. فاطلبوا إليّ كل من يجتاز من الفقراء والصوفية، فلعل الله – عز وجلّ – أن يفرج عني كما وعدني سيدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

فتعلقت الهمم بورود العبد الصالح وطلبته القلوب، ومضى الأجل الذي كان بينهم فقدم الحلاج البلد وقد لبس الصوف الرقاق وتفرد في الجامع بالدعاء والصلاة وذكّروه بالأعمى ونقلوه إليه. وحسب كلامه، عاد للمريد بصره.

الجدي في التنور يقول شاهد آخر أنه رأى عملية الحلاج عندما وضع الجدي بالتنور. وكانت تدور التنور يمنة ويسرة فإذا أوقد التنور جذب ذلك الطبق عند تغطيته التنور. ويدلي الجدي فيه، وله طبق آخر معمول حشيش مزروع يدخل تحت التنور.

وقال: أخبرني آخر أن له جديين أحدهما يشبه الآخر ويحمل إليه سراً، فيحمل الواحد ويذبح الواحد ويفعل به ما رأيت ويترك الآخر. فإذا دلي المذبوح في التنور نجا ذلك المسحور، وترك موضع ذلك الآخر الذي عليه العلف النابت، ويرد الجدي عليه ويبدأ الرعي. قال: "فذهبت دهشتي وزال عني ما كنت أجده من أمر الحلاج".

الماء المحلى من حيله.

أنه كان يغرف من النهران والسواقي ماءً جلاباً حلواً وفيه رائحة الماورد الخالص والكافور، وذلك أنه كان يأخذ إبريقاً جديداً أو شربة، ويأخذ السكر الطبرزي الفائق فيحله بالماورد ويعقده جلاباً قوياً ثخيناً.

ويأخذ الكوز الجديد والفخار الذي يريد ويصبه فيه ويلبسه به من باطن، فيشربه الكوز ويصير في باطنه كالبطانة ويتركه معه. فإذا طلب منه غرف به، ووقف ساعة حتى ينحل من ذلك الجلاب في الماء ويسقيه لمن يريد، فيظنه غير الجاهل قد صار جلاباً فيوهم على من يريد.

بيت العظمة ومن حيله.

أنه كان له بيت يسمى بيت العظمة في البصرة وكان إذا دخله وجلس فيه يُسَمي ويُعظِّم حتى يمتلئ به البيت.

والحيلة في ذلك أنه كان قد بنى بيتاً وعمل به باباً منجاة يدخل منها الريح ويتلبّس في أسراب إلى تحت السرير. والسرير مشبك، فيخرج الريح ويدخل في ثيابه فينفخها. وعليه قميص كبير عظيم إبْرِيْسَمْ حرير. وكلما دخل فيه الهواء كبر يسيراً يسيراً حتى يملأ البيت، فيُقال يعظم من بيت العظمة وأوهم على من يريد بما يجتاز ويريد.

طلوع الشمس من الغرب ومن حيله.

أنه كان يدّعي أنه يقدر أن يُطلع شمساً من بعض نواحي السماء غير المشرق، وقد كان بعض المحاكير قد أظهر بنواحي خراسان كهيئة الشمس تطلع من الغرب في بعض ليالي السنة وهذا من عمل أصحاب المخرقة.

ووجه الحيلة فيه أنه كان له شخص من بعض ثقاته أن يعمد إلى طشت كبير وإلى جامين كبيرين واسعين مدورين من الزجاج الصافي الفرعوني. ثم يأخذ شمعة كبيرة ويمضي إلى الموضع الذي ذكره. فيجعل الطشت محاذياً لوجه القوم، وفي وجه أحد الجامين ملتزماً محكماً، ويجعل الجام الآخر على قدر شبر من الأول ويشعل الشمعة بين الجامين تبين حمرة الطشت بياناً شديداً كأنه الشمس الواضحة.

فإذا رآه الناس من بعيد لا يشكون أنها شمس طالعة، فإذا تحقق ذلك ساعة سلة قليلاً قليلاً حتى يغيبه، ويوهم بما يريد على من يريد.

الرجل الذي يزداد طوله من حيله.

أنه كان يطول حين يشرف على دور جيرانه وعلى سطوحاتهم وربما كلم أصحابه من الخوخ.

ووجه الحيلة في هذا أنه يعمد إلى خشبتين طوال لهما أقدام كأقدام الإنسان، ويعمل لها مثل القبقابين من رسومها ويشدها على ساقيه وتكون أقدامه على النعلين اللذين يشبهان القبقاب، ويشهدها بنوارات قوية، ويفصل ثياباً طوالاً فيلبسها عليها. فمن رآه لا يشك أنه قد طال ذلك المقدار. وهو أول من أخرجها وتسمّى القامات عند المخيلين. وربما ألبسها خفيّ أديم، فإذا رآه شخص في تلك الحالة، رآه في صورة إنسان ظنّ أن ذلك الطول معجزة له، فيموّه على من يريد بكل ما يريد من الأمور.

صوت السماء ومن حيله.

أنه كان يتخذ زر بطانة طويلة، ويعمل في رأسها قصبة معوجة مقدار ذراعين كهيئة القصبة التي تكون في المساجد لإخماد القناديل والسرج.

ويتخذها مخلعة مثل قصبة صياد العصافير، وكان يحملها معه تحت ثيابه. فإذا صار إلى بعض بيوت أصحابه، أوصل تلك القصبة حتى تصير بعلو بيته أو داره، ويتكلم في أسفلها فيصعد الكلام وينزل إلى الدار، يتخيل السامع أن الكلام من السماء قد نزل عليه.

ثم يعطيه العلائم والإشارات فيستملك بهذا قلوب الرعاع والعوام.

وله حيل كثيرة يطول شرحها، ونحن قد ذكرنا بعضها.

حمام في الزيت المغلي حيلة عمر من أهل الأنبار، منقولة من نشوار المحاضرة.

قال القاضي التنوخي: أخبرني أبو الحسين أحمد بن يوسف الأزرق قال: قدم علينا بالأنبار من أهل القصر رجل يقال له عمر، يعظ العامة. ويقول: "من أطاع الله أطاعه كل شيء"، وأنه يغمس يده في الزيت المغلي الشديد الحرارة ولا يضره، فأفتن أهل البلد.

وقد عمل ذكوة في صحن الجامع على دكة، ووضع فوقه طنجيراً فاجتمع الناس إلى الجامع ليشاهدوه ويسألوني الحضور. فحضرت وإخوتي وسلطان البلد، والرجل القائم يصلي.

فلما جئنا طلبوا زيتاً، فأنفدت غلامي فأتى بظرف مملوء زيتاً. فصبوه في الطنجير وأوقد عليه وقوداً شديداً. فلما غلا الزيت وتشقق أقبل على أخي وقال: "يا أبا محمد والله والله لا يكون ما أحضرته غير الزيت". فقلت: "ما هو إلا زيتاً"، فانكشف لي أنها حيلة.

ونزع الرجل ثيابه وعمد إلى بقية كانت تخلفت من الظرف من الزيت مقدار نصف رطل. فصبها في الطنجير ودعا بسارب فغسل يده غسلاً شديداً وذراعيه وصدره.

ثم أخذ كفاً من الماء البارد رشه على الزيت فزاد نشيشه.

ثم صعد على الدكة وفي يده صنجات من حديد، فرمى بها في الطنجير ثم أدخل يده بسرعة شديد وصاع بأعلى صوته. "لا إله إلا الله"، غرف بكفه الصنجات وأخرجها من الطنجير ورمى بها وهو يصيح: "يا الله يا الله" بأعلى صوته.

ثم تقدم إلى الزيت فاغترف بكفه وغسل به صدره وذراعيه وهو يصيح صيحةً ويوهم من حضر أن صياحه دعاء. ثم نزل فأقبل على الجماعة وقال: "أنا آتيكم بعد سويعة بسباع الأجمة أقودها بآذانها"، فحملناه معنا إلى منزلنا وتغسل بماء حار وتدلك وبخرناه وأقام عندنا يومه.

فسألناه عن سبب ذلك قال: "من أطاع الله أطاعه كل شيء"، فاستكنّا عنه.

ولما كان بعد أيام جاءنا جماعة من أهل الأنبار وقالوا: "نحن نغتسل بالزيت ونعمل كما عمل ونغتسل بالقار ونأخذه من القدر بأيدينا حاراً"، فجمعناهم بحضرته وعملوا ذلك بين يديه. فأبلس وقال: "هذا إنما تجدكم بركتي"، وهرب من البلد ولم نعرف له خبراً.

وقال المخبر بهذه الحكاية: سألنا الذين علموا ذلك عن سببه قالوا: "جسرنا أنفسنا وتصبرنا فصبرنا على ذلك كما يصبر الواحد منا على الماء الحار الذي لا يصبر عليه".

تأمين على الجنة حيلة عكاشة.

ذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما رقي منبره قبل وفاته ونادى معاشر المسلمين: "من كان له عند نبيه مظلمة فلينهض فإن قصاص الدنيا أهون من قصاص الآخرة".

فنهض إليه عكاش وقال: "أنا يا رسول الله ضربتني بالسوط فما أعلم قصداً أم سهواً"، فناوله النبي – صلى الله عليه وسلم – السوط وقال: "اقتص من نبيك".

قال: "يا رسول الله إني كنت عرياناً"، فكشف النبي عن بطنه، فلما رآها عكاشة رمى السوط من يده والتصق ببطن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال: "يا رسول الله سمعتك تقول: من مس جسده جسدي أمن من النار فأحببت أن يلمس جسدي جسدك وعملت هذه الحيلة عليك".

فقال النبي – عليه الصلاة والسلام –: "من أراد أن ينظر إلى رفيقي في الجنة فلينظر إلى عكاشة". ونهض بها رجل آخر فقال: "يا رسول الله وأنا؟"، قال: "سبقك بها عكاشة".

حين يبعث حياً حيلة عابد من عباد المجوسية يقال إنه بهاريد المجوسي.

زعم علماء المجوس أنه تعلل أياماً وكان قد جعل له في الناووس، ودفن فيه سراً من المجوس، ثم خرج من السرداب إلى بيته وأقام مدة شهرين. ثم جاءهم، وقال: "إنني قد نشرت وبعثت إليكم نبياً"، فآمن به جماعة وصار له أصحاب.

الشر يجر الشر حيلة الوزير انعكست عليه.

حدثنا أبو طالب عبيد الله بن أحمد بن يعقوب الأنباري قال: رأيت من كتاب لبعض أصحابنا عن أبي بكر أحمد بن موسى بن العباسي بن مجاهد قال: قال عيسى بن عفان: حدثنا أبي قال: أخبرنا حماد بن مسلمة عن حميد بن بكير أن ملكاً من ملوك فارس كان يدخل إليه في كل يوم رجل من رعيته، فيقف بين يديه ويقول له:

”أيها الملك، المحسن مجازياً بإحسانه والمسيء يكفيك مساوئه“. كان ذلك من قوله، فعجب الملك به وقرّبه وأدناه. وكان من عادة الملوك أن يكون لها وزراء عدة، فحسده بعضهم على قربه من الملك وموضعه. وقال له يوماً وقد خرج من حضرة الملك: ”أحب أن تصير إلي في هذه العشية وتتعشى عندي“، فقال له: ”نعم“.

وأوصى الوزير طابخه أن يكثر من طعامه الذي يقدم إليه الثوم، ففعل وحضر الرجل وتعشى عنده وانصرف.

فلما كان من الغد بكّر الوزير إلى الملك فقال له: ”أيها الملك إن هذا الرجل الذي يحضر في كل يوم ويقف ذلك الموقف ويتكلم بما يتكلم به لَيزعم أن الملك أبخر“.

فقال له الملك: ”وما علامة ذلك؟“. قال: ”إن تدعوه فتسرّ إليه مسرّاً فيغطي أنفه منك“. فقال: ”إن من ذلك علامة“. فلما دخل الرجل ووقف موقفه قال: ”أيها الملك إن المحسن ليتجازى بإحسانه والمسيء تكفيه إساءته“.

فقال الملك: ”تقدم إليّ“، فتقدم فقال: ”ادن مني فإني أريد أن أسارك بسر“. فتقدم ووضع يده على فيه وأنفه لئلا يشم الملك رائحة الثوم الذي أكله عند الوزير.

فلما نظر الملك إليه وقد وضع يده على أنفه قال له: ”قد أمرت لك بجائزة سنية فسر فيها إلى صاحب الشرطة ليدفعها إليك“. ثم دعا بالدواة وكتب له إلى صاحب الشرطة: ”إذا أتاك صاحب هذه الرقعة فاقبض عليه واذبحه واسلخ جلده واحشيه تبناً واصلبه على باب المدينة“، وختم الرقعة ودفعها إلى الرجل، فأخذها ومضى.

فلقيه الوزير وقال له: ”يا فلان ما معك؟“، فقال: ”جائزة وصلني بها الملك“. فقال له: ”صلني بها“. فقال: ”قد فعلت“، واستحى منه فدفعها إليه. أخذها الوزير وأتى بها إلى صاحب الشرطة فأوْصَلَها إليه. فضّها وقرأها ثم قال: ”يا فلان تدري ما جئتني به؟“، قال: ”نعم جائزة الملك“. قال: ”إن فيها كذا وكذا“، فأسقط في يده وقال: ”دعني فقط غلط بي“، فقال صاحب الشرطة: ”إن الملوك لا تراجع“، فجهد أن يتخلص فلم يقدر.

أمر به فأخذ وأضجع وذبح وسلخ جلده، وحشي تبناً وصلب على باب المدينة. فلما كان من الغد بكر الناس على الملك كما كانوا يبكرون وحضر معهم الرجل، فدخل ووقف موقفه. ولما نظر إليه الملك قال له: ”ما فعلت بالجائزة التي أمرت لك بها أمس؟“. قال: ”أيها الملك إن فلاناً وزيرك سألني أن أصله بها ففعلت“.

فقال له الملك: ”تقدم إليّ“. فتقدم إليه ودنا منه وقد ذهبت رائحة الثوم فلم يسدد أنفه. فقال له الملك: ”لم سددت أنفك بالأمس ولم تسدده اليوم“. فقال: ”إن وزيرك فلان أطعمني البارحة الماضية ثوماً

كثيراً من طعامه وإني ظننت الملك أن يشمه فسددت فمي وأنفي، فلما كان اليوم ذهبت الرائحة فلم أسدده".

فقال الملك: "لعمري إن المحسن ليجازى بإحسانه والمسيء يكفيك إساءاته".

ثم رفع مرتبته وأحسن إليه وقال له: "الزم كل يوم موقفك ودم على ما أنت عليه. قال الله تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} (فاطر 43)".

والحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده سيدنا محمد وآله.

تمّ الجزء الأول من رقائق الحلل في دقائق الحيل، ويتلوه الجزء الثاني الباب الحادي عشر في حيل القواد والأمراء والولاة وأصحاب الشرطة، والحمد لله رب العالمين. فرغ من نسخه يوم الثلاثاء المبارك في شهر ربيع الأول من شهور سنة إحدى وستين وألف من الهجرة، وعلى صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

حول الكتاب

نبذة هذا الكتاب سابق بمئة عام عصر السياسي الإيطالي ماكيافللي، فهو يحتوي من «الحيل السياسية» ما يجعله في مصاف كتاب «الأمير» من حيث تعليم فنون الإمارة والحكم. ويتميّز بابتعاده عن أسلوب الإلقاء المباشر والتعليم المكشوف، فيختار القصّة والحكاية وسيلةً للتعليم والتوجيه.

والغريب أن هذا الكتاب الموضوع أصلاً باللغة العربية، منذ عام 1061 ه/ 1651 م، قد ظلّ مجهولاً لدى قرّاء العربية، بينما هو منتشر ومتداول بين قرّاء عدد من اللغات الأوروبية، وذلك منذ عام 1976 حيث أخرج الباحث رنيه خوام هذا الكتاب من مخطوطة مودعة في مخزونات المكتبة الوطنية في باريس. ولم يقتصر نشرها على اللغة الفرنسية بل تعدّاها إلى لغات أخرى.

ولا نشكّ في أن القارئ العربي سيلقى فائدة مضاعفة: البهجة من الأقاصيص والنوادر من جهة، واستعادة التاريخ السياسي العربي من جهة ثانية.

قيل في الكتاب

* «إلى جانب أهمّية الموضوع، نرى في كاتبنا شمولية فكرّية متعطّشة.» جريدة الحياة

* «عمل مرجعي عربي» Le Monde

* «كتاب رائع» Le Figaro

* «دسم المذاق، ومفيد كذلك!» France Soir

* «ماكيافللي عربي» L'Express

Notes

[←1]

علي الرضا: الإمام الخامس من سلالة الحسين (بن علي بن أبي طالب، حفيد الرسول)، يعدّ الإمام الثامن عند الإثناعشرية (توفي في 214 / 819).

[←2]

أحمد بن محمد الثعالبي، مفسر وفقيه، مات في 427 ه/ 1035 م.

[←3]

مقاتل بن سليمان راوية حديث وكتب تفسيراً ل القرآن . ولد في بلخ في أفغانستان، ومات في البصرة في 150 ه/ 767 م.

[←4]

قصة قرآنية معروفة (راجع سورة ص، آية 23 – 24) حيث يقول على لسان داوود: لقد ظلمك بسؤال إليك نعجتك إلى نعاجه...

[←5]

أي يصنع الفخار والأباريق.

[←6]

مروان الثاني بن محمد هو الخليفة الأموي الرابع عشر والأخير حكم ما بين 127 ه/ 744 م و 132 ه/ 750 م.

[←7]

أول خليفة عباسي بعد سقوط الأمويين وهنا تولى بعده زعامة الحزب العباسي.

[←8]

وزير العباسيين وإليه ينسب انتصارهم على الأمويين، قتل بأمر من المنصور في 37 ه أو 75 م.

[←9]

اسم آخر للخوارج.

[←10]

هو مؤنس الفحل نفسه الوارد في القصة السابقة، وسمي المظفر بعد انتصارات في مصر (302 ه./ 914 م.) وضد البيزنطيين (311 ه./ 927 م.).

[←11]

شاعر وخطاط وسياسي شغل الوزارة ثلاث مرات.

[←12]

خليفة عباسي حكم ما بين 322 ه/ 934 م و 329 ه/ 940 م.

[←13]

خليفة عباسي حكم ما بين 575 ه/ 1180 م و 622 ه/ 1225 م.

[←14]

ابن عم عضد الدولة، ابن معز الدولة، الذي حكم بغداد بوصاية على خليفتين بين 356 ه/ 967 م و 366 ه/ 977 م.

[←15]

الريح هنا بمعنى القوة والنصرة والدولة.

[←16]

هو من نسل الحسن بن علي (حفيد الرسول)، ولذلط يطلب لنفسه الخلافة، وينتمي إلى الإمامية الزيدية في اليمن.

[←17]

المقتر هو الخليفة ال 19 .

[←18]

ملك فارسي ساساني.

[←19]

الإمام الثامن من أبناء الحسين حفيد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -.

[←20]

المهدي بن المنصور وقد أصبح خليفة من 158 ه/ 775 م 169 ه/ 785 م.

[←21]

خليفة عباسي حكم من 289 ه/ 902 م إلى 295 ه/ 908 م.

[←22]

على حدود خوزستان أي قريب من مناطق سيطرة الزنج.

[←23]

هو الفضل بن سهل لقبه بهذا اللقب المأمون (حكم من 813 إلى 833) وذلك مكافأة له على خدماته.

[←24]

محمد الأمين، أخو المأمون ومنافسه على العرش.

[←25]

وزير الخليفة المقتدر.

[←26]

يبدو أنه ملك اليمن.

[←27]

يُستأنف ملك فارسي.

[←28]

هرثمة بن أيان قائد جيوش المأمون لاستعادة الكوفة من بعض المتمردين المطالبين بالخلافة.

[←29]

إحدى ثورات القرامطة.

[←30]

خليفة عباسي حكم ما بين 218 ه/ 833 م و 227 ه/ 842 م.

[←31]

خليفة عباسي حكم من 289 ه/ 902 م إلى 295 ه/ 908 م.

[←32]

العين.

[←33]

خليفة أموي، هو سليمان بن عبد الملك حكم من 96 ه/ 715 م إلى 99 ه/ 717 م.

[←34]

راوٍ من رواة الحديث النبوي مات في الكوفة حوالي 110 ه/ 728 م.

[←35]

شريح ابن الحارث الكندي ”قاض“ معروف مات عام 87 ه/ 806 م وقد عاش أكثر من مئة عام.

[←36]

مدينة عراقية ومركز ديني وعلمي للشيعة الإمامية.

[←37]

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الأنصاري ولد في 113 ه/ 731 م ومات في 182 ه/ 798 ؛ وله "كتاب الخراج".

[←38]

كاتب وشاعر في عصر الخليفة المتوكل ولد في 191 ه/ 719 م. ومات في 283 ه/ 896 م.

[←39]

أبو دلف قائد في عصر المأمون ثم المعتصم.

[←40]

والدة جعفر بن يحيى وزير هارون الرشيد من البرامكة.

[←41]

الفقيه والإمام المعروف بأنه مؤسس المذهب الحنفي نسبة له وقد توفي 149 ه/ 767 م.

[←42]

صوفي توفي عام 245 ه/ 860 م.

[←43]

الحسين بن منصور الحلاج الصوفي المشهور الذي حكم عليه بالموت في بغداد العام 309 ه/ 922 م.